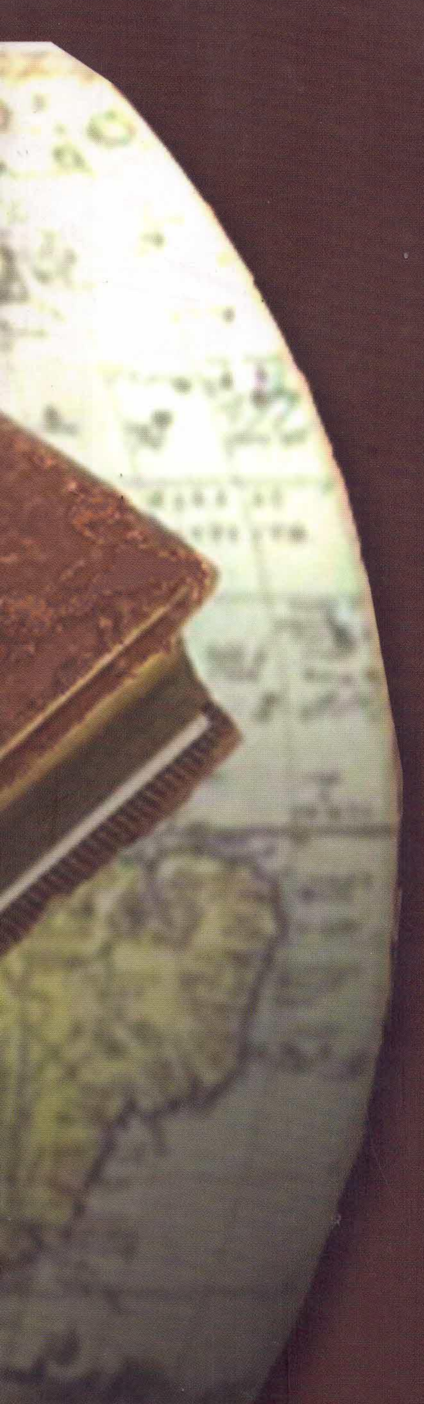
البشانقة

التاريخ والثقافة

جمال الدين سيد محمد





بعد فترة وجيزة من بدء الحرب فى البوسنة والهرسك فى عام ١٩٩٢ صدرت مجموعة من الدراسات والكتب عن قضية البوسنة. وكان التركيز فى أغلب الأحوال فى معظم هذه الكتب على الأحداث اليومية. أما الجانب التاريخى المتعمق فيبدو ناقصاً ومبتوراً وغامضاً، وأما البشانقة الذين هم لب القضية وأصحابها فالكلام عنهم منبرى إنشائى دون التعمق فى صلب قضيتهم وفى جذور هويتهم. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن كثيرين ظلوا لفترة طويلة يجهلون البشانقة وبلدهم البوسنة والهرسك، وربما لم يعرفهم البعض إلا من خلال بعض السمات الطريفة والأحداث غير المألوفة، بينما لم يكونوا معروفين على الإطلاق من خلال خصائصهم الجوهرية التى تشكل سماتهم السياسية والتاريخية والثقافية والأدبية وعاداتهم وتقاليدهم.



المجلس الأعلى للثقافة

البشانقة
التاريخ.. والثقافة

جمال الدين سيد محمد



٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

محمد ، جمال الدين سيد

البشانقة التاريخ والثقافة / جمال الدين سيد محمد . - ط ١ .

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ ،

٢١٦ ص ، ٢٤ سم

١ - البوسنة والهرسك - تاريخ

(أ) العنوان

٩٤٩,٧٤٢

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٩٤٣

الترقيم الدولى 1 - 163 - 437 - 977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E.Mail: asfour@onebox.com

البشانقة
التـــاريخ والثقافة

بِسْمِ اللَّــهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده اللّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

[سورة الأحزاب ، الآيتان ٧٠ ، ٧١]

(صدق اللّه العظيم)

تقـــديم

بعد فترة وجيزة من بدء الحرب فى البوسنة والهرسك فى عام ١٩٩٢ انهال على الساحة الثقافية العربية سيل من الدراسات والكتب عن قضية البوسنة . وكان التركيز فى أغلب الأحوال فى معظم هذه الكتب على الأحداث اليومية ووقائع الحرب بمذابحها وأهوالها ومشاهدها المروعة ، وعلى التواطؤ الفاضح للغرب والتخاذل المهين للمجتمع الدولى ومنظمته الدولية .. أما الجانب التاريخى المتعمق فيبدو ناقصًا ومبتورًا وغامضًا ، وأما البشانقة الذين هم لبُ القضية وأصحابها فالكلام عنهم مِنبَرى إنشائى دون التعمق فى صلب قضيتهم وفى جذور هويتهم .

ومن خلال اطلاعى على بعض هذه الإصدارات عن البوسنة أحزننى أن أجد بها شيئًا من المغالطات والتحريفات والمفاهيم الخاطئة السائدة عن البشانقة سكان البوسنة والهرسك وعن بلادهم وتاريخهم . هذا بالإضافة إلى احتواء هذه الكتب على عديد من الأخطاء فى أسماء الأشخاص والأماكن والتواريخ أيضًا . ومن المؤكد أن معظم المعلومات والبيانات الواردة بها مستقاة من مصادر غربية ، وفى أحيان كثيرة منقولة عبر مصادر وسيطة عن مصادر صربية وكرواتية . وهذه المصادر الأخيرة تفتقد إلى النزاهة الفطرية والحيدة العلمية والموضوعية الأكاديمية فى كثير مما تكتبه وتنقله عن البشانقة وعن بلدهم البوسنة . والهدف واضح ومفهوم وهو خلق صورة مشوهة ومغلوطة تخدم أغراضها وتحقق أطماعها لدى الرأى العام العالمى بوجه عام والأوروبى بشكل خاص .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن كثيرين ظلوا لفترة طويلة يجهلون البشانقة وبلدهم البوسنة والهرسك ، وربما لم يعرفهم البعض إلا من خلال بعض السمات الطريفة

والأحداث غير المألوفة ، بينما لم يكونوا معروفين على الإطلاق من خلال خصائصهم الجوهرية التى تشكل سماتهم السياسية والتاريخية والثقافية والأدبية وعاداتهم وتقاليدهم وما شابه ذلك . وما زال كثيرون - على سبيل المثال لا الحصر - لا يعرفون البوسنة إلا بوجود الأتراك العثمانيين فيها وبتمسك أهلها من البشانقة بالأسلوب الشرقى للحياة ، ولا يعرفها آخرون إلا بعملية الاغتيال التى قام بها الطالب جافريلو برنتسيب فى ٢٨ يونيو عام ١٩١٤ فى سرايفو ضد ولى العهد النمساوى ، وكان هذا هو أحد الأسباب الرئيسية لنشوب الحرب العالمية الأولى .

وبعد الاطلاع على ما وصل إلى يدى من كتب وأبحاث عن البوسنة تأكدت أن قضية البوسنة وبلادهم فى حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة والكتابة حتى يتمكن القارئ العربى من فهم صلب القضية واستيعاب خصوصية وتميز البشانقة ومدى اختلافهم وتفردهم عن غيرهم من الشعوب المجاورة . ومن هنا تولدت فى خاطرى فكرة إعداد دراسة جديدة تسد الفراغ الموجود فى المكتبة العربية عن هذا الشعب البوسنى المجنى عليه ألا وهو شعب البشانقة . ويعد اسمه هذا غير مألوف بالنسبة للأذن العربية وغير متداول فى الكتب والأبحاث العربية على الرغم من ذيوعه وانتشاره فى الأوساط البوسنية وعلى الرغم من حبهم الشديد - أى البوسنيين - لهذا الاسم بالذات .

وقد حاولت فى دراستى هذه التى بين أيديكم تقديم أكبر قدر ممكن من المعلومات القائمة على الحقائق الموثقة ، قدر المستطاع . وفى الفصل الأول كان السؤال الذى فرض نفسه واحتاج إلى إجابة شافية : من هم هؤلاء البشانقة ؟ ومن أين أتى اسمهم هذا ؟ وهل هم من السلاف الجنوبيين أم من الأتراك ؟ وما حقيقة أصولهم التاريخية والعرقية ؟

والحقيقة أن اسم البشانقة والقومية البشناقية ظلا محل مناقشات ومجادلات عبر مراحل التاريخ بغرض توضيح كل الجوانب التاريخية والدينية والقومية والسياسية المتعلقة بهذا الاسم . وقد حاولت فى هذا الفصل تسليط بعض الأضواء على هذا

الاسم . وأتعشم أن أكون قد نجحت فى تبسيط فهمه وجلاء غموضه وقبوله اسمًا متعارفًا عليه لكل سكان البوسنة والهرسك الحاليين وبخاصة المسلمين منهم .

كما تطرقت فى هذا الفصل إلى معاناة البشانقة وذلك من خلال الحديث عن تطورهم التاريخى فى مختلف المجالات عبر تاريخهم الممتد لعدة قرون . وكل هذه القضايا المثارة أساسية وجوهرية بالنسبة للبشانقة أولاً وقبل كل شىء ، ولكنها مهمة أيضًا بالنسبة للآخرين وبخاصة فى مواجهة ادعاءات ومزاعم أولئك الذين يعادونهم وينكرون عليهم أصلهم وهويتهم ويسمونهم تارة بالأتراك أو المسلمين أو المحمديين ، وتارة أخرى يجعلونهم من الصرب أو من الكروات .

وفى الفصل الثانى من كتابى هذا جرى التركيز على تاريخ البشانقة الذى يعد فى الوقت نفسه هو تاريخ البوسنة والهرسك ، وآثرت التركيز عليه تصحيحًا لبعض المعلومات والمفاهيم وذلك لأن تاريخ البشانقة تعرض – لفترة طويلة – لكثير من الإغفال المتعمد لبعض جوانبه ، ومن التفسير المتحيز لبعض ظواهره . ومن غرائب الأمور أن المؤرخين البشانقة لم يكن بإمكانهم قبل الاستقلال صياغة وإعداد دراسة موضوعية أكاديمية عن التاريخ المركب المتكامل للبشانقة تعرض المسيرة الكاملة لتطورهم ونضالهم الشرعى من أجل استعادة هويتهم القومية . وحظر النظام الشيوعى كتابة تاريخ البشانقة ، الذى كان يجابه على الدوام مقاومة عنيفة من جانب المتعصبين .

وفى الفصل الثالث تعرضت لكثير من التفصيلات والمعلومات والبيانات الأساسية المتعلقة بجمهورية البوسنة والهرسك ، التى أردت – عن عمد – إبرازها أمام القارئ حتى تتضح الصورة أمامه ، ومنها أصل اسم البوسنة والهرسك ومن أين جاء ، والبيانات الخاصة بالموقع والمساحة ، وبالتغيرات فى أعداد السكان ومدلولات أرقامها، ثم اللغة البوسنية ، والأحزاب السياسية ، ثم عرض موجز للسيرة الذاتية لأول رئيس لجمهورية البوسنة على عزت بيجوفيتش .

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن مدن البشانقة ، وذلك إيمانًا منى بأهمية مثل هذا العرض لأنه يمثل – بلا شك – جزءًا مكملاً من الصورة الشاملة التى حاولت

تقديمها على صفحات هذا الكتاب . ومن ناحية أخرى تمثل المعلومات والحقائق الواردة بهذا الفصل تسجيلاً فريداً عن العديد من الآثار الثقافية الإسلامية التى اختفت من على وجه أرض البوسنة والهرسك بفعل العدوان الغاشم الذى استهدف الطمس المتعمد لتاريخها وثقافتها .

وخصصنا الفصل الخامس للحديث عن الإبداعات الأدبية للبشانقة التى نرى أنها لا تتصف فحسب بالتميز والتفرد وإنما أيضًا بالديمومة والخلود ولذا فهى تستحق التوقف عندها والتأمل فيها . والحقيقة أن أصالة هذه الإبداعات جعلت من المستحيل على أية صدفة محوها ومن العسير على أى هجوم من جانب ألَدِّ الأعداء سلبها مضمونها المتميز وأسلوبها الفنى المتفرد . والحديث عن هذه الإبداعات هو تأكيد من جانبنا بأنها نجحت فى الانتصار والصمود فى وجه قوى الظلام المدمر والجهل والتخلف والتطهير العرقى والبربرية الحديثة ، وهو أيضًا تعويض عن الإغفال والإهمال الذى لقيته من جانب الباحثين والمهتمين فى جميع أنحاء العالم العربى لأسباب متعددة.

وفى الفصل السادس والأخير تحدثنا عن بعض عادات وتقاليد البشانقة وذلك انطلاقًا من أهمية المعرفة الواعية بعاداتهم وتقاليدهم وما يرتبط بها من تسجيل لتطورهم وتميزهم الحضارى والثقافى . ومن خلال رحلة سريعة عَبْر التاريخ وصفحاته ألقيت نظرة عاجلة على بعض عادات وتقاليد البشانقة وذلك من أجل التعرف على مدى قربها أو ابتعادها عن عادات الشعوب المجاورة لهم وعن العادات الإسلامية الصحيحة ، وكل هذا أيضًا بغرض استكمال الصورة التى أردنا تقديمها لقارئنا العزيز عن تاريخ وثقافة البشانقة .

ومنذ أن أعلنت جمهورية البوسنة والهرسك استقلالها بناء على رغبة أغلبية أفراد شعبها من البشانقة ، بل وحتى من قبل الاستقلال ، وهى تتعرض لحملات شرسة تهدف إلى إنكار تاريخ البشانقة القديم وثقافتهم الفريدة واستخدام كل الذرائع والمزاعم من أجل إثبات أنها كانت طوال فترة تواجدها منذ القدم جزءًا لا يتجزأ من شعوب الدول المجاورة لها وبالتالى ليس لها – فى المستقبل – الحق فى التواجد كدولة

حرة مستقلة . ومن الأفضل لها ولشعبها أن تصبح جزءًا من دول أخرى أو كيانًا فى مجموعة اتحادية مثلما كانت يوغسلافيا سابقًا . وتبين أن كل هذه المزاعم لم يكن لها من هدف إلا إيجاد المبرر لاغتصاب استقلال البوسنة والقضاء على قوميتها وعلى استقلالها السياسى وسيادتها الإقليمية . ومن هنا تأتى أهمية مثل هذا الكتاب الذى يفضح كل هذه الأكاذيب ويكشفها أمام الرأى العام العربى .

وفى البداية واجهت مشكلة عسيرة للغاية كادت تدفعنى إلى التخلى والعدول عن الفكرة من أساسها والإقلاع عن مواصلة البحث والدراسة ألا وهى صعوبة الوصول إلى المراجع البوسنية التى أثق تمامًا فى نزاهتها وموضوعيتها بالنسبة لموضوع بحثى . ومن الوهلة الأولى تيقَّنت من استحالة ذهابى إلى سرايفو بحثًا عن الحقيقة الضائعة ، فحاولت الاتصال بأصدقائى القدامى فى البوسنة . ويا هول ما علمت ، فمنهم من لقى ربه ، ومنهم من ترك البوسنة مهاجرًا وباحثًا عن مكان آمن يقضى فيه بقية عمره فى هدوء وسكينة ، ومنهم من لا حول له ولا قوة فى ظل ظروف متغيرة أصبح فيها الحصول على لقمة العيش هو أقصى المُنَى ونهاية المطاف . وعلى الرغم من قتامة الصورة ودخولى إلى طريق مسدود فإننى لم أفقد الأمل ولم أعدم الإصرار . وتمكنت بفضل الله وعونه وبالمثابرة من الحصول على بعض المراجع التى أعانتنى على استكمال بحثى ودراستى .. ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أنتهز هذه الفرصة لأتقدم بخالص الشكر والامتنان للأصدقاء البوسنيين الذين قدَّروا حماسى الموضوعى ومثابرتى العلمية وقدموا لى كل ما فى وسعهم .

ولا أخفى عليك عزيزى القارئ أننى كنت أتعشم أن أجعل من دراستى هذه موسوعة مصغرة تُعين على فهم أغلبية القضايا والمسائل والموضوعات المتعلقة بالبشانقة وببلادهم والمثارة على الساحتين الإعلامية والثقافية إلا أن الحيز المسموح به للدراسة كان نصب عينى على الدوام وحاصرنى من كل اتجاه فاضطررت إلى الالتزام به . وآثرت أن أقدم من كل بستان زهرة ، أى أن أتعرض للخطوط والقضايا الرئيسية

دون الإغراق فى الفرعيات والإيغال فى التفاصيل الدقيقة ، ولكن أيضًا فى إيجاز لا يخل بالمضمون ولا يبتعد عن الهدف الأساسى من الدراسة .

وكل ما آمله أن تكون هذه الدراسة قد حققت غايتها المنشودة وهو تسليط بعض الأضواء على قضية البشانقة وخصوصية تاريخهم وتفرد ثقافتهم وبالتالى امتلاكهم لهوية قومية متميزة بهم ، وأن يكون هذا الكتاب قد أنجز غرضه المقصود بملء جانب من الفراغ الذى تشكو منه المكتبة العربية فى هذا المجال .

ورجائى عند اللّه العلى القدير أن يجعل هذا الكتاب خالصًا له ومقبولاً عنده فلم أقصد به إلا وجهه الكريم ، وأن يعين عليه وينفع به .

والحمد للّه من قبل ومن بعد .

جمال الدين سيد محمد

الفصـــل الأول

البشـانقـة .. أهـل الـبوسـنـة والـهـرسـك

- البشـانقة والسـلاف الجـنوبيـون .
- العـثمانيـون والبشـانقة .
- البشـانقـة فـى ظل الاحـتلال النمسـاوى الهـنغارى .
- تـطـور وضع الـبشـانقة فـى الـعـصـر الحـديـث .

الفصــــل الأول

البشـانقـة .. أهـل البوسـنـة والـهـرسـك

البشانقة والسلاف الجنوبيون :

البشـانقة هم أفراد الشعب الذى يعيش على أراضى البوسنة والهرسك ، أى هم سكان البوسنة والهرسك . وهم يعدون - من الناحية العرقية - من السلاف الجنوبيين الذين هاجروا إلى المنطقة الحالية للبوسنة فى عهد الهجرات الكبرى لمختلف القبائل السلاڤية إلى منطقة البلقان ، وهذا يعنى فى الفترة ما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين . ووفقًا لآراء العديد من المؤرخين فقد وفدوا إلى منطقة البوسنة فى موجات عديدة متفرقة .

ولم يهاجر السلاف إلى هذه المنطقة بمفردهم وإنما فى المقام الأول فى إطار تبعيتهم للآڤار . واندمج السلاف النازحون إلى البوسنة مع السكان الموجودين بها من الإيلير والإيلير الرومانيين وغيرهم من مستوطنى الأراضى البوسنية حينذاك ، وسرعان ما أصبحوا يشكلون أغلبية السكان وتخلصوا من ارتباطهم بالآڤار . ويبدو أن السكان الأصليين لهذه المناطق انسحبوا أولاً إلى الجبال ثم اندمجوا مع السلاف النازحين وأصبحوا فيما بعد منهم ولم يتم ذلك طبعًا إلا بشكل تدريجى .

واستمر البشانقة يعيشون فى الأراضى البوسنية الممتدة من نهر ڤاردار وجبال شارا وبروكلتيا الضخمة فى الجنوب الشرقى وإلى نهرى ساڤا وأونا فى الشمال الغربى . وعلى هذه الأراضى اختلط البشانقة مع غيرهم من النازحين ولكن بدرجات متفاوتة .

وقد جلب السلاف النازحون إلى البوسنة معهم العبادة الثنائية الخاصة بهم والقائمة على عبادة الشمس والقمر ، ووجدوا فى منطقة البوسنة العديد من العبادات المختلفة التى كانت لا تزال حية ، ومنها المسيحية المبكرة ، ثم بقايا عبادة الآلهة الرومان والعبادات الفارسية وعبادات أخرى لتلك الشعوب التى عَبَرت الأراضى البوسنية أو مكثت فيها لفترة طويلة تاركة وراءها قدراً من آثار معتقداتها . وقد وجد السلاف أيضاً هنا بقايا لمختلف العبادات الآسيوية التى جلبها إلى هذه المنطقة المحاربون الرومان القدماء من غزواتهم فى آسيا أو باعتبارهم مولودين فى آسيا .

ورغم أنه حتى القرن الثامن الميلادى كان يسود فى منطقة البوسنة الحالية وضع فريد من الناحية الدينية فيمكن القول مع ذلك بأنه منذ القرن السابع تقدمت عملية تنصير السكان النازحين الجدد : البشانقة تقدماً سريعاً . واستناداً إلى جميع المصادر المتاحة فقد جرت هذه العملية بشكل تدريجى متمهل ، ولكن مضمون ، من أجل التوحيد الدينى القائم على المسيحية . ونتيجة لتنوع العبادات الموجودة وبسبب الانعزال النسبى للبوسنة ، ولغير ذلك من الأسباب التى زادت من صعوبة القيام بأى نشاط يهدف إلى إحداث أى نوع من التجانس فإن عملية التنصير كانت بالتأكيد بطيئة ومرتبطة بامتزاج لا مختلف أنواع السكان فحسب ، بل ومختلف العبادات أيضاً ، أو على الأقل بقاياها المهمة . ومنذ أن أصدر الإمبراطور قنسطنطين الأول مرسومه الخاص بالتسامح الدينى وتوحيده للمسيحية مع الديانات الأخرى ساد فى البوسنة ، وكذلك فى أوروبا كلها ، جو من التسامح الدينى وتعدد الأديان .

وفى أواخر القرن الثامن ، مع انتهاء عملية تنصير البوسنة ، وفى الوقت نفسه مع بدء الانقسامات داخل الكنيسة والتى انتهت فى عام ١٠٥٤م ، كانت تتواجد فى البوسنة الديانات الثلاث التالية : الكاثوليكية بقيادة روما ، والمسيحية الأرثوذكسية بزعامة القسطنطينية ، والبوجوميلية – أى المانوية الجديدة – بقيادة الكنيسة البوسنية. وهكذا استمر طابع الأراضى البوسنية كمنطقة يسودها تعدد الأديان .

وسيطر أتباع المسيحية الشرقية الأرثوذكسية على الأجزاء الجنوبية الشرقية والشرقية المتطرفة من البوسنة الحالية وهو ما يعرف بمنطقة "الهوم" . وانتشر أتباع الكاثوليكية فى الأجزاء الغربية والوسطى من الأراضى البوسنية . ولكن – كما تقول التقارير وبخاصة المنقولة عن مصادر كاثوليكية – فإن البوجوميليين أتباع المانوية الجديدة والكنيسة البوسنية كانوا ينتشرون ويسيطرون فى جميع أنحاء البوسنة آنذاك.

ومن الراجح أن الكنيسة البوسنية قد نشأت فى عهد مبكر من تاريخ البوسنة ، وقد كان لها نظامها المستقل وطقوسها ورجال الدين الخاصين بها . وهذا يؤكد حقيقة مهمة وهى أن الكنيسة البوسنية كانت مستقلة فى مواجهة كل من الكنيسة الكاثوليكية فى روما والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، وأن تعاليمها الدينية تتباين عن تعاليم التيارين الآخرين المعروفين فى المسيحية . وهذا التباين يقدم أساسًا ثابتًا للتأكيد بأن الكنيسة البوسنية لم تكن فحسب محورًا لسلطات الحكام البوسنيين ، بل وكانت أيضًا تمثل لسكان الأراضى البوسنية ذلك الرمز الثقافى الحاسم الذى يشير بجلاء إلى تميزهم واختلافهم عن سكان الدول المسيحية المجاورة ، وبالتالى خلقت لديهم الوعى بهويتهم القومية البوسنية . ومن المؤكد أن هذا الوعى كان ينمو فى قوته مع تزايد شدة وحدة الضغوط الخارجية .

وينبغى هنا التنويه إلى أنه قد تم اتهام الكنيسة البوسنية بالإلحاد من جانب الحكام المجاورين ، ثم فيما بعد من جانب المجلس البابوى فى روما على الرغم من أنه حتى وقتنا الحالى ما زالت مسألة إلحادها مثار شك ومحل تساؤلات وموضع بحث .

وعلى أية حال فإنه يمكن التقرير بأنه كانت توجد فى دولة البوسنة المستقلة آنذاك الكنائس الثلاث المذكورة. واستمرت الحال على هذا النحو إلى أن قام الملكان الأخيران للبوسنة ، وهما الملك ستيبان توماس والملك ستيبان توماشيفيتش ، وذلك استنادًا إلى نصيحة وتأييد من روما والدول الكاثوليكية المحيطة ، بجهد تدريجى كبير من أجل إعادة تنصير البوسنة بالكاثوليكية وطرد أتباع الكنيسة البوسنية بتهمة الإلحاد . وهكذا أصبحت الكاثوليكية فى القرن الخامس عشر هى الديانة الرسمية للدولة ، وذلك خلال

الأعوام العشرين الأخيرة من عمر دولة البوسنة . ونتيجة لذلك انخفض عدد أتباع الكنيسة البوسنية انخفاضًا هائلاً ، واضطروا إلى الهجرة الإجبارية إلى الأراضى التابعة للهرتزوج ستيبان فوكتشيتش كوساتشا . ونسبة للقبه "هرتزوج" سميت هذه الأراضى فيما بعد بالهرسك .

وخلال عمر دولة البوسنة المستقلة جرت على أوسع نطاق عملية الامتزاج والاندماج بين البشانقة سكان البوسنة بغض النظر عن اختلاف أصولهم العرقية ، وساروا جميعًا على درب خلق شعب بوسنى واحد موحد . ويهمنا فى هذا الصدد التنويه إلى أن التبعية العرقية كانت أهم بكثير من التبعية الدينية فى البوسنة آنذاك ، أى قبل القرن الخامس عشر . ومن ثم فقد سجلت الوثائق أن عددًا كبيرًا من العائلات البوسنية المعروفة كان – لأسباب عملية – ينتقل عدة مرات من ديانة إلى أخرى فى فترات زمنية وجيزة للغاية ، من عشرة أعوام إلى عشرين عامًا . وأوضح مثال وأكبر دليل على ذلك هو الهرتزوج ستيبان كوساتشا شخصيا الذى اعتنق الديانات الثلاث . ومن الجلى أن هذا التصرف لم يكن معيبًا أو شائنًا حينذاك فى البوسنة ، وهذا يعنى أن اعتبار تغيير العقيدة الدينية من قبيل الخيانة قد نُقل إلى البوسنة فيما بعد ذلك بكثير ، ويرجح أن هذا قد حدث فى أوائل القرن التاسع عشر وخلال الثورة فى صربيا .

وتشير الوثائق بشكل لا يحتمل اللبس إلى أن سكان دولة البوسنة المستقلة فى القرون الوسطى كانوا شعبًا واحدًا ، له قومية واحدة . ولم يجر أبدًا لا من قريب أو من بعيد ذكر الصرب أو الكروات ، ولم تشر أية وثيقة إلى تعدد قوميات البشانقة سكان البوسنة والهرسك آنذاك .

أما فيما يتعلق بالتبعية الدينية للبشانقة فالوثائق هنا أيضًا واضحة وضوح الشمس فيجرى ذكر أنه يوجد فى البوسنة الكاثوليك والأرثوذكس والبوجوميليون أتباع الكنيسة البوسنية . ولكن على الدوام يقال عنهم إنهم كلهم بوسنيون ، أى البشانقة . فعلى سبيل المثال عند حديث الوثائق عن الحرب الأهلية تؤكد حرفيا أن البوسنيين يتقاتلون فيما بينهم حتى الإبادة .

ومن الحقائق المهمة التى يدعمها العديد من الوثائق أيضًا أن البوسنيين فى القرون الوسطى كانوا يعتبرون أنفسهم بشانقة ، وهكذا أيضًا كان يعتبرهم الآخرون بغض النظر عن تبعيتهم لأية كنيسة من الكنائس الثلاث المذكورة . كما يُلاحظ أن جميع الوثائق التى تحدثت عن سكان البوسنة فى وقت استقلال البوسنة كدولة ، أى قبل الغزو العثمانى ، كانت تطلق عليهم اسم البشانقة . وقد تم استخدام هذا الاسم العرقى على الصعيد العالمى حينما يتحدثون عن أنفسهم أو حينما يتحدث عنهم الآخرون . ولم يتم على الإطلاق فى الوثائق استخدام أى اسم عرقى آخر يُقصد به سكان البوسنة فى عهد دولة البوسنة فى القرون الوسطى .

وإذا كان الأمر يتعلق فى الوثائق بشخص آخر ليس بوسنيا ، أى ليس من البشانقة ، فإنه يتم عندئذ تسميته باسمه المناسب مثل : شخص من راشا أو فلاه ، أو شخص من دوبروفنيك أو صربى أو كرواتى وهكذا . إلا أنه لم يتم على الإطلاق استخدام مثل هذه الأسماء والألقاب بالنسبة للبوسنيين سكان البوسنة . ويعتقد الباحثون والمؤرخون أن هذا دليل كاف وأكيد على أنه لم يكن يوجد بالأراضى البوسنية سكان آخرون لهم هوية الشعب آنذاك إلا البشانقة .

ونادرًا ما ظهر للصرب أو الكروات أى ارتباط بالأراضى البوسنية إلا فى المناطق البوسنية المتطرفة التى ترتبط بحدود مع صربيا أو كرواتيا . وكان هذا أمرًا معروفًا بشكل جلى فى كل مكان حينذاك . ولذا فإنه لا أساس من الصحة للافتراض القائل بأن سكان البوسنة كانوا من الناحية العرقية من الصرب أو الكروات ، أو بالمعنى التاريخى من أتباع القومية الصربية أو الكرواتية .

العثمانيون والبشانقة :

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ظهر فى البوسنة الإسلام الذى جلبه معهم الأتراك العثمانيون مع قدومهم إلى البوسنة فى عام ١٤٦٣م . واستمروا بها حتى عام ١٨٧٨م . وفى أقل من مائة عام احتل الإسلام احتلالاً كاملاً المكان السابق للكنيسة البوسنية على الخريطة الدينية للبوسنة والهرسك .

ويتم التأكيد دومًا بأن الأتراك العثمانيين هم الذين جاءوا بالإسلام إلى هذه المناطق البلقانية رغم أنه من المعروف جيدًا ، بناء على عديد من الوثائق والمستندات ، أنه كان يوجد فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر إسلام قوى فى المناطق حول نهر الدانوب ، وكانت توجد قرى إسلامية فى منطقة سريم . كما كان يوجد أيضًا كثير من المسلمين حول مدينة بلغراد .

ويتحتم هنا أن نضيف أننا فى أبحاثنا السابقة أثبتنا وجود اتصالات قديمة (منذ القرن السادس الميلادى) بين الشعوب العربية وبين السلاف الجنوبيين ، وليس من المستبعد ، بل ومن المؤكد أن هذه الاتصالات كان لها دور أساسى فى وصول الإسلام ووجود مسلمين بشبه جزيرة البلقان ، إلا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة .

ومع قدوم الأتراك العثمانيين والانتقال الجماعى للسكان البوسنيين من أصحاب الديانات الثلاث إلى الإسلام تشكلت طائفة البشانقة المسلمين . ووفقًا لما ورد عن الأتراك العثمانيين وعن السلطات العثمانية فإن مسلمى البوسنة كانوا يطلقون على أنفسهم اسم البشانقة . وبالاسم نفسه كان الأتراك العثمانيون والإدارة العثمانية يسمونهم فى وثائقهم ومستنداتهم الرسمية . وقد تم العثور فى كثير من المكاتبات الرسمية للباب العالى على اسم "بوشناق" فى مختلف تراكيبه وأشكاله باللغة التركية : بوسنة كلار ، بوسناك طايفيتسى ، بوسنالو تاقيمى ، بوسنالو قوم (أى الشعب البوسنى) .

ويهمنا هنا أن نوضح أن الكلمة بوشناق أو بشنق هى فى الأصل كلمة بوسنية خالصة وتعنى : "شخص بوسنى" ، ونطقها الصحيح "بوشنياك" . وأعتقد أن التحريف البسيط إلى بوشناق قد جاء فى عهد العثمانيين كنوع من تسهيل النطق ليس إلا . وبناء عليه فالكلمة كانت موجودة فى اللغة البوسنية قبل قدوم الأتراك العثمانيين إلى البوسنة ، أما نقلها إلى اللغة العربية بشكلها المحرف أو المعدل واستخدامها بلفظها وحروفها فلم يتم إلا بعد مجىء الأتراك العثمانيين إلى البوسنة .

ومن ناحية أخرى كثيراً ما كان يتم إطلاق اسم الأتراك على مسلمى البوسنة كإشارة دينية يراد بها توضيح أن المسلمين ديانتهم تركية ، وبذلك يختلفون اختلافًا بيِّنًا عن باقى الشعوب السلافية الجنوبية التى تدين بديانات مختلفة . وجرى استخدام هذا الاسم ، فى الأغلب ، من جانب سكان الدول المجاورة للبوسنة .

ومن الملاحظ هنا أنه قد تمت تسمية الإسلام بالديانة التركية لأنه ، أى الإسلام ، ارتبط فى أذهان البوسنيين وباقى شعوب منطقة البلقان بقدوم الأتراك العثمانيين إلى هذه المنطقة وبانتشاره فيها . وفى هذا الصدد يعرف الباحثون المتخصصون فى لغات هذه المنطقة وشئونها تمام المعرفة أن كل ما هو إسلامى قد ارتبط - سواء عمداً أو عن غير عمد - ارتباطًا عميقًا ووثيقًا بكلمة "تركى" لدى أفراد شعوب هذه المنطقة ، بل ومن كلمة تركى تم اشتقاق عديد من الكلمات والتعبيرات ذات المعانى الجديدة التى لا صلة لها بأصل الكلمة ولا أصل لها فى اللغتين العربية أو التركية . وليس أدل على التغلغل العميق لهذه الكلمة فى وعى وأذهان سكان هذه المنطقة من أنها لا تزال موجودة حتى يومنا هذا فى الكلمات والتعبيرات والأمثال الشعبية لهذه الشعوب .

ونشير فى هذا المضمار إلى ملاحظتين أساسيتين . توضح الملاحظة الأولى أن هذه التسمية إن دلت على شىء فإنما تدل على سطحية فى التفكير وضحالة فى المعرفة ، إذ كيف يمكن تفسير الجهل بأن الإسلام ليس دين الأتراك العثمانيين فحسب ، بل ودين العديد من الشعوب الإسلامية الأخرى .

والملاحظة الثانية تشير إلى أنه فيما بعد أسىء استخدام هذه التسمية ، ومن المرجح أن هذا جاء من جانب أبواق مسيحية متعصبة كرد على انتشار الإسلام طواعية وبشكل واسع ودون عنف يذكر على يد الأتراك العثمانيين فى منطقة شبه جزيرة البلقان التى تعد مهمة وحيوية بالنسبة للمصالح الغربية والمسيحية . ويدخل فى إطار هذه الملاحظة ما أضيف من معانٍ غير طيبة إلى كلمة تركى . فقد ذكر قاموس اللغة الصربوكرواتية لعام ١٩٧٦ أن كلمة تركى بالإضافة إلى معناها كفرد من أفراد الشعب التركى فهى تعنى بشكل مجازى الرجل القاسى ، الفظ ، غليظ القلب ، عديم

الرحمة ، العنيف ، الشديد ، الكريه ، غير المقبول . كما لاحظنا عن تجربة واقعية أنه لا يتم استخدام هذه المعانى السلبية إلا بمعرفة غير المسلمين من أفراد الشعوب اليوغسلافية سابقًا .

وتشير بعض المراجع إلى أن عدداً من مسلمى البوسنة لقبوا أنفسهم فى الوثيقة المكتوبة فى مدينة زادار فى عام ١٥٦٨م بأنهم البوسنيون المسلمون ، أى البشانقة ، تمييزاً لهم عن الأتراك العثمانيين أصحاب الديانة نفسها ، وعن البوسنيين من أتباع الملل الأخرى . ويبرز المؤرخون هذا الإصرار المبكر على تمييز أنفسهم من جانب البوسنيين، ويفسرونه على أنه رغبة طبيعية من جانب مسلمى البوسنة للتفرقة بينهم وبين غيرهم ولاكتساب ذاتية وهوية متفردة .

ومن الظواهر المهمة التى كانت محل أبحاث ودراسات مستفيضة الانتقال الجماعى لسكان البوسنة البوجوميليين أتباع الكنيسة البوسنية إلى الإسلام . وهى ظاهرة تلقى كغيرها من الأحداث التاريخية تأييداً ومعارضة . ويمكننا فى هذا الصدد أن نقرر أن العديد من المصادر ومن الباحثين يرى حدوث اعتناق جماعى للبوسنيين للإسلام وذلك بسبب الجو العام السائد آنذاك . فقد ظل البوسنيون ، وبخاصة أتباع المذهب البوجوميلى ، يتعرضون لشتى صنوف الاضطهاد والضغوط والمطاردات المستمرة من جانب السلطات الرسمية فى الدولة وكذلك من الخارج . يضاف إلى ذلك أن الامتيازات التى وجدوها فى سماحة الإسلام قد حفزت الكثيرين منهم على اعتناق الإسلام .

ويعد اعتناق الإسلام من جانب البوجوميليين الذين كانوا يشكلون أغلبية السكان فى الدولة البوسنية فى القرون الوسطى - عنصراً غاية فى الأهمية من أجل إثبات الهوية القومية لمسلمى البوسنة والهرسك . وحيث إنه من المؤكد أن البوجوميليين كانوا هم البشانقة سكان البوسنة ، وحيث إن مسلمى البوسنة جاءوا من البوجوميليين فمن الجلى تماماً أن مسلمى البوسنة والهرسك الحاليين هم أحفاد البوجوميليين وليسوا من أى أصل عرقى آخر كما يتم الزعم .

وباعتبارهم هكذا فإنهم فيما بعد أيضًا وطوال فترة التواجد العثمانى بالمنطقة كانوا يختلفون عن الأتراك العثمانيين لا من حيث الثقافة والعادات وأسلوب التفكير فحسب ، بل ومن حيث الجنس أيضًا . ورغم أنهم كانوا مماثلين لهم فى الدين فإن العثمانيين لم يعاملوهم أبدًا إلا باعتبارهم بشانقة مسلمين .

وقد كان البشانقة على وعى دائم بتبعيتهم البوسنية وذلك على الرغم من حياتهم المشتركة لما يزيد عن أربعمائة وخمسين عامًا مع الأتراك العثمانيين وتفانيهم فى خدمة الإسلام . وإلى منتصف القرن الماضى كان بكوات البوسنة وموظفوها يحررون مكاتباتهم بأبجديتهم القومية القديمة "البوسانتشيتسا"، وكانوا يسمون لغتهم باللغة البوسنية . وكانوا يؤكدون بفخر على الدوام أن جذورهم ترجع إلى العائلات البشناقية القديمة من أيام الملك ، أى من عهد الاستقلال .

وبسبب الظروف السياسية المتغيرة بدأت منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر عملية سحق القومية البشناقية كمفهوم قومى . ومنذ ذلك العهد بدأت تبرز أكثر فأكثر التبعية الدينية للبشانقة وأصبحت لها السيطرة فى النهاية وأصبحت المنطلق الأساسى لتحديد هويتهم القومية . وساهم عنصر التبعية الدينية مساهمة حاسمة فى عملية سحق الهوية القومية حتى بالنسبة للبشانقة الكاثوليك والأرثوذكس . فتحت ضغط وتأثير الدعاية الثقافية والقومية القوية من جانب الدول المجاورة بدأ البشانقة الكاثوليك والأرثوذكس يثبتون هويتهم القومية مع أصحاب الديانة نفسها رغم أنه لم يكن يربطهم بهم سوى الدين ، ولا شىء غير ذلك .

وجاءت عملية سحق القومية البشناقية نتيجة طبيعية للتحركات الاجتماعية والثقافية والسياسية التى حفلت بها كل حقبة القرن التاسع عشر ، ولعبت دورًا مهمًا فى هذا تلك الحملة النضالية التى نشأت من أجل تحرير الشعوب اليوغسلافية .

وكما هو واضح فقد تفجر النضال من أجل التحرر من سيطرة الأتراك العثمانيين على أساس دينى منذ بدايته . وساعد المعسكر الكاثوليكى المؤلف من الدول الأوروبية بزعامة النمسا الهنغارية (مع مساهمة من القوى الكرواتية) البشانقة الكاثوليك

فى نضالهم هذا ، بينما دافع العسكر الأرثوذكس بقيادة صربيا عن البشانقة الأرثوذكس .

وكمنت وراء هذه المساعدات والاهتمام دوافع سياسية ومصالح غير خافية ، وذلك لأن كل هذه الأطراف دخلت فى لعبة مختلف الاحتمالات وشتى التوليفات الخاصة بأراضى البوسنة والهرسك طمعًا فى الحصول على النصيب الأكبر من الغنيمة بعد انسحاب تركيا . وفى تلك الأزمنة المضطربة العاصفة تمحورت كل اهتمامات وآمال البشانقة الأرثوذكس والكاثوليك صوب المماثلين لهم فى الديانة بالخارج ، وبخاصة فى صربيا وكرواتيا . ونتيجة للوضع المتقلب الذى تواجدت فيه البوسنة وسكانها البشانقة وجدت فيهما الدعايات المسمومة المغرضة لكل من صربيا وكرواتيا أرضًا خصبة ، فنجح الكروات الكاثوليك فى أن يغرسوا فى وعى البشانقة الكاثوليك أنهم متماثلون معهم فى التبعية القومية كما هى الحال فى تبعيتهم الدينية المشتركة ، وهكذا فى النهاية أصبح البشانقة الكاثوليك من الكروات وتحول ولاءهم إلى كرواتيا . ونجحت صربيا فى تحقيق الهدف نفسه مع البشانقة الأرثوذكس ، وكان نجاحها أيسر بسبب الدور المتميز الذى لعبته الكنيسة الأرثوذكسية خلال حكم الإمبراطورية العثمانية من ناحية وبسبب تسامح العثمانيين فى هذا المضمار من ناحية أخرى . وعلى هذا النحو تشكلت فى البوسنة خريطة جديدة للقوميات العرقية .

وفى هذا الصدد لا يمكن إغفال أنه خلال القرون الوسطى وما بعدها وبخاصة فى القرنين الأخيرين من التواجد العثمانى فى الأراضى البوسنية حدث عديد من الهجرات من وإلى البوسنة ، وذلك بالإضافة إلى الحروب المتكررة والأوبئة وتدهور الأحوال الاقتصادية وهى أحداث جاءت إلى البوسنة بالعديد من النازحين وأغلبهم من رعاة الغنم الذين وفدوا من صربيا والجبل الأسود ودالماسيا . وبهذه الطريقة نشأت فى أنحاء كثيرة متفرقة من البوسنة جماعات عرقية أجنبية ، إلا أنها كانت آنذاك تمثل نقطة فى محيط البشانقة ، ولم يكن باستطاعتها مطلقًا تهديد السيادة القومية المحلية أو التفوق عليها . ولا ريب فى أن كل هذا قد ساهم على نحو ما فى تغيير الخريطة العرقية للبوسنة .

ومن المهم هنا تسجيل – وفقًا للمصادر البوسنية – أن الإمبراطورية العثمانية ، باعتبارها دولة إسلامية ، لم تقم خلال غزواتها بأية عمليات للإبادة أو بتغيير قسرى لديانة الشعوب المغلوبة . وتمشيًا مع مبادئ الشريعة الإسلامية التى تحتم احترام حقوق أهل الكتب السماوية (أى اليهود والمسيحيين) فقد سمحت السلطات العثمانية للسكان غير المسلمين بالاستمرار فى العيش عبر قرون الحكم العثمانى لهذه المناطق ، بل وشارك بعضهم فى النظام الإدارى والعسكرى والاقتصادى للإمبراطورية وبذلك تمكنوا من الحفاظ على تواجدهم دينيا وثقافيا .

إلا أنه وقعت تغيرات مهمة بالتوازى مع وقوع الثورتين الصربيتين الأولى والثانية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فقد اجتاحت الموجة الأوروبية العاتية من أجل خلق دول قومية شبه جزيرة البلقان أيضًا وبالتالى أثرت على الموقف فى البوسنة . ونجم عن عدم الرضا المتنامى الذى كان نتيجة طبيعية لتدهور الأحوال فى الإمبراطورية العثمانية ثورة من جانب السكان الأرثوذكس فى ولاية صربيا . وكان من المنطقى أيضًا أن يظهر لدى البشانقة الأرثوذكس الناقمين أيضًا على السلطات العثمانية نوع من التضامن الدينى بحيث إن الثائرين الصرب لم يحصلوا منهم على مساعدات شفوية فحسب ، بل ومساعدات مادية ملموسة ، علاوة على حصولهم على ملاذ فى أراضيهم البوسنية .

وبعد قيام الدولة الصربية الجديدة وجه البشانقة الأرثوذكس – فى ظل زوال دولتهم البوسنية الخاصة وانهيار قوتها السابقة – أنظارهم إلى صربيا باعتبارها رمزًا لقوة الديانة الأرثوذكسية ، وإذا ما أخذ فى الاعتبار أنه لم يكن يفصلهم عن صربيا سوى نهر درينا فقد تزايد شعور البشانقة الأرثوذكس بأنهم من الصرب من حيث الهوية القومية .

ومن ناحية أخرى ارتأت صربيا أن من مصلحتها السياسية استمرار عدم الاستقرار فى الأراضى العثمانية ومن أجل تحقيق هذا الغرض استغلت أفضل استغلال البشانقة الأرثوذكس الذين أخذوا يعملون لخدمة المصالح الصربية ، ولذا فإنه

بالتوازى مع تأجج الوعى القومى لدى الصرب أنفسهم تم تنفيذ حملة دعائية مثابرة بين البشانقة الأرثوذكس بهدف إضفاء الطابع القومى الصربى عليهم . وأثمرت الحملات الدعائية ثمارها الأمر الذى يعد منطقيا نظراً لأن الدين أصبحت له الأولوية وأصبح يمثل الرمز الثقافى الحاسم الذى على أساسه أقام البشانقة الأرثوذكس تميزهم عن أهل وطنهم من البشانقة المسلمين والبشانقة الكاثوليك ودعموا به تماثلهم مع الصرب وذلك نتيجة لضعف الإحساس بالهوية القومية خلال أربعمائة وخمسة عشر عامًا من السيطرة العثمانية وزوال الدولة البوسنية . وحتى نهاية القرن التاسع عشر تم إضفاء الطابع القومى الصربى على الأغلبية العظمى من البشانقة الأرثوذكس .

أما عملية إضفاء الطابع القومى على البشانقة الكاثوليك فقد بدأت متأخرة بكثير عما تم بالنسبة للبشانقة الأرثوذكس ، وتم الانتهاء منها فى الأربعينيات من القرن العشرين . وفى هذه المرة أيضًا جاءت مبادرة تنفيذ هذه العملية من الخارج ، وفى أغلب الأحوال كرد فعل على التعصب القومى المتنامى للأرثوذكس الذين تم إضفاء الطابع القومى عليهم . وقد استخدم فى هذه العملية مختلف أشكال الضغوط بهدف ضم كل السكان الكاثوليك تحت جناح القومية الكرواتية .

البشانقة فى ظل الاحتلال النمساوى الهنغارى :

وبرحيل الأتراك العثمانيين فقد البشانقة المسلمين قاعدة سياسية واقتصادية مهمة ودعمًا روحيا هائلاً وعونًا ثقافيا دينيا قويا ، وسرعان ما تضاءلت قوتهم السياسية التى لم تتمكن من الصمود فى مواجهة المخططات القومية العدوانية من جانب الدول المجاورة .

ومع بداية الاحتلال النمساوى الهنغارى للبوسنة فى عام ١٨٧٨م حدث ضياع كامل للبشانقة . وتركز الحديث عن القومية الإسلامية وإنقاذ الإسلام والمسلمين فى البوسنة وسط محاولات مكثفة لتغيير دينهم ، إذ تتحدث المراجع التاريخية عن

استخدام أساليب غير إنسانية تمامًا وعن تطبيق لمختلف أنواع الضغوط وعن أعمال قتل وطرد وتنصير قسرى للبشانقة بحيث إنهم اختفوا من كثير من الأماكن التى كانوا يمثلون فيها أغلبية قبل ذلك الحين .

وفى ظل هذا المناخ الفظيع كان يتم فى أغلب الأحيان النظر إلى البشانقة المسلمين - بسبب تبعيتهم الدينية - كما يتم النظر إلى الأتراك الراحلين . وتبنت سلطات الاحتلال النمساوية وجهة النظر المغرضة هذه إلا أنها لم تفصح عن ذلك صراحة ، وعلى أساسها تم زرع - فى وعى البشانقة المسلمين ، بأساليب دعائية - فكرة أنهم يشكلون عنصرًا قوميًا أجنبيًا ، وبالتالى فأصلهم من خارج البوسنة وذلك بهدف تحفيزهم على الرحيل ، كما تم فى نفوسهم زرع الإحساس بعقدة الذنب بسبب الاحتلال العثمانى الذى استمر لأربعمائة وخمسة عشر عامًا . ولعدة عقود بعد رحيل العثمانيين اتُّخذت ضد البشانقة المسلمين حملات عقابية فظيعة ، وفى أغلب الأحيان بعلم السلطات وبمباركتها من أجل تصفية الحسابات القديمة . ولم يجد الكثير من البشانقة المسلمين مخرجًا من كل هذه المواقف إلا فى الهجرة إلى خارج البلاد وبخاصة إلى تركيا بحيث إنه فى عام ١٩١٤ رحل منهم ما يزيد على مائة وخمسين ألفًا ، وهو رقم كبير بالنسبة للظروف آنذاك . وبالطبع ساهمت هذه الهجرة بشكل أكبر فى فقدانهم التوجه السياسى والقومى .

وفى بداية الاحتلال النمساوى جرى استخدام اسم البشانقة بمعنى كل سكان البوسنة والهرسك ، وحيث إن الأرثوذكس والكاثوليك قد رفضوا هذا الاسم منذ الستينيات فقد رفضه مسلمو البوسنة أيضًا . وأحس الشعب البوسنى من تجربته وخبرته فى الحياة اليومية أنه فى ظل الظروف الجديدة يمكن على الصعيدين الثقافى والسياسى أن يطلق عليه اسم "المسلمون" فى مواجهة انتشار الأسماء الدينية : الأرثوذكس والكاثوليك ، أى الصرب والكروات ، الذين يتقاسم معهم الحياة فى المكان نفسه .

وفى إحدى الفترات جرى بشكل رسمى استخدام اسم "المحمديون" نقلاً عن الألمانية . وعلى الرغم من استخدام الصحافة البوسنية لهذا الاسم فإن البشانقة لم يتقبلوه واستمروا فى استخدام الأسماء السابقة (البشانقة أو الأتراك أو المسلمون) . وطالب الرأى العام البشانقة المسلمين مطالبة صريحة عن طريق المقالات الصحفية فى عام ١٩٠٠ بعدم استخدام اسم "المحمديون" فى الأوساط الرسمية على أساس أنه غير دقيق وغير مناسب واستبداله باسم "المسلمون" . وفيما بعد اقتصرت الصحافة والمطبوعات الإسلامية البوسنية على استخدام اسم "المسلمون" ، وبمرور الزمن تقبله البشانقة باعتبار أنه علامة عرقية مستقلة أو علامة قومية .

وفيما بين عامى ١٨٩٩ ، و ١٩٠٠ جاءت اللحظة الحاسمة فى النهضة القومية والسياسية الثقافية للبشانقة وذلك ببدء كفاح البشانقة .. مسلمى البوسنة ، من أجل الحصول على الاستقلال الذاتى فى مجال التعليم والأوقاف والدين ، وكذلك بالبدء فى إصدار مجلة نصف شهرية باسم "بيهار" باعتبارها أول مجلة أدبية للبشانقة .. ومنذ ذلك الحين حصلت كلمتا "مسلم وإسلامى" فى البوسنة والهرسك على معنى أكبر بكثير من مجرد الإشارة إلى أتباع الدين الإسلامى .

وهكذا فإنه منذ أواخر القرن التاسع عشر اقترنت أسماء المنظمات والأحزاب السياسية والمؤسسات الاقتصادية والثقافية وغيرها من المؤسسات والهيئات الأخرى التى تشكلت ونشأت بين البشانقة – اقترنت فحسب بصفة "خاص بالمسلمين" أو بشكل أكثر ندرة بصفة "إسلامى" . واستمرت هذه الحال والتجربة العملية والحفاظ عليها وتأكيدها فى فترة ما بين الحربين العالميتين .

وفى حين من الأحيان وضعت المصالح السياسية النمساوية البشانقة المسلمين فى وضع ملائم للغاية بشكل جلى . وقد أيد السياسى المجرى "بنيامين كالوى" ، وروّج لفكرة إحياء الشعب البوسنى على أساس التقاليد البوسنية فى القرون الوسطى . ورغم أن هذا الأمر كان يمثل بالنسبة للبشانقة المسلمين الحل الأمثل فإن "بنيامين كالوى" لم يتمكن من تحقيق خطته حتى النهاية وذلك لأنها واجهت معارضة قوية من الدوائر

التعصبية القومية للصرب والكروات . وفى الحقيقة كان لهذه الفكرة مدى محدود بالنسبة للنمسا ولذا فلم يتم الإصرار عليها .

وفى أواخر القرن الماضى أصبح من المؤكد أن البشانقة سكان البوسنة والهرسك قد تحولوا بدلاً من شعب واحد إلى ثلاثة شعوب لا يربطهم بالبوسنة ولا بالبشانقة أى تاريخ مشترك ولا أية جذور قومية . وكما أوضحنا فقد تحول عدد كبير من البشانقة الكاثوليك إلى كروات ، ومن البشانقة الأرثوذكس إلى صرب . أما البشانقة المسلمين فقد كان من المؤسف أن الآخرين هم الذين يحددون هويتهم القومية . فبالنسبة للبعض كانوا من الأتراك ، وبالنسبة لآخرين كانوا من الصرب والكروات الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا بشكل أو بآخر من الأتراك . وكانت هذه الأمور مأساوية ومفجعة بالنسبة للبشانقة المسلمين بشكل خاص .

تطور وضع البشانقة فى العصر الحديث :

بنشوب الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ ومع توحيد البشانقة المسلمين مع الصرب والكروات والسلوفينيين فى إطار مملكة يوغسلافيا فى عام ١٩١٨ تعرض كثير منهم لألوان من المعاناة ولهجمات متعددة على حياتهم وممتلكاتهم ، ولذا فقد تم فى عام ١٩١٩ إنشاء "المنظمة اليوغسلافية للمسلمين" بهدف تأمين حياتهم وممتلكاتهم والحفاظ على استقلالهم الذاتى على الصعيدين الثقافى والدينى ، إلا أن السلطات اليوغسلافية آنذاك قامت فى عام ١٩٣٠ بإلغاء هذا الاستقلال الذاتى ، وتم إنشاء الجماعة الإسلامية لكى ترعى الشئون الدينية للبشانقة المسلمين وتمثلهم .

وعلى الرغم من أن المنظمة اليوغسلافية للمسلمين ناضلت بشتى الطرق من أجل رعاية البشانقة ووحدتهم وتفردهم فى مواجهة الصرب والكروات فإنها لم تنجح على الإطلاق فى الرفع من مستوى هذا التفرد إلى مستوى المسألة القومية ، وعلى الرغم من أنها كانت تتمتع بثقة الجماهير العريضة من البشانقة فقيادتها لم تقم أبداً بإعداد برنامج عمل يهدف إلى التحسين الحقيقى للأحوال والظروف الثقافية

والاجتماعية للبشانقة المسلمين . وقد ظهر بجلاء عدم اهتمامهم بهم ، علاوة على عدم الالتزام بالبرامج السياسية القومية وقت انهيار مملكة يوغسلافيا وذلك حينما تركت المنظمة جماهيرها دون توجه سياسى واضح .

وفى السنوات الأولى التالية لحرب التحرير تم التأكيد على مبادئ فصل الدين عن الدولة مع السماح بحرية إقامة الشعائر الدينية ، وهى المبادئ التى تضمنها أول دستور ليوغسلافيا الاتحادية فى عام ١٩٤٥ ، وبموجبها تم استئناف تنظيم ونشاط الجماعة الإسلامية التى أصبحت مسئولة عن الشئون الدينية للبشانقة المسلمين ، إلا أنها – أى الجماعة الإسلامية – استقبلت نهاية الحرب والتحرير فى ظروف تنظيمية ومادية عسيرة للغاية فى مواجهة القوانين الشيوعية التى أقامت العقبات أمام العمل فى مجال الدين ، وذلك علاوة على مصادرتها لأملاك الأوقاف التى تمثل القاعدة المادية الأساسية للجماعة الإسلامية .

وكان ينبغى أن يمضى زمن طويل إلى أن تم تنفيذ تصحيح المفهوم الذى يعتبر البشانقة المسلمين من الأتراك ، أى التوقف عن اعتبارهم من العناصر العرقية غير البوسنية . وكان كبار المتعصبين الصرب والكروات يؤيدون هذا المفهوم الخاطئ عن البشانقة المسلمين وذلك لأنهم يرون فى القومية البشناقية أكبر عدو لهم لأنها تحد من أطماعهم .

وفى عهد مملكة يوغسلافيا وكذلك خلال حكم الشيوعيين كان سكان البوسنة البشانقة الذين يعتبرون أنفسهم من الصرب أو الكروات على الرغم من أصلهم البوسنى ينفرون إلى حد ما من اسم البشانقة ويرفضون إمكانية تصنيفهم تحت هذا الاسم . وتم خلال العهدين المذكورين بشكل منظم ومستمر تغذية هذا النفور ، وتم فى وسائل الإعلام نعت هذا الاسم بأنه اسم اصطناعى وأجنبى إشارة إلى أنه ذو أصل نمساوى رغم أن هذا لا يمت إلى الحقيقة بصلة ، بل والأكثر من ذلك تمت إدانة أية محاولة للإعراب عن الهوية القومية البشناقية باعتبارها دسيسة نمساوية وخيانة للوطن .

وقد تأكد اسم المسلمين ، باعتباره اسمًا عرقيا أو سياسيا قوميا لمسلمي البوسنة ، عن طريق وثائق حركة التحرير الشعبى من عام ١٩٤١ وحتى عام ١٩٤٥ وبخاصة عن طريق قرارات مجلس التحرير الشعبى اليوغسلافى المناهض للفاشية والمجالس الإقليمية المماثلة . وتم عن طريق البيان الخاص بحقوق مواطنى البوسنة والهرسك الصادر فى عام ١٩٤٤ ضمان المساواة والتكافؤ بين سكان البوسنة والهرسك من بشانقة مسلمين وصرب وكروات .

بيد أنه فى الحقبة ما بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٩ ألغت السياسة الشيوعية الرسمية بشكل واقعى اسم المسلمين الذى تم الاعتراف به خلال نضال التحرير الشعبى . وتم إجراء ذلك تحت ضغوط بحجة عدم الإضرار بمصالح قومية معينة ، وهى فى الحقيقة مصالح تعصبية قومية ، وفى المقام الأول مصالح الصرب فى البوسنة والهرسك . وفى ظل هذا الغموض والتخبط عادت السياسة الرسمية عند إجراء أول تعداد للسكان فى عام ١٩٤٨ إلى التجربة القديمة بشأن تقرير المصير القومى للبشانقة . ووفقًا لهذه التجربة فإن على مسلمى البوسنة ، باعتبارهم جماعة لم تتبلور عرقيا ، أن يقرروا مصيرهم القومى إما كصرب وإما ككروات . وقد اعترف بعض المؤرخين بأن مثل هذه الضغوط على البشانقة قد عجلت بيقظتهم القومية .

ولما تم بعد فترة إدراك عدم صلاحية هذا الحل أيضًا لأنه يتناقض مع الأعراف والقرارات الدولية بشأن حرية اختيار الهوية القومية اتخذت السلطات الشيوعية خطوة أخرى بالسماح للبشانقة بأنه يمكنهم مستقبلاً الإعراب عن أنفسهم قوميا بأنهم محايدون (غير محددى القومية) أو يوغسلاف محايدون . ولم يكن هناك أى أساس عقلانى لهذا الاختيار القومى سوى تجنب استخدام اسم البشانقة أو المسلمين ؛ ولذا فلم يستمر هذا الحل الجديد طويلاً .

وفيما بين الخمسينيات والستينيات تغلغل فى الدوائر السياسية والعلمية اليوغسلافية مفهوم أن البشانقة يعتبرون جماعة عرقية أو قومية خاصة ، وبشكل تدريجى جرى قبول هذا المفهوم . إلا أن الدوائر نفسها وصفت فى أوائل الستينيات

مسألة تقرير المصير القومى للبشانقة بأنها نوع من التعصب القومى ولا توجد لها أية أسس علمية . وحذر تيتو بنفسه فى الاجتماعات الرسمية للحزب الشيوعى من هذه المسألة ومن عدم منطقيتها .

وبعد كثير من الحيرة والتجوال والبحث بشأن إيجاد اسم آخر يعرب به البشانقة عن أنفسهم ويحددون هويتهم وافق الشيوعيون فى أواخر الستينيات على اسم "المسلمين" الذى كان فى الواقع منتشراً من قبل كإشارة إلى القومية البشناقية أو البوسنية . وفى الحقيقة جاء الحصول على اسم المسلمين نتيجة حتمية للمساعى الطويلة التى قام بها البشانقة .. سكان البوسنة والهرسك للاعتراف بحقوقهم القومية الأساسية .

كما أن اسم المسلمين ناجم عن التاريخ السياسى المعقد للبوسنة والهرسك ، وبوجه عام عن تاريخ البشانقة المسلمين فى المنطقة اليوغسلافية ، وعن التلاعب المتعمد بتبعيتهم الدينية والعرقية أو التبعية القومية من جانب مختلف جماعات المصالح والسياسات داخل البوسنة وخارجها على حد سواء .

وقد وُصفت هذه الخطوة بأنها منافية للعقل ولا مثيل لها فى العالم وذلك لأنه عن طريق مرسوم حكومى تم خلق "شعب مسلم" لم يكن حتى ذلك الحين معروفاً أو موجوداً بهذا الشكل . وقد سبب هذا الاسم الكثير من الأمور المحيرة وسوء الفهم .

وحيث إن هذا الاسم كان يعنى على مستوى العالم كله أتباع الدين الإسلامى فقد أثار كثيراً من سوء الفهم والخلط ، خصوصاً أن هذا الاسم كان يطلق على حد سواء على المسلمين .. المؤمنين بالإسلام وعلى الملحدين . وقد حذر بعض البشانقة فى أكثر من مرة من عدم صلاحية مثل هذا الحل ؛ ولذا فقد طلب النظام الشيوعى الحاكم العون من علماء اللغة لإيجاد مخرج ووسيلة للتفرقة بين المسلم المؤمن بالإسلام وبين المسلم التابع لمسلمى البوسنة كشعب . وأفتى علماء اللغة بأنه عند كتابة كلمة مسلم بالمعنى الأول تكتب بحرف صغير فى بدايتها، أما عند كتابتها بالمعنى الثانى تكتب بحرف كبير فى بدايتها . وكان هذا طبعاً أمراً فريداً لا مثيل له فى أية دولة إسلامية ، بل ولا يوجد

ما يبرره من مبررات تاريخية وقانونية . ورغم الرضا النسبى عن هذا الاسم من جانب البشانقة فإنه لقى معارضة ، بل وسخرية من جانب كثير منهم .

ومن ناحية أخرى نصّت بعض المواد فى دستور يوغسلافيا الاتحارية لعام ١٩٦٣ على تغيير شعار يوغسلافيا بحيث تتم إضافة شعلة سادسة كرمز لجمهورية البوسنة والهرسك ولشعب المسلمين ساكنى البوسنة والهرسك ، باعتباره أحد الشعوب اليوغسلافية الستة .

ورفضت قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى عام ١٩٦٨ كل المعضلات والخيارات المطروحة بشأن مسألة البشانقة وذلك على الرغم من ارتفاع أصوات المثقفين البشانقة للمطالبة بحقهم فى الإعراب عن قوميتهم بالشكل الذى يرونه مناسباً لهم ، وكذلك لإعادة تقييم كل المسائل المتعلقة بتاريخ البشانقة وإبداعاتهم الأدبية والثقافية . وفى هذا الصدد سعى المثقفون البشانقة عن طريق الكتابات فى الصحف وإصدار الكتب إلى تسليط أضواء جديدة على تاريخهم وقوميتهم وثقافتهم وأدبهم بغرض توضيح تميزهم عن الآخرين . وقد واجه بعض منهم انتقادات حادة وإجراءات قمع علاوة على الحملات الإعلامية ضده بسبب ذلك .

وفى معرض المناقشات التى جرت بشأن المشاكل السياسية والقومية للبوسنة والهرسك فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات أعلن كبار رجال الدولة والحزب عدم وجود القومية البشناقية أو البوسنية وجندت كل أبواقها ووسائل إعلامها لدحض هذه القومية .

وأصبح الاستخدام التدريجى لاسم البشانقة حقيقة واقعة قبيل انهيار النظام الشيوعى . وفى ظل التنوع الحقيقى للأحزاب والجماعات والأفكار السياسية فى تلك الفترة برزت قومية البشانقة من خلال مختلف المناقشات السياسية بين المثقفين والأكاديميين . وأثار هذا خوفًا ورعبًا فى نفوس الكثيرين من الصرب والكروات الذين حددوا للبشانقة دوراً ثانويا هامشيا وكانوا يدركون أن الصحوة القومية للبشانقة

ستفتح أمامهم مجالات أكبر للتحرر والتقدم الثقافى والاقتصادى وبذلك يصبحون عنصراً منافساً .

وفى ظروف الأزمة التى طغت على المجتمع والدولة فى يوغسلافيا تواصلت مساعى البشانقة لدعم مستقبلهم السياسى والقومى فى هذه الظروف العسيرة وفى ظل ضغوط من المتعصبين ولكنها استمرت أولاً وقبل كل شىء بفضل إصرار ومثابرة غير عادية من جانب كثير من المثقفين البشانقة .

وتجددت الحياة الحزبية بين البشانقة ، فتم فى ربيع عام ١٩٩٠ فى سرايفو تأسيس حزب العمل الديمقراطى بفروعه المتعددة فى جميع أنحاء البوسنة والهرسك ، وتم انتخاب على عزت بيجوفيتش كأول رئيس له . وبالإضافة إلى ذلك اشترك البشانقة فى باقى الأحزاب السياسية الأخرى . وفى أكتوبر من العام نفسه تم استئناف النشاط فى عديد من الجمعيات الثقافية والأدبية والإنسانية للبشانقة .

وأجريت أول انتخابات حزبية للبشانقة فى البوسنة والهرسك فى نوفمبر ١٩٩٠ ، وفتحت هذه الانتخابات إمكانية تطوير الحياة البرلمانية والديمقراطية السياسية وبالتالى استقلال البشانقة شعبًا وحكومة ودولة . وكان رد الفعل على ذلك هو بدء العدوان فى أوائل أبريل عام ١٩٩٢ من جانب المتعصبين الرامين إلى تحقيق مشروع صربيا الكبرى على حساب البوسنة والبشانقة .

ومنذ بداية العدوان على البوسنة والهرسك وحملات الإبادة الجماعية التى لا مثيل لها ضد البشانقة وبداية المقاومة البطولية المسلحة ضد المعتدين بدأ بشكل تلقائى متكرر وسط أفراد الشعب البوسنى استخدام اسم البشانقة كإشارة قومية إلى مسلمى البوسنة . وخلال سنتى الحرب والمعاناة والمقاومة والكفاح حصل هذا الاسم فى وسائل الإعلام المختلفة على مكان متكافئ مع التعبير الآخر "مسلمو البوسنة" الذى كان مألوفًا حتى ذلك الحين وأصبح سارى المفعول دستوريا أيضًا . كما أبدت كل أجهزة الدولة موافقتها على استخدام هذا الاسم ، وتم التأكيد على ذلك باتفاق دايتون وبدستور البوسنة والهرسك الصادر فى عام ١٩٩٥م .

ويتبين لنا مما سبق أن البشانقة المسلمين ظلوا وحدهم دون غيرهم أوفياء لاسمهم القومى والعرقى والتاريخى الأصلى ، فهم على الأقل قد عادوا إليه بعد فترة انقطاع دامت لسنوات مديدة . وحينما يتم أخذ كل هذا فى الاعتبار فإنه يمكن القول بحق بأن البشانقة المسلمين هم أكثر سكان البوسنة عدداً وأصالة .

وإذا كان البشانقة يشكلون فى عهد الدولة البوسنية القديمة وكذلك فى عهد الإمبراطورية العثمانية جميع سكان البوسنة ، وإذا كان كثير من البشانقة الأرثوذكس والكاثوليك قد اختار فى العصر الحديث تحت تأثير الدعايات المتعصبة قوميا من جانب الدول المجاورة – هوية قومية أخرى ، أى القومية الصربية أو الكرواتية .. فمع ذلك احتفظ الجزء الأكبر (نسبيا) من البشانقة بهويته الأصلية ؛ ولذا فهم يشكلون الجزء الأصلى الجوهرى من سكانها بمعنى منح وجودها التميز والذاتية ، هذا الوجود الذى يعد عنصراً أساسيا بالنسبة لاستقلالها التشريعى والسياسى .

وعلى حد تعبير المؤرخين فالبشانقة يمثلون العمود الفقرى لدولة البوسنة . وهذا ما أثبته البشانقة وبرهنوا عليه فى الحرب العدوانية الأخيرة حينما أعرب كثير من الصرب والكروات عن ميول للانفصال عن وطنهم وعن نوايا لإبادته وتدميره ، بينما لم يحافظ عليه ويدافع عنه كدولة إلا البشانقة بمساعدة أولئك الكاثوليك الكروات والأرثوذكس الصرب الذين لم يسمحوا لأنفسهم بالانخداع بالأحلام والأوهام عن صربيا الكبرى أو كرواتيا الكبرى ، ومن ثم فقد ظلوا أوفياء للبوسنة باعتبارها وطنهم ودولتهم التاريخية التى تمكنهم من تحقيق وضعيتهم التشريعية ووجودهم السياسى ؛ ولذا فإنه تكمن فى هذه الحقيقة بالذات ، أى فى حقيقة وحدة الدولة وتأثيرها على سكانها ، تكمن إمكانية تطابق الهوية القومية لكل مواطنيها من البشانقة مع هويتها البوسنية ويصبحون كمواطنين لها شعباً واحداً موحداً من البشانقة .

* * *

الفصل الثانى

تاريخ البشانقة

- تمهيد .
- الدولة البوسنية فى القرون الوسطى .
- العهد العثمانى .
- الاحتلال النمساوى الهنغارى .
- الحرب العالمية الأولى .
- البوسنة والهرسك فى إطار مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين .
- الحرب العالمية الثانية .
- يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية .

الفصل الثانى

تاريخ البشـــانقة

تمهيـد :

عانى تاريخ البشـانقة ، وبالتـالى تاريخ البوسنة والهرسك ، الكثير من الإغفال المتعمد لبعض جوانبه والتفسير المتحيز لبعض ظواهره لفترة طويلة - لسبب أو لآخر - وغير ذلك من عوامل التعتيم ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى عدم الحصول على صورة كاملة تبين تواصل تاريخهم وتطورهم المستمر . وحينما ظهر الاهتمام بهذا التاريخ افتقدت الأبحاث والكتابات عنه افتقاداً واضحاً للتواصل والاستمرارية لأسباب غير موضوعية . ويتم فى هذا الصدد نسيان أنه عند كل دراسة للتاريخ من الحتم على الدوام الأخذ فى الاعتبار أن لتاريخ كل أمة ودولة ومنطقة تتابعاً واستمرارية .

ومن المؤسف أنه إلى عهد قريب جدا لم يتمكن حتى المؤرخون البشـانقة من صياغة وإعداد دراسة موضوعية عن التاريخ المركب المتكامل للبشانقة يعرض المسيرة الكاملة لتطورهم ونضالهم الشرعى من أجل الحصول على هويتهم القومية . ومن الصعوبات التى لابد من إدراكها عند الحديث عن تاريخ البشـانقة أنه لم يتم تدريس مادة تاريخ البشانقة وتاريخ البوسنة والهرسك كمادة خاصة فى قسم التاريخ بكلية الفلسفة فى سرايفو إلا فى السبعينيات من القرن الحالى بعد ضغوط مكثفة من جانب البشانقة ومثقفيهم على المسئولين الشيوعيين آنذاك .

ولا يستطيع أحد أن ينكر ظهور - فى فترة لاحقة - العديد من الكتابات والمؤلفات التى تعالج مختلف الجوانب والمسائل المتعلقة بتاريخ البشانقة على الأصعدة السياسية

والثقافية والأدبية والديموغرافية والعرقية والدينية والاقتصادية وغيرها ، وذلك على الرغم من أن كتابة تاريخ البشانقة كانت من المسائل المحظور التحدث عنها فى ظل الحكم الشيوعى وكانت على الدوام تلقى مقاومة عنيفة من جانب المتعصبين .

ومهما تكثفت أحداث التاريخ أو ندرت فلابد من تقسيمها إلى حقب وفترات تسهيلاً لدراستها واستيعابها . ولذا فقد تعارف المؤرخون على تقسيم حقب التاريخ إلى قديمة ووسطى وحديثة . وهذا ما سرى ، بالطبع ، على تاريخ البشانقة وتاريخ بلادهم ، إذ تم تقسيمه إلى ثلاث حقب كبرى وهى :

١ - حقبة الدولة البوسنية الإقطاعية .

٢ - حقبة الحكم العثمانى .

٣ - الحقبة الحديثة التى تبدأ مع الاحتلال النمساوى الهنغارى للبوسنة فى عام ١٨٧٨م .

ومما لا شك فيه أن كل حقبة من هذه الحقب الكبرى لها العديد من الفواصل وفترات الانتقال ، ولكل منها مميزاتها وسماتها الخاصة المتباينة .

والمهمة الأساسية لأى عرض لتاريخ البشانقة هو إعادة بناء الأحداث التاريخية للبشانقة وتوضيح استمراريتها وتواصلها . وبذلك يتم بموضوعية كاملة استعراض قدر البشانقة ومصيرهم التاريخى . وهذا الفصل هو محاولة لتحقيق إعادة المسار التاريخى للبشانقة وللبوسنة والهرسك .

الدولة البوسنية فى القرون الوسطى :

من المؤكد أن المهاجرين السلاف خلال استيطانهم لمنطقة البلقان وبخاصة فى الجزء الأوسط والشمالى الغربى منها ، باعتبارهم تابعين ومرتبطين بالآقار وداخل إطار دولتهم ، استوطنوا منطقة البوسنة الحالية . وقد حدث هذا فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع على عدة موجات متتالية واستغرق قرنًا كاملاً تقريبًا

وربما أكثر . وحينذاك تشكلت دويلات جديدة لم تعد آقارية ، بل فى مجملها يمكن أن تنسب إلى المهاجرين السلاف ، الذين أصبحوا فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن عنصراً مسيطراً بين سكان هذه المنطقة لغويا وثقافيا وسياسيا وإداريا .

وشكّل المهاجرون السلاف فى أواخر القرن الثامن دولة خاصة بهم على أرض البوسنة ، أى فى المناطق المحيطة بالمجرى العلوى لنهر البوسنة . وتمت تسمية هذه الدولة فى المصادر الأولى والمصادر اللاحقة باسم "البوسنة" . ومن المؤكد أن هذه الدولة كانت تختلف اختلافًا كبيراً للغاية فى زمن ومكان نشأتها عن جميع الدول السلافية التى تشكلت فى وسط وشمال غرب منطقة البلقان .

وقد أثبتت المراجع التاريخية الحديثة أن دولة البوسنة تعد دون شك أقدم دول السلاف الجنوبيين فى العهد الإقطاعى المبكر فى القرون الوسطى . وباعتبارها دولة حدودية بين بيزنطة ودولة الفرنجة ، وفيما بعد بين صربيا والدولة الهنغارية الكرواتية أصبحت البوسنة منطقة للمواجهات والصراعات بين المصالح والأفكار . وسيطر الإقطاعيون البشانقة على الحياة السياسية للبوسنة الإقطاعية وسيطرت الكنيسة على حياتها الدينية .

ومع بداية الأنشطة الدينية والثقافية سعت الحكومة البيزنطية إلى نشر الهدوء بين الجماهير السلافية الهائلة التى تدفقت واستوطنت فى شبه جزيرة البلقان ، كما عملت الحكومة على ضم هؤلاء السلاف إلى نظامها العسكرى والاقتصادى والمالى . وعن طريق مختلف الإجراءات العديدة نجحت الحكومة البيزنطية فى تحقيق ذلك . وأصبح المهاجرون السلاف من المزارعين الجنود الذين يدفعون للدولة التزامات ضريبية معينة . وعن طريق هؤلاء المستوطنين الجدد تم فى الوقت نفسه حل مشكلة النقص فى القوة البشرية اللازمة للأعمال المدنية والعسكرية . وقد كان هذا النقص فى القوة البشرية هو أحد الأسباب الرئيسية للأزمة التى وقعت فيها الإمبراطورية الرومانية .

وبواسطة هؤلاء المزارعين الجنود السلاف دعمت بيزنطة حدودها ، واعتباراً من القرن السابع حدثت نهضة لقوتها وسيطرتها الكاملة على منطقة البلقان وشرق البحر

الأبيض المتوسط . وكان العنصر الأساسى المشارك بفعالية فى هذه النهضة هو العدد الكبير من المزارعين السلاف بالتزاماتهم العسكرية والمالية تجاه الدولة . ويرى المؤرخون أن الدماء السلافية الشابة قد منحت الحيوية والشباب للجسد المتهالك للإمبراطورية الرومانية بحيث تمكنت من إطالة عمرها .

وعلى هذا النحو تحول السلاف الجنوبيون ، بما فيهم البشانقة ، إلى دماء جديدة فى شرايين الجيش البيزنطى الذى بدأ يتعرض آنذاك لهجمات من العرب المسلمين . ومن المعلوم أن الحروب بين العرب المسلمين والبيزنطيين استمرت - على فترات متقطعة - ما يقرب من ثمانية قرون ، ومن الطريف أن هؤلاء السلاف الجنوبيين ، بما فيهم البشانقة ، اشتركوا فى هذه الحروب فى صف البيزنطيين وفى صف العرب المسلمين أيضًا . ومن المؤكد أن مثل هذه الحروب قد فرضت اتصالات مباشرة بين العرب المسلمين والبشانقة ، كما فرضت تبادل الأفكار والاتجاهات الروحية وأسباب الحضارة والثقافة .

وفى حوالى منتصف القرن الحادى عشر كانت السلطة البيزنطية فى البوسنة اسمية أكثر من كونها حقيقية . وفى حوالى عام ١٠٤٠م اضطرت الحكومة البيزنطية لأن تقدم رشوة مالية للحاكم البوسنى لكى ينضم إلى جانبها فى الحرب ضد ڤويسلاڤ ملك زيتا الذى كان يسعى إلى الاستقلال . وهذا يوضح أن البوسنة كانت فى ذلك الحين تضم عدداً كبيراً من الأقاليم التى كانت تشكل كلاً جغرافياً وسياسياً أو دولة على الرغم من الترابط الضعيف فيما بينها .

وفى أوائل القرن الثانى عشر تواجدت دولة البوسنة فى جوار مباشر مع الدولة الهنغارية الكرواتية ، التى أقيمت بناء على اتفاق عقده أعيان الكروات مع الملك الهنغارى كولومان فى عام ١١٠٢م . ووفقًا لهذا الاتفاق المسمى "باكتا كونفنتا" اعترف الأعيان الكرواتيون بالملك الهنغارى ملكًا على كرواتيا ، وفى مقابل ذلك ضمن لهم حقوقهم الإقطاعية وممتلكاتهم . ووجدت البوسنة فى الدولة الهنغارية الكرواتية ألد الأعداء لاستقلالها كدولة ، وسعى الملوك الهنغاريون - بكل قوتهم - إلى إخضاع

البوسنة التى كانوا يعتبرونها قاعدة لدولتهم . ومن أجل تحقيق هذا الهدف قاموا بممارسة ضغوط سياسية وعسكرية قوية على البوسنة . ومنذ العقد الرابع من القرن الثانى عشر قدموا أنفسهم على أنهم سادتها .

وأول حاكم بوسنى معروف باسمه هو الحاكم بوريتش الذى يجرى ذكره فى الفترة من ١١٥٤م إلى ١١٦٤م . وقد ظهر بوريتش فى وقت اشتعلت فيه الخلافات بين هنغاريا وبيزنطة ، وذلك لأن الإمبراطور البيزنطى مانويلو كومنين أخذ يسعى لاستعادة السيطرة البيزنطية على الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، وكان لا بد أن يدخل فى صراع ضد الاستحواذ الهنغارى للمنطقة نفسها . وهنا انضم الحاكم بوريتش ، لا باعتباره تابعًا لهنغاريا وإنما باعتباره حاكمًا مستقلا للبوسنة كلها ، بكتائبه إلى الجيش الهنغارى عند حصار مدينة برانيتسيف (وهى قرية فى شمال شرق صربيا فى الوقت الحالى) . وبمجرد وصول الإمبراطور مانويلو إلى المدينة المحاصرة تم رفع الحصار المفروض من كل من الجيشين الهنغارى والبوسنى . وما إن علم مانويلو بوجود بوريتش حاكم البوسنة حليفًا للملك الهنغارى حتى بعث بأشجع جنوده لمطاردته، وهذا بالطبع يدل على قوة بوريتش . وفيما بعد اشترك بوريتش اشتراكًا فعالاً فى كل المعارك التى دارت حول خلافة العرش الهنغارى .

والحاكم الثانى الذى يتم ذكره بالاسم بعد بوريتش هو الحاكم الكبير كولين الذى يعد من الشخصيات البوسنية النموذجية الفريدة فى القرون الوسطى . وهو الحاكم البوسنى الوحيد الذى ظل اسمه وذكراه وعهده محفوظة فى التراث والإبداعات الشعبية على أنه رمز لاستقلالية البوسنة ولاستقرار نظامها ورمز للحكمة . وقد اتسعت مساحة البوسنة وامتدت أطرافها فى عهده . وعمل على الحفاظ على استقلال البوسنة بكل الوسائل لدرجة أنه تظاهر بالغباء وعدم فهم ماهية الخلافات الدينية المذهبية بين الكاثوليكية والبوجوميلية التى كانت مسيطرة فى البوسنة ، وذلك حتى لا يقع هو أو يوقع البوسنة فى خلاف مع البابا ومع الملك الهنغارى . وبالإضافة إلى الاستقرار السياسى فقد ارتبط اسمه بالرفاهية الاقتصادية ونمو العلاقات التجارية مع دول الجوار .

إلا أنه فى عهد الحاكم كولين ظهرت الأنباء الأولى عن انتشار الإلحاد فى البوسنة ، أى مذهب البوجوميلية الذى تعتبره روما مذهبًا ملحدًا . وسرعان ما اتخذت روما إجراءات محددة من أجل استئصال الإلحاد البوسنى الذى كان قد استشرى بحيث اعتنقه الحاكم نفسه وعائلته وأقاربه وبالتالى كثر من أفراد الشعب . وقام البابا فى عام ١٢٠٠م بتوجيه رسالة إلى الملك الهنغارى إميريك طالبًا تدخله ضد الملحدين فى البوسنة . وعلى الفور قبل إميريك دعوة البابا لأن التدخل سيمكنه من تحقيق أطماعه السياسية فى البوسنة بمساعدة البابا . وهكذا بدأ التعاون الوثيق بين السيف والصليب ، أو تحديداً بين بابا روما والملوك الهنغاريين والكرواتيين ، وكذلك بين مختلف الملوك من العائلة الملكية الصربية وكنيستهم الأرثوذكسية ، بهدف القضاء على إلحاد البوسنة ، وهو هدف تستتر وراءه دوافع وأهداف سياسية واضحة ، أما الهدف الحقيقى فكان هو القضاء على خصوصية البوسنة واستقلالها .

وفى مواجهة مخاطر الحرب الصليبية أبدى على الفور الحاكم كولين ، بمكره وحذره ، رغبته فى قبول كل ما تطلبه منه الإدارة البابوية فيما يتعلق بالدين . وفى رسالته إلى البابا التمس منه إرسال مبعوث إلى البوسنة لتوجيه أهلها فى شئون الدين . وبالفعل وصل مبعوث البابا "إيڤان دى كازاماريس" إلى البوسنة وسرعان ما تيقن من اختلاف تعاليمهم الدينية عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية . ونجح فى أبريل من عام ١٢٠٣م فى إقناع المسئولين البوسنيين عن شئون الدين بالتوقيع على وثيقة يتخلون فيها عن ديانتهم الملحدة . ووقع على الوثيقة كشهود كل من الحاكم كولين شخصيا ورئيس شمامسة دوبروڤنيك .

وبرسالته المؤرخة فى هنغاريا بتاريخ ١٠/٣/١٢٠٣م . أبلغ "كازاماريس" البابا بانتهاء مهمته مع البوجوميليين السابقين فى البوسنة . وتبين فى الحقيقة أن عملية التخلى عن البوجوميلية تعد خطوة تكتيكية فحسب من جانب الحاكم كولين اتخذها دفاعًا عن نفسه وعن بلاده درءًا لمخاطر الحرب الصليبية . وبيَّنت الأحداث التالية أن المسيحيين البوسنيين كان لديهم استعداد قوى لمقاومة كل ألوان الضغوط الخارجية

بمختلف الطرق الممكنة والمتاحة ، وظهر أنهم أشد صلابة وإصراراً مما كان يظن خصومهم العديدون . وكلما زادت الضغوط عليهم ، سواء من الغرب أو من الشرق ، كلما اشتدت مقاومتهم وتدعمت قوتهم وساعدتهم ظروفهم التاريخية الخاصة على ذلك .

واتسمت الفترة منذ بداية القرن الثالث عشر وحتى تولى الحاكم ماتى نينوسلاف السلطة فى عام ١٢٣٢م . فى البوسنة بازدياد قوة وتأثير الكنيسة البوسنية وامتداد نشاطها وانتشار تعاليمها وبالتالى الازدياد السريع لقوة وتأثير طبقة الإقطاعيين البوسنيين . وبدلاً من زوال الإلحاد فى البوسنة بعد وثيقة التخلى عنه فى عام ١٢٠٣م حدث العكس من ذلك ، فقد انتشر واجتاح منطقة سلافونيا المجاورة . ولذا فقد بعث بابا روما رسالة خاصة إلى ملك ونبلاء وقساوسة هنغاريا طالبًا منهم المساعدة فى القيام بحملة ضد البوسنة إلا أنه لم تحدث فى هذا الصدد أية نتائج ملموسة ، الأمر الذى دعا البابا إلى تكرار طلبه لهنغاريا ببدء حرب صليبية ضد البوسنة .

وقد أظهرت الأحداث أن الإلحاد المزعوم للحاكم نينوسلاف والبوسنيين كان يمثل فى المقام الأول مشكلة سياسية وليست دينية بالنسبة لهنغاريا ، إذ إنه من الواضح أن الملوك الهنغاريين كانوا يعلنون إلحاد خصومهم السياسيين البوسنيين تمهيداً للقضاء عليهم والاستيلاء على بلادهم . وهكذا فإن محاربة الإلحاد فى البوسنة كانت دافعًا ومبرراً وستاراً لغرض سلطتهم على البوسنة . أما الحاكم البوسنى فقد كان يعتبر مسألة الدفاع عن الكنيسة البوسنية المزعوم إلحادها قضية سياسية قومية فى المقام الأول ، فإنه - بغض النظر عن المسائل الدينية - لم يتردد فى وضع نفسه على رأس المقاومة ضد روما وهنغاريا فى مواجهة هجومهما على بلاده .

وفى عام ١٢٣٥م بدأت الحملة الصليبية ضد البوسنة واستمرت ثلاث سنوات مع فترات توقف ، وواجه الصليبيون مقاومة عنيفة وحاسمة من جانب جميع أجهزة الدولة البوسنية من حكام وكنيسة وإقطاعيين وفلاحين . وبفضل هذه المقاومة لم تحقق الحملة أى نجاح . وبعد انسحاب جيش الصليبيين فى عامى ١٢٣٧ - ١٢٣٨م . محملاً بالغنائم عادت الأمور فى البوسنة إلى طبيعتها السابقة .

وفى ربيع عام ١٢٤٠م عقد الحاكم نينوسلاف اتفاقية مع دوبروڤنيك بشأن التجارة والصداقة ، وتعهد وفقًا لهذه الاتفاقية بحماية دوبروڤنيك فى حالة دخولها فى حرب مع ملك راشكا . وهذا يدل دلالة واضحة على أن الحملات الصليبية التى تعرضت لها البوسنة لم تؤثر فى قوتها العسكرية التى ما زالت جيدة ، ولا فى كيانها (كدولة) الذى ما زال متماسكًا .

وعلى صعيد آخر طلبت مدينة سبليت ، بعد دخولها فى خلاف مع الملك تروجير ، المساعدة من الحاكم البوسنى نينوسلاف الذى لم يتردد فى دفع جيشه لمعاقبة أتباع تروجير . وبعد إنهاء المهمة المطلوبة نصبوه حاكمًا على سبليت إلا أنه عاد إلى بلاده تاركًا فيها واحدًا من أبنائه على رأس فرقة من الفرسان . ومن هذا يُرى بوضوح أن سكان سبليت لم يعتبروا الحاكم البوسنى وأهل البوسنة من الملحدين وإلا لما سمحوا له ولهم بدخول المدينة وذلك لأنه وفقًا لدستور المدينة فى عام ١٢٤٢ كان محظورًا عليهم استضافة الملحدين .

واعتبر بيلا الرابع ملك هنغاريا وكرواتيا أن هذا التدخل من جانب نينوسلاف قد أضر بحقوقه السيادية على مدن دالماسيا فوجه إليه فى عام ١٢٤٤م حملة لعقابه . وأمام التهديد بمواجهة حرب جديدة اضطر الحاكم نينوسلاف إلى الإعراب عن ولائه للملك الهنغارى وإلى الموافقة على الاعتراف بالحقوق والامتيازات التى حصلت عليها الأسقفية البوسنية (الكاثوليكية) من قبل بالنسبة لممتلكاتها الكثيرة المتفرقة . وتم إثبات ذلك بالوثيقة التى أصدرها الملك بيلا فى ١٢٤٤/٦/٢٠م . إلا أن الأوضاع غير المستقرة فى البوسنة لم تسمح أبدًا بجمع دخل هذه الممتلكات . واضطر البابا إلى نقل مقر أسقفية البوسنة إلى دچاكوڤو فى سلاڤونيا .

وهكذا فإنه على الرغم من جميع المساعى المبذولة من جانب روما وهنغاريا للقضاء على الكنيسة البوسنية فقد تدعمت وازدادت قوتها ، وكذلك طبقة الإقطاعيين البوسنيين، الأمر الذى رفع مستوى التقارب والتعاون بينهما . فتزايد قبول طبقة الإقطاعيين للتعاليم الدينية للكنيسة البوسنية ، التى أخذت فى الوقت نفسه تتدخل فى الأعمال

الدنيوية لطبقة الإقطاعيين . وبوقوفها فى صف كنيستها فى صدها لهجمات الكنيسة الرومانية ودولة هنغاريا الكرواتية كانت طبقة الإقطاعيين تحمى بذلك فى الحين نفسه مصالحها الإقطاعية وأملاكها . وكان الشرط الأساسى لاستمرار هذه الأوضاع هو استقلال الكنيسة البوسنية .

وفى عام ١٢٥٣م بدأ الملك بيلا الرابع حرباً حاسمة ضد البوسنة ونجح بوجه عام فى السيطرة على مقاومة البوسنيين فى البلاد كلها وانتقل الحاكم بريزدا ، خليفة نينوسلاف وقريبه ، إلى صف الملك الهنغارى الذى أهداه - تقديراً منه على طاعته - فى عام ١٢٥٥م دوقية نوڤاكه فى سلافونيا وبذلك تم ضم الحاكم بريزدا إلى البنيان الإقطاعى الهنغارى الكرواتى . كما تم تقسيم دولة البوسنة بحيث حصل بريزدا على مناطق البوسنة ودونى كرايى ، بينما تم فصل أوسورا وسولى وجعلها إقليماً منفصلاً وتم منحها إلى مختلف الشخصيات المخلصة لملك هنغاريا لحكمها . واعترف رادوسلاف دوق الهوم بالسلطة العليا لملك هنغاريا .

وخلال الحكم الهنغارى للبوسنة لم تنقطع مطاردات الملحدين . ونظراً لمرور ما يقرب من نصف قرن من أعمال التبشير ومحاكم التفتيش من جانب الدومينيكان بهدف القضاء على الإلحاد البوسنى دون أن تؤتى بأية ثمار طيبة فقد طلب ستيبان دراجوتين ، الحاكم الصربى لمناطق أوسورا وسولى ، من البابا أن يحل الفرنسيسكان محل الدومينيكان فى البوسنة وقبل البابا هذه المبادرة . وهكذا وصل الفرنسيسكان فى أواخر القرن الثالث عشر إلى البوسنة حيث أصبحوا بمرور الزمن عنصراً مهما للغاية فى حياتها وتطورها العرقى والسياسى والثقافى والدينى بوجه عام .

وحصلت البوسنة فى شخص ستيبان الثانى كوترومانيتش (١٣١٣ - ١٣٥٣م) على حاكم يتحلى بالحكمة السياسية ، وعلى رجل دولة قاد بلاده بخطوات حاسمة كبيرة صوب المسارات الرئيسية السياسية لمنطقة البلقان . وتمكن خلال أربع سنوات فحسب (من عام ١٣٢٢ وحتى عام ١٣٢٦م) من أن يضم إلى البوسنة مناطق دونى كرايى وأوسورا وسولى وهوم وغيرها . وبذلك وضع الحدود الخارجية للبوسنة

المعاصرة . ويعتبر عهده هو عهد الاستكمال الإقليمى والاستقرار السياسى ونمو جميع مظاهر الحياة للبوسنة .

وخلف ستيبان الثانى ابن أخيه تفرتكو (منذ عام ١٣٥٣ وحتى عام ١٣٩١م) وأصبح أول ملك للبوسنة يعترف به جميع الحكام آنذاك باعتباره حاكمًا مستقلا شرعيا للبوسنة . وواجه تفرتكو أيضًا فى البداية نفس النوايا التوسعية والمطامع من جانب الدول المجاورة كما حدث مع سابقيه . وفى إحدى هذه المحاولات فى عام ١٣٦٣م . انتصر الجيش البوسنى على الجيش الهنغارى ، الأمر الذى مكن تفرتكو من تثبيت هيبته وسلطته وتوسيع حدود البوسنة . وتم فى أكتوبر عام ١٣٧٧م تتويجه ملكًا .

وأصبح تفرتكو الأول أقوى حاكم فى عصره بين الحكام السلاف ودولته أكبر دولة للسلاف الجنوبيين فى منطقة البلقان . وتمتعت بلاده بالازدهار وانتعشت حالتها الاقتصادية ، وكذلك الحياة الروحية التى تتركز فى المقام الأول فى نشاط الكنيسة البوسنية وقصر الملك والنبلاء الآخرين . وفى عهده ظهرت آثار مهمة توضح مدى ارتفاع مستوى التعليم والأدب ، وصدرت مجموعات من القوانين التى تعد نماذج وأدلة على الإبداع الأدبى والثقافة العالية وفقًا لعادات ومفاهيم ذلك العصر ، كما توجد آثار فنية تكشف عن تاريخ للبوسنة حافل بالنشاط فى هذه الفترة . وعلى صعيد آخر تم تشييد العديد من القصور التى تزخر جدرانها بالزينات والزخارف الفنية ، هذا علاوة على الأضرحة الضخمة وشواهد القبور التى تعد قطعًا فنية ذات مستوى رفيع ، وهى كلها آثار لا تزال محل بحث ودراسة .

وكانت وفاة الملك تفرتكو الأول فى عام ١٣٩١م تعنى نهاية نهضة الدولة البوسنية وبداية نهايتها . وتبين أنه على الرغم من اتساع المملكة البوسنية تحت حكم تفرتكو الأول فقد كان تنظيمها الداخلى ضعيفًا ، فقد بدأ حكام البوسنة يدخلون فى دائرة من الخلافات الداخلية حول السلطة والعرش والأملاك . وأخذ الإقطاعيون يسيطرون على الأوضاع وزاد تسلطهم وتعسفهم وتجاهلوا سلطات الملك ، الأمر

الذى قاد البلاد إلى فوضى عارمة ، بينما كانت تواجه فى الوقت ذاته تهديدات ومخاطر خارجية عديدة ، فقد كان الأتراك العثمانيون موجودين فى هذه المنطقة منذ انتصارهم على الصرب فى معركة كوسوفو فى عام ١٣٨٩م وبالطبع كانت لهم خططهم وأطماعهم .

وفى بداية توليه السلطة كان الملك ستيبان توماش (١٤٤٣ - ١٤٦١م) من أتباع الكنيسة البوسنية . وقد دعم وضعه غير المستقر فى البداية بمساعدة الملك الهنغارى الذى ارتبط به ارتباطًا وثيقًا . وساعدته كذلك الظروف الدولية والداخلية آنذاك على تدعيم حكمه فى سنواته الأولى . ولكى يثبت وضعه فى البلاد ويضمن تأييد دول غرب أوروبا الكاثوليكية فى خلافه المحتمل مع العثمانيين الذين كانوا قد احتلوا أجزاء كبيرة من جنوب شرق البوسنة - اعتنق الملك ستيبان توماش الكاثوليكية وأيده فى هذاالمضمار كبار الإقطاعيين . وبذلك أصبحت الكنيسة البوسنية فى وضع غير طيب بعد أن كانت تمثل العمود الفقرى الروحى للبوسنة وتحتفظ بأهميتها وتأثيرها فى السنوات الأولى لحكمه .

وتحت ضغوط الملك الهنغارى والتهديدات العثمانية نظم الملك ستيبان توماش حملات إبادة لا مثيل لها لأتباع الكنيسة البوسنية وساعد على اعتناقهم القسرى للكاثوليكية فى المناطق التابعة له ، ولم يكن أمامهم مفر سوى الهرب مع رؤسائهم إلى الهرسك تحت حماية العثمانيين . وأيا كانت دوافع الملك ستيبان إلى ذلك فقد حطم بهذا المسلك القوة الأخلاقية الرئيسية الموحدة للبوسنة . وكانت البوسنة ممزقة تمامًا فى وقت الهجوم العثمانى الجديد عليها فى مارس عام ١٤٤٨م .

وخلفه ابنه ستيبان توماشيفيتش الذى حكم منذ عام ١٤٦١م وحتى عام ١٤٦٣م حينما استولى السلطان محمد الثانى الفاتح على البوسنة وأسره وأعدمه . وهو بذلك يعد آخر ملك بوسنى وبعده انقطع وجود البوسنة كدولة مستقلة ذات سيادة .

العهد العثماني :

استمر الحكم العثماني للبوسنة حوالي أربعمائة وخمس عشرة سنة كاملة بدءًا من عام ١٤٦٣م وحتى عام ١٨٧٨م . واستمرت البوسنة طوال هذه الفترة محتفظة باسمها وسيادتها الإقليمية . وبعد استيلاء السلطان محمد الثاني الفاتح عليها جعل منها وحدة إدارية عسكرية أُطلق عليها اسم سنجق البوسنة ومركزه في "قره بو سنه" (المدينة الحالية سرايفو) . ثم أصبحت في عام ١٥٨٠م ولاية البوسنة التي تألفت من عدة سناجق وصل عددها في أواخر القرن السابع عشر إلى ثمانية . وكانت حدود هذه الولاية في مجملها مماثلة لحدود الدولة البوسنية وقت حكم الملك تفرتكو .

ومن الطبيعي أن الاستيلاء على الأراضي البوسنية في حدودها وإطاراتها التاريخية كان يعني في الوقت نفسه تحطيم جميع الهياكل والأشكال السابقة وإبعاد كل القائمين عليها واختفاء كل البنيان الاقتصادي والإداري لدولة البوسنة السابقة ، وكذلك تغير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في البوسنة حتى ذلك الحين . كما تلاشت الثقافة البوسنية في أشكالها السابقة التي ظهرت بها في القرون الوسطى ولم تبق فقط إلا بعض الآثار الضئيلة الدالة عليها .

وأنشأ العثمانيون هيكلا وبنيانًا جديدًا للسلطة يتألف من الولايات والسناجق والأقضية ، وبداخلها تمارس مهامها كل من السلطات العسكرية والإدارية والقضائية . كما أوجدوا بنيانًا اجتماعيا واقتصاديا جديدًا .

ونظرًا لأن الإمبراطورية العثمانية كانت نوعًا من الإمبراطورية التي يحكمها رجال الدين والعسكريون فقد كانت بالفعل في هذا المضمار وريثة لروما وبيزنطة ، وكذلك تقاليد الإمبراطورية الرومانية ، ولذا فإن نظامها السياسي والاجتماعي قام على علاقة المسلمين بغير المسلمين باعتبارها العلاقة الشرعية الأساسية . وتم تنظيم وضع البشانقة على أساس تبعيتهم الدينية باعتبارهم جميعًا من أصحاب الكتب السماوية ، وهذا طبعًا يشمل المسلمين والمسيحيين بمذاهبهم واليهود . والجميع سواء في ظل حماية الإمبراطورية العثمانية ، أي الدولة وقوانينها .

وكان الاختلاف الرئيسي بين المسلمين وغير المسلمين يتعلق بحق خوض الحرب والالتزام بدفع الجزية ، ولم يكن هذا الاختلاف متغلغلاً في جميع أشكال وعلاقات الحياة ، ولذا فإن غير المسلمين لم يتعرضوا على الإطلاق لأية تفرقة في الحياة اليومية والعمل والتجارة . وكان يتم فقط تحديد أنواع الحرِف والتجارة التي يمكنهم ممارستها . وتميز البشانقة المسلمون بأنهم الشعب السياسي في الإمبراطورية ، أي الشعب الذي له حق المشاركة في إدارة شئون البلاد ، وبالتالي كانت أمامهم فرص أكبر للتقدم والترقي لاحتلال وظائف الدولة المختلفة والتعيين في الوظائف العسكرية التي كانت حتى القرن التاسع عشر مغلقة تقريباً أمام جميع غير المسلمين ، في المقابل لم يكن على غير المسلمين الالتزام بخوض الحرب وتحمل المخاطر المرتبطة بذلك من ضياع للحياة والممتلكات . وكانت هذه في الحقيقة ميزة كبيرة ، فقد كانت الحرب حينذاك أساسًا لكل ترقٍ في السلم الاجتماعي وأساسًا لاكتساب أي دخل ، ولكنها أيضًا مصدرًا للمخاطر والخسائر . وكان المسلمون ملتزمين بالمساهمة في الأعمال العسكرية وخوض الحروب من أجل تحقيق أهداف الإمبراطورية والزود عنها ، إذ كان كل إقطاعي ملزمًا بتحمل تكاليف تجهيز نفسه هو وأتباعه عند دخولهم الحرب .

وكان بإمكان غير المسلمين العيش في المدن دون أية تفرقة بالنسبة لهم . وكان عليهم فقط استيفاء بعض الشروط الضرورية مثلهم مثل جميع المستوطنين والإقامة في جزء خاص من المدينة . ولم يكن هذا يمثل تمييزًا عنصريا كما حاول المغرضون في بعض الأحيان تفسيره كذلك . ويشير الواقع العملي للمدن في البوسنة أن المدينة كانت مقسمة إلى جزأين : جزء عام للمصالح والاهتمامات المشتركة العامة ، وهو الجزء الخاص بالإنتاج والتجارة والتسلية ، والجزء الآخر تشكله الأحياء المخصصة للحياة الخاصة القائمة على أساس ديني ، وبذلك تمت صيانة الخصوصية والحفاظ على الأمان لكل الناس . وفي ضوء هذا المضمون ينبغي فهم حقيقة نشأة الأحياء التي كان يعيش فيها فحسب ، ولكن ليس بشكل إلزامي ، المسلمون أو الكاثوليك أو الأرثوذكس أو اليهود . وجميعهم يملك حقًا متساويًا في أداء الفرائض الدينية . وهذا هو ما تشهد به معابد جميع الأديان المقامة في حيز صغير في وسط مدينة سرايفو القديمة . وكان

بإمكان الجميع فى إطار المعايير العامة لأمن السفر حينذاك التحرك والسفر بحرية إلى أى مكان ، كما حصل المزارعون على وثيقة تضمن لهم حقوقهم فى الأرض وفى إنتاجها من المحاصيل .

وكل هذه الضمانات قدمت إحساسًا بالأمن القائم على القانون لجميع أتباع طبقات وجماعات المجتمع ، خصوصًا لجميع المسيحيين واليهود ، ولذا فإنهم من أجل هذا بالذات كانوا يرحبون بالاستيطان فى البوسنة ، وتشهد على ذلك الهجرة الكبيرة لأتباع جميع الديانات والطبقات إلى البوسنة . ومن المؤكد أن البشانقة المسلمين كانوا يمثلون الجزء الأساسى من سكان البوسنة وذلك وفقًا لعددهم وقدرتهم الاقتصادية والسياسية ومدى تأثيرهم العام على الحالة الكلية للأمور .

وباعتبارهم الجزء الأكثر عددًا وترابطًا من إجمالى البشانقة وباعتبارهم الجزء القيادى منه كان البشانقة المسلمون يمثلون وحدة كاملة مصغرة ويعتبرون بنيانًا اجتماعيا ناميًا . وبالإضافة إلى ذلك نشأت طبقة جديدة من الأعيان وأصحاب الإقطاعيات الذين شكلوا الطبقة القيادية فى البوسنة وقدموا خدمات جليلة للحكومة العثمانية فى ميادين كثيرة وخاصة فى المجالات العسكرية والإدارية والثقافية . ثم هناك أيضًا طبقة العلماء والموظفين الذين بإمكانهم أن يكونوا أيضًا من أصحاب الإقطاعيات .

وأخيرًا هناك طبقة الرعية أو أهل الذمة ، وهم فى الغالب يقومون بالأعمال اليدوية الشاقة والحرفية وفلاحة الأراضى "الميرى"، أى أراضى الدولة أو السلطان . وبعملهم فى هذه الأراضى كانوا ملزمين بتقديم جزء محدد من إنتاجهم الزراعى لصاحب الأرض أو للمستفيد بإيرادها . وفيما عدا ذلك كان للمزارعين حريتهم الشخصية وبإمكانهم فى أية لحظة ترك العمل بالأرض ، كما كان بإمكانهم امتلاك حديقة أو أرض خاصة . وتميزت كل جماعة من المسلمين البشانقة وكانت لها مصالحها الخاصة . وعكس المجتمع البوسنى صورة الوحدة الكاملة المكونة من عدة طبقات والنامية نموًا كبيرًا من الناحية الاجتماعية .

ولم يكن إضفاء الطابع العثمانى على المناطق والأراضى التى استولى عليها العثمانيون يعنى تحولاً سريعًا وجذريا ، بل هو تطور تدريجى . واستغرقت عملية إقامة المؤسسات العثمانية وإنشاء النظام الإدارى الإقليمى والقضائى والعسكرى والزراعى عدة عقود فى كثير من الأحيان . وكانت هذه هى الحال أيضًا مع البوسنة ، فقد أقيم النظام العثمانى فيها بشكل تدريجى منذ العشرينيات من القرن الخامس عشر .

وبسقوط يايتسا فى عام ١٤٦٣م لم يتم الانتهاء من الاستيلاء على كل أراضى الدولة البوسنية فى القرون الوسطى ، واستمرت عملية الاستيلاء على باقى الأراضى البوسنية حوالى مائة وثلاثين سنة وانتهت بسقوط بيهاتش فى عام ١٥٩٢م . وخلال هذه الحقبة تم إلغاء النظام القديم وإقامة النظام العثمانى للسلطة والاقتصاد وما إلى ذلك . وفى الوقت نفسه حدثت فى هذه الحقبة أكبر نهضة للإمبراطورية العثمانية . وبعد الغزوات التى قام بها السلطان الفاتح تدعمت الإمبراطورية خلال عهد خليفته بايزيد الثانى سياسيا وإقليميا . وحدثت انطلاقة اقتصادية ، وعمل خلفاؤه سليم الأول وسليمان الأول القانونى وسليم الثانى فى الفترة من عام ١٥١٢ وحتى عام ١٥٧١م على تثبيت وتدعيم حدود الإمبراطورية بشكل عملى . وتطورت الدولة العثمانية آنذاك إلى أن أصبحت إمبراطورية عالمية كبيرة بحيث إنه خلال القرن السادس عشر لم تكن هناك مسألة على صعيد السياسة الدولية لا تعنى العثمانيين وكان حتمًا إشراك العثمانيين فى بحثها وإيجاد الحلول لها .

وقد فرض موقع البوسنة النائى وضعًا خاصا لها داخل الإمبراطورية العثمانية . فلقد كانت البوسنة بشكل عملى طوال فترة الحكم العثمانى لها وضع الإقليم الواقع على حدود الإمبراطورية وعلى جبهتها فى مواجهة الدول الأخرى . وبوضعها وموقعها هذا كان للبوسنة فى فترتين مختلفتين من تاريخ الإمبراطورية العثمانية دوران متباينان : أولاً دور هجومى وفيما بعد دور دفاعى . فقد كانت البوسنة وقت نهضة الإمبراطورية العثمانية تمثل رأس الجسر لتقدم العثمانيين صوب أوروبا ونقطة انطلاق للهجمات

والغارات العثمانية تجاه كرواتيا وهنغاريا وكرانيسكا وشتايرسكا ، وكذلك تجاه دالماسيا وبوكا وساحل زيتا .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن البشانقة كان لهم دور عظيم ومهم فى تنفيذ أهداف العثمانيين وتحقيق أطماعهم . وبعد هزيمة العثمانيين فى حرب فيينا الكبرى (١٦٨٣ - ١٦٩٩م) . وعقب هدنة كارلوفاتس أصبحت البوسنة تمثل حدود الإمبراطورية العثمانية وبالتالى تعرضت لهجمات ومناوشات خارجية مستمرة على أراضيها من جانب سكان البندقية من دالماسيا والنمسا ، ومن الشمال ومن الغرب . وعند الهزيمة كان البشانقة المسلمون هم أكثر من تعرض للخسائر البشرية والاقتصادية وغيرها ، وأثبت البشانقة على مر الأيام أنهم الأساس الصلب للزود عن الوطن وعن الإمبراطورية العثمانية .

ودعم واجب الدفاع عن البوسنة وعن الإمبراطورية العثمانية لدى البشانقة الوعى بوضعهم الخاص داخل الإمبراطورية التى بذلوا الرخيص والغالى عدة مرات من أجل الدفاع عنها وحمايتها . وزاد هذا فى الوقت ذاته إحساس البشانقة بتبعيتهم للإسلام وللمسلمين وللحضارة الإسلامية ، كما ازداد لديهم الوعى الكامل بالأهمية الجغرافية السياسية للبوسنة .

وتعد ظاهرة اعتناق البشانقة للإسلام وانتشاره بينهم عملية ثقافية وحضارية معقدة . وكانت هذه الظاهرة ، بكل ما تطرحه وتثيره من تساؤلات وتفرضه من استنتاجات ، محل دراسة وبحث مستفيض من جانب العديد من الباحثين والمهتمين . ويعترف بعض الباحثين والمؤرخين البوسنيين بأن علم التاريخ البوسنى لم ينجح حتى يومنا هذا فى تقديم إيضاحات وتفسيرات موضوعية ومنهجية لهذه الظاهرة . وعند قيام الباحث بالاقتراب من هذه الظاهرة ودراستها يجد نفسه مقيداً بالأحكام المسبقة المضللة ومكبلاً بالعواطف والأهواء ، بل وأيضًا مثقلاً بالعديد من الأوهام والتحريفات المتعمدة والمغالطات المغرضة وخاصة من جانب الباحثين والمؤرخين غير البوسنيين إلى حد التزييف الصريح والواضح لطبيعة وخصائص التركيبة العرقية والدينية للبشانقة

قبيل وخلال عملية انتشار الإسلام فى البوسنة ، مثلما حدث مع ظاهرة الكنيسة البوسنية وأتباعها من المسيحيين البوسنيين ، ومثلما حدث مع كل الأمور المتعلقة بالتواجد العثمانى فى البوسنة بشكل خاص وفى منطقة البلقان بوجه عام .

وفى كثير من الإبداعات الشعبية والتراث الملحمى والمراجع ، وخاصة الصربية والكرواتية ، يتم باستمرار وبإصرار تكرار الزعم بأن عملية اعتناق الإسلام تمت قهراً وتحت ضغوط بدنية ونفسية . واستناداً إلى العديد من المصادر والمراجع التى أوردها المؤرخون والباحثون البوسنيون فإن هذا الزعم غير صحيح . وقد تم دحضه دحضاً تاماً ولم يتم إيجاد أية أدلة عليه ، بل تم العثور على أدلة تثبت العكس ، أى أنه لم يتم فرض الإسلام بالقوة على أى شخص . ومن المؤكد أن هذه المزاعم والادعاءات قيلت فى أغلب الأحوال بسوء نية متعمد ، وهى تفصح عن شخصية كاتبها وتفضح نواياه وتكشف مآربه ولا تمت إلى المنهج العلمى بأية صلة .

وقد ثبت أن الإسلام قد انتشر بسرعة أكبر وكثافة أكثر وبشكل أكثر شمولاً مما حدث فى أية دولة بلقانية أخرى وُجد فيها العثمانيون . وهناك رأى منتشر بأن الأغلبية العظمى من مسلمى البوسنة هم أحفاد البوجوميليين البوسنيين ، أتباع الكنيسة البوسنية ، الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من شعب البوسنة فى عهد الدولة البوسنية فى القرون الوسطى . ووفقًا لهذا الرأى فإنه نتيجة لاستمرار الهجمات والمطاردات من جانب الكاثوليكيين والأرثوذكسيين على أتباع الكنيسة البوسنية فإنهم ببساطة سرعان ما اعتنقوا الإسلام بشكل جماعى بعد مجىء العثمانيين ، وذلك تدعيماً لأنفسهم بهذا الدين الجديد فى مواجهة هجوم الكنيستين . ووفقًا لهذا الرأى أيضاً فإن اعتناق الإسلام على دفعة واحدة قد تم بعد سقوط يايتسا فى يونيو من عام ١٤٦٣م . بينما السلطان الفاتح لم يزل موجوداً فى البوسنة ، إذ إن ستة وثلاثين ألف عائلة من عائلات البوجوميليين هرولت إلى يايتسا لإعلان خضوعها للسلطان واعتناقها جميعها للإسلام .

وعلى الرغم من انتشار هذا الرأى فلا تسنده أية أدلة واقعية ولا تدعمه أسانيد قوية ، وهو رأى يخلو من فهم سليم لمعان ديناميكية الأحداث التاريخية . والحقيقة أنه لا يمكن فهم عملية الاعتناق الجماعى للإسلام من جانب البشانقة إلا بعد متابعة ودراسة تدرج وديناميكية استمرارية العملية على أساس السجلات العثمانية التى لم يتم الاقتراب منها وفحصها ودراستها إلا بعد عام ١٩٤٥م .

وأثبتت السجلات والمراجع أن الرقم المذكور من عائلات البوجوميليين المتجمعين أسفل يايتسا فى عام ١٤٦٣م هو رقم غير واقعى وغير حقيقى تماماً . إذ كيف يمكن إطعام كل هذا العدد من الأشخاص والمعلوم أن السلطان الفاتح بنفسه انسحب بجيشه إلى داخل أراضى الإمبراطورية بعد احتلاله يايتسا بالذات وذلك نتيجة لعدم توفر الكميات اللازمة لإطعام جيشه ودوابه .

كما أن الاعتقاد المسيطر بأن أتباع الكنيسة البوسنية قد هرولوا كلهم لاعتناق الإسلام لا يناسب الواقع الاجتماعى للبوسنة فى العقود الأولى من الحكم العثمانى ، فقبيل الغزو العثمانى كانت تتواجد على أرض البوسنة وتناضل من أجل البقاء والاستحواذ على السلطة ثلاث كنائس . ولم تكن سياسة الحكومة تؤيد تأييداً خاصاً أية واحدة من هذه الكنائس الثلاث حتى العقد الأخير من عمر المملكة البوسنية . وبدءاً من عام ١٤٥٠م فقط وقف الملك ستيبان توماش فى صف الكنيسة الكاثوليكية وأبدى موافقته وتأييده لمطاردة المسيحيين البوسنيين وفرض الكاثوليكية عليهم قسراً . ومن هنا يُعتقد فى كثير من الأحيان أن كثيراً من المسيحيين الذين تم فرض الكاثوليكية عليهم قسراً قد خانوا البلاد فى عام ١٤٦٣م ، وسلموا بلا مقاومة المدن المحصنة للعثمانيين الغزاة ووقفوا فى صفهم بكل صراحة . وقد كانت هناك حالات من تسليم المدن والانتقال إلى صف العثمانيين إلا أن الهروب من البوسنة لا من جانب الكاثوليك فحسب ، بل ومن جانب المسيحيين البوسنيين الآخرين كان ظاهرة متكررة بشكل عام .

وكثيراً من المعلومات الخاصة بالاعتناق الجماعي للإسلام في البوسنة تقدمها لنا تقارير المبعوثين المطلعين الذين أرسلهم البابا للقيام بزيارات تفقدية . وهذه المصادر الأولية المهمة تبين أن عملية اعتناق الإسلام في البوسنة استمرت لمائتين وخمسين عاماً . وكانت تسير في القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن السادس عشر بشكل بطيء نسبيا ، ولم تمض بدون حدوث تذبذب أو توقف أو ردود فعل . وتكثفت عملية اعتناق الإسلام خلال القرن السادس عشر وخاصة بعد معركة موهاتش في عام ١٥٢٦م واستمرت طوال القرن السابع عشر ، كما تواصلت بشكل عملي حتى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر قبيل الاحتلال النمساوي الهنغاري .

وبعد البحث والاستقصاء يمكننا التقرير بأن البشانقة اعتنقوا الإسلام طواعية وبشكل جماعي بسبب ظروفهم وأحوالهم ، وهي ظاهرة ساهمت في وقوعها – بشكل أو بآخر – عدة عوامل وهي لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاحات التي لا أساس لها وإنما هي حقيقة تاريخية توضح نفسها بنفسها .

وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تنتهج أية سياسة رسمية لفرض الإسلام على غير المسلمين أو تحويلهم إلى الإسلام . وكما هو معروف فالتبشير وتحويل الأشخاص إلى الدين الجديد أشياء غريبة على طبيعة الإسلام ومبادئه . وفي هذا الصدد لم تقم الدولة العثمانية بأية دعاية دينية منظمة بمعرفة الدعاة أو العلماء ، وإنما باعتبارهم رجال علم ودين كانوا لا يبدءون عملهم ونشاطهم إلا بعد أن يعترف السكان في منطقة معينة بالإسلام ويعتنقوه ، وعندئذ فحسب تظهر الحاجة إلى تعليم هؤلاء المسلمين الجدد مبادئ دينهم وتفقيههم فيه وكان هذا واجب العلماء . ومن أراد ورغب كان يعتنق الإسلام طواعية وعن رضا . ولم يتم تسجيل أية عمليات قهر أو إجبار لاعتناق الدين الجديد ولا تنفيذ لأية عقوبات ضد أولئك الذين فضلوا البقاء على دينهم ، بل على العكس تم ضمان الحرية الدينية ما داموا يدفعون الجزية أو الخراج .

ومن النقاط المهمة التي يتحتم التنويه إليها فيما يتعلق بالتواجد العثماني في البوسنة أن عملية اعتناق البشانقة للإسلام وانتشاره بينهم لم تمس ولم تحد على

الإطلاق من حقوق نشاط الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية . فقد سمح رجال الدولة العثمانيين للكنيستين بحرية التواجد والعمل وممارسة أنشطتهما . ومن أولى الوثائق التى أصدرها السلطان الفاتح بعد استيلائه على القسطنطينية هى الوثيقة الرسمية بتنصيب جناديا الثانى بطريركًا للكنيسة الكاثوليكية ، كما عين السلطان على الفور الحاخام باشا رئيسًا دينيا لكل اليهود فى الإمبراطورية ، ومقر كليهما كان فى القسطنطينية باعتبارها عاصمة للإمبراطورية . وبعد الاستيلاء على البوسنة فى عام ١٤٦٣م كفل السلطان بوثيقة خاصة "أدرنامة" للفرنسيسكان حرية ممارسة أنشطتهم وأعمالهم الدينية ، وبالتالى حرية الاعتقاد للبشانقة الكاثوليك فى البوسنة . ووافق أيضًا على تجديد أبرشية بيتش فى كوسوفو فى عام ١٥٥٧م . حينما نشطت الكنيسة الأرثوذكسية . كما تمت الموافقة على هجرة يهود أسبانيا إلى البوسنة فى عام ١٥٤٠م ، وهكذا عادت التعددية الدينية إلى البوسنة .

لقد سمحت الدولة العثمانية وفقًا للمبادئ الأساسية للإسلام لغير المسلمين بحرية الاعتقاد وانتهاج الأسلوب الخاص بهم فى الحياة والتزمت بهذه السياسة التزامًا ثابتًا طوال كل فترة تواجدها فى البوسنة . وكانت هذه الحماية والأمان لغير المسلمين فى الدولة العثمانية الإسلامية عنصرًا مهمًّا فى نموها ونجاحها العسكرى .

ويوجد ارتباط وثيق وحيوى بين اعتناق البشانقة للإسلام وبين نشأة وتطور المدن ذات الطابع الشرقى وانتشار الحياة المدنية فى البوسنة ، الأمر الذى خلق بيئة وظروفًا جديدة للحياة تتواءم وتتناسب مع نشوء صورة ثقافية وحضارية جديدة للمنطقة يحتل قلبها الإسلام بتأثيراته القوية المتعددة . وأصبحت المدن مراكز لنشر الإسلام والترويج لانتهاج أسلوب الحياة القائم على عناصر الثقافة الإسلامية الثرية والإنجازات الحضارية ، وانتقل مركز الحياة الدينية إلى المدن .

واستنادًا إلى كثير من الوثائق المتعلقة باعتناق الإسلام وانتشاره فى البوسنة يتضح أن الإسلام انتشر انتشارًا أسرع فى المدن ، وكذلك فى تلك الأماكن التى لم تكن قد تعمقت وتشبثت بأرضها جذور صلبة وممتدة للسكان المسيحيين والمؤسسات

المسيحية ، وفى تلك الأماكن التى كانت توجد بها غالبية من أتباع الكنيسة البوسنية قبل عملية الفرض القسرى للكاثوليكية .

وكانت المهمة الجوهرية للمدن حديثة الإنشاء أن تصبح مركزًا للإنتاج والحِرَف والتجارة والثقافة والعلم والدين ، وبشكلها هذا أثرت تأثيراً قويا على التشكيل الجديد للحياة فى البوسنة كلها على الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والثقافية والسياسية الناشئة حديثًا . وأصبحت المدن العديدة مثل سرايفو ، وموستار، وبانيالوكا، وترافنيك ، وليفنو ، وستولاتس ، وتريبينى ، وزفورنيك ، وتوذلا ، وفوتشا ، وبيهاتش ، وغيرها مراكز لجذب السكان من المناطق المحيطة . ونشأت فيها مؤسسات اقتصادية وتعليمية وثقافية جديدة مثل المساجد والتكيات والمدارس الإسلامية والمطاعم والحمامات الشعبية ، والمكتبات ، الخاصة والعامة والكتاتيب ، الأمر الذى ساعد على نشر الاهتمام بالثقافة وبالدين الإسلامى .

ويمكن القول بأن انتشار الإسلام أحدث تغيراً جذريا وشاملاً فى أسلوب الحياة بالبوسنة فى جميع المجالات وجلب أساليب جديدة للعمل ، كما سمح بتعدد وسائل الاتصال وخلق إمكانيات جديدة أمام إنتَاج السوق والتجارة بوجه عام . واتسع وتدعم وعى الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام وذلك بالتوازى مع إدراكهم بأنهم بهذا الاعتناق للإسلام قد أصبحوا يعيشون على أراضى إمبراطورية عالمية ذات تنظيم جيد للغاية وتتمتع بأمن شرعى لا مثيل له بالمقارنة بظروف الحياة السابقة ، وتتاح فيه بسهولة سبل الارتقاء حيث يمكن للأشخاص العاديين – إذا كانت لديهم القدرة والكفاءة – أن يبلغوا أعلى المناصب ويحصلوا على أرفع التقديرات فى الإمبراطورية .

ومما لا شك فيه أن كل هذه الأمور أثرت – بالضرورة – تأثيراً قويًا على الحياة الشاملة للبلاد اقتصاديا وحضاريا وثقافيا وسياسيا ودينيا . وانعكس هذا على الانتشار السريع السلس للإسلام . وعلى المستوى الداخلى للإمبراطورية العثمانية تساوت البوسنة مع أى إقليم آخر من أقاليمها ، كما تساوت سرايفو مع عاصمة

الإمبراطورية . واختفى وضع البوسنة كبلد موجود فى نهاية العالم وكبلد للبعثات التبشيرية كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعاملها منذ عام ١٢٩٠م .

وازداد النمو الاقتصادى وانتشر الثراء ، الأمر الذى أدى إلى البذخ فى تشييد المبانى العامة والمنازل ، وكذلك فى أسلوب الحياة . وأصبحت مدن البوسنة ، وخاصة مدينة سرايفو ، مشهورة فى الشرق والغرب على حد سواء باعتبارها مركزًا للتجارة والثقافة وللازدهار بجميع أشكاله وألوانه . ووصف الرحالة الذين مروا بالبوسنة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر حتى وقت إحراق سرايفو على يد قوات يوجين سافويسكى - وصفوا سرايفو بأنها مركز كبير وثرى ومتطور تطورًا شاملاً للتجارة والحرف والثقافة ، وبأنه مركز لا مثيل له فى المنطقة من فينيسيا وحتى إسطنبول .

وخلال قرنين من الازدهار مرتبطين بالتقدم العام للعثمانيين تم الانتهاء تمامًا من اعتناق الإسلام فى البوسنة ونما المجتمع البوسنى على أسس الثقافة والحضارة الإسلاميتين مع سيطرة التسامح والحفاظ على بعض الأشكال الحياتية والثقافية السابقة . وهكذا ظلت البوسنة بيئة مركبة ومترابطة ترابطًا رقيقًا ، وتم إثراء هذه الخاصية للبوسنة . واستمرار عمل ونشاط الجماعات الدينية الأخرى هو أوضح دليل على أن اعتناق الإسلام وانتشاره فى البوسنة ونمو الحضارة والثقافة الإسلاميتين لم يعق أحدًا فى تطوره الذاتى المستقل .

وهكذا نشأت وتشكلت فى البوسنة - من ناحية الشكل والمضمون - جماعة مركبة ولكنها فريدة هى جماعة البشانقة المسلمين ، وربطها بخيط واحد هو الإخلاص العام للدولة العثمانية الإسلامية التى عن طريقها اعتنقوا الإسلام . وبهذه الطريقة ارتبط مصيرهم ارتباطًا وثيقًا بهذه الدولة ، وبواسطة الإسلام الذى كان يمثل العصب الفكرى للإمبراطورية العثمانية تبنى البشانقة أيديولوجية سياسية فريدة ودخلوا فى إطار دائرة ثقافية متميزة . وعلى هذه الأسس تشكل على أرض ولاية البوسنة شعب البشانقة بمصالحه وطموحاته الخاصة .

وخلال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر وقعت عدة حروب بمشاركة البشانقة ، ومنها حرب كاندى التى جرت بين الإمبراطورية العثمانية وفينيسيا فى الفترة من عام ١٦٤٥ وحتى عام ١٦٦٩م وانتهت بانتصار العثمانيين بمساعدة البشانقة ، ومنها الحرب الأوروبية الكبرى التى انتهت بهزيمة العثمانيين أسفل مدينة فيينا فى عام ١٦٨٣م ، ثم غزو الأمير يوجين سافويسكى للبوسنة فى عام ١٦٩٦م وتخريبه لسرايفو وحرقها إلى أن تم عقد اتفاقية سلام فى سريمسكى كارلوفيتسى فى عام ١٦٩٩م بين العثمانيين والنمساويين .

وعلى الرغم من حلول فترة من الهدوء النسبى بين الإمبراطورية العثمانية والنمسا فإن النمسا ظلت تضمر نوايا عدوانية تجاه البوسنة ، ولفترة طويلة كانت ترسل البعثات لبحث الأحوال وترسيم الحدود . وبعد ذلك توغل الجيش النمساوى فى عام ١٧٣٧م إلى داخل البوسنة ، إلا أن الجيش الشعبى البوسنى تمكن من صده وهزيمته عند بانيا لوكا .

وقد اتسمت الأحوال فى البوسنة والهرسك فى بداية القرن التاسع عشر بزيادة حدة التناقضات الاجتماعية والسياسية والدينية الناجمة عن الإصلاحات الجديدة التى سعى السلطان العثمانى سليم الثالث إلى إجرائها فى جميع أنحاء الإمبراطورية . ولاقت هذه المحاولات للإصلاح قبولاً طيبًا من جانب الطبقات الاجتماعية المتميزة ، وفسرها أفراد الشعب على أنها تنازلات مقدمة إلى غير المسلمين من الرعية .

وبوجه عام كانت الإمبراطورية العثمانية فى حالة ضعف متزايد وأخذت أحوالها العامة تتدهور ، وكانت قد تجاوزت منذ فترة طويلة أوج نموها ولم يكن أمامها الآن إلا أفول قوتها وتضاؤل دورها الدولى التاريخى . وللأسف اضطر البشانقة إلى مشاركتها المصير نفسه .

ونتيجة لضعف الإمبراطورية العثمانية وأفول قوتها فقد بدأت تظهر فى أوائل القرن التاسع عشر ثورات وحركات تحررية بين بعض الشعوب المسيحية الأرثوذكسية التابعة لها . ومما لا شك فيه أن هذه الثورات كانت تدق المسامير الأخيرة فى نعش

الإمبراطورية العثمانية ، ولكنها في الوقت نفسه كانت في مناطق عديدة ومختلفة تعرض للخطر وجود المسلمين ومنهم طبعًا البشانقة . وعلى هذا النحو فهم البشانقة نشوب الثورة الصربية الأولى في ديسمبر من عام ١٨٠٤م . ونتيجة لهذا الإحساس للتعرض للخطر اشتركت كتائب الجيش البوسني منذ البداية مع العثمانيين في العمليات العسكرية لمقاومة الثوار الصرب وخصوصا أنهم منذ بداية تحركهم أفصحوا عن أطماعهم الإقليمية في البوسنة ، إلا أن البشانقة تكبدوا هزيمة من جانب الثوار الصرب بالقرب من شاباتس في أغسطس من عام ١٨٠٦م ، وبعد ذلك نجحوا بقيادة سليمان باشا سكوبلياك في تكبيد الصرب عدة هزائم قاسية . وكان البشانقة من أوائل من دخلوا بلغراد في أكتوبر عام ١٨١٣م بعد تحطيم الثورة الصربية الأولى .

وفي بداية القرن التاسع عشر قامت أيضًا بين البشانقة ثورات وحركات للمقاومة ولكن على أساس سياسي واجتماعي مختلف . فمع تغير الأحوال والظروف انتشرت الثورة والتمرد بين كبار الإقطاعيين من الأعيان وبين نقباء الجيش .. القائمين بأعباء مهام السلطة المحلية ، ووقف في صفهم رجال الانكشارية وخاصة في سرايفو . وكانوا جميعهم هم الأساس المحرك لأية اضطرابات أو قلائل اعتبارًا من النصف الثاني من القرن الثامن عشر وذلك بسبب التغيرات التي هددت بضياع أوضاعهم السياسية والاجتماعية ، وبالتالي ضياع امتيازاتهم .

وقد حاول الوزير البوسني علي نامق باشا موراليا في عام ١٨٣١م إقناع الأعيان والنقباء بالطاعة والإخلاص للسلطان وقبول الإصلاحات ، إلا أنهم رفضوا المطالب وتمردوا بقيادة حسين جراداشتشيفيتش الذي اختاروه ممثلاً لهم ، وتمكن من إحراز نصر كبير ، ولذا نصبوه واليًا على البوسنة ، إلا أنه سرعان ما ظهر جيش جديد للسلطان وتمت هزيمة حسين وأتباعه في عام ١٨٣٢م . وقام الباب العالي بضغوط كبيرة على البشانقة مجبرًا إياهم على الخضوع وعلى قبول الإصلاحات الجديدة . وتلت ذلك حملات عقابية في الفترة ما بين عام ١٨٣١ وعام ١٨٥١م إلى وقت الحملة العقابية الأخيرة لعمر باشا لاتاس التي يمكن تسميتها بالفترة السوداء في تاريخ البوسنة .

وازداد سخط الفلاحين على السلطات العثمانية بسبب مشاكل الزراعة واستمرار السخرة ، وقاموا بعدة قلاقل . وفى عام ١٨٧٥م نشبت ثورة عارمة بدأت فى الهرسك ثم امتدت إلى المناطق المتاخمة فى البوسنة وبلغاريا ، وتضامنت صربيا معها إلا أن القوات العثمانية تمكنت من إخماد الثورة ، ومن هزيمة صربيا .

الاحتلال النمساوى الهنغارى :

يعد تحطيم ثورات البشانقة من أكثر الأحداث خطورة وأشدها تأثيراً من حيث عواقبها العامة بالنسبة لتاريخ البشانقة فى القرن التاسع عشر . وبالإضافة إلى ذلك فإن سلسلة الثورات وحركات المقاومة التى نشبت على حدود الإمبراطورية العثمانية أعطت الفرصة للدول الأجنبية للاهتمام بما يسمى بمسألة البوسنة . وبرزت من الدول الأجنبية النمسا التى لها مصالح وأطماع فى هذه المنطقة فأخذت تطرح على الدبلوماسية الأوروبية مسألة الوضع غير المحتمل للمسيحيين فى البوسنة . وأخذت هذا الأمر ذريعة للضغط وبحث الوضع المستقبلى للبوسنة ومصير السلطة العثمانية فيها .

وقد تم حل المسألة فى مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨م حيث تم منح الحكومة النمساوية الهنغارية - بناء على موافقة السلطان العثمانى - تفويضاً باحتلال البوسنة وفرض النظام والهدوء والأمن وخاصة بالنسبة للسكان المسيحيين . واستمرت عملية الاحتلال حوالى ثلاثة أشهر اختتمها المحتل بفرض إجراءات انتقامية شديدة ذات طبيعة اجتماعية وقانونية واقتصادية مثل فرض الضرائب المتنوعة ومصادرة الممتلكات والاستيلاء على كل الأراضى والغابات .

ولم تكن عملية الاحتلال سهلة على الإطلاق . وكان نظام الاحتلال صارماً للغاية وخاصة بالنسبة للبشانقة المسلمين نظراً لأنهم كانوا هم الجزء الأكبر من شعب البوسنة الذى قاوم الاحتلال ومجىء السلطات النمساوية الهنغارية وكبدها خسائر فادحة .

وجدير بالذكر أن البشانقة لم يستقبلوا ويتقبلوا الاحتلال والمحتل على وتيرة واحدة . وجاء رد الفعل الأكثر إيجابية من جانب الكاثوليك الذين اعتبروا مجيء النمساويين ضمانًا لأمنهم وأمانهم وازدهارهم ، ولذا فإنهم منذ البداية تجاوبوا معه وكانوا الأوائل فى التعاون معه . أما البشانقة الأرثوذكس فلم يتحمسوا لقبول الاحتلال بغض النظر عن عدم قبولهم للعثمانيين ومعارضتهم ومقاومتهم لهم . وعلى الرغم من مقاومة البشانقة المسلمين للاحتلال لفترة طويلة فإنهم فى نهاية الأمر اضطروا إلى الاعتراف بالسلطة الجديدة والتكيف مع المتغيرات ، وهاجر عدد منهم إلى تركيا وغيرها من البلدان وفقًا للمبدأ القائل بأن المسلمين لا يمكنهم العيش فى بلد يحكمه غير مسلمين .

وبالاحتلال انقطعت انقطاعًا فعليا سلطة الإمبراطورية العثمانية على البوسنة بعد فترة دامت أربعمائة وخمسة عشر عامًا وبدأ عهد جديد من تاريخ البوسنة وشعبها البشانقة . كما يعد الاحتلال نقطة تحول فى التطور الاقتصادى للبوسنة وذلك لأنها تحولت إلى الاقتصاد الرأسمالى الذى لا يمكن تصوره دون وسائل مواصلات جديدة ولذا فإن سلطات الاحتلال كرست اهتمامًا خاصا لإقامة خطوط السكك الحديدية وشبكة كاملة للمواصلات تربط بين المناجم والمصانع وتشييد الطرق . وتم الشروع فى تطوير تلك الفروع الصناعية التى تسمح بالرواج المثمر لرءوس الأموال النمساوية . وأحدثت هذه التحولات الاقتصادية الهائلة تغيرات مهمة فى المجتمع مما أدى إلى تغير هيكله . وكانت سلطات الاحتلال تحمى مصالحها الرأسمالية وتمنع البوسنيين من تنمية صناعتهم المحلية والاشتراك فى استغلال الثروات الطبيعية للبلاد .

ويمكن القول إنه بالإضافة إلى تدعيم وضعها ونفوذها على ساحل البحر الأدرياتيكى حققت النمسا الهنغارية باحتلالها للبوسنة والهرسك ثلاثة أهداف أخرى وهى :

١ – اتخاذ خطوة كبيرة من أجل التوسع الاقتصادى والسياسى صوب الجنوب الشرقى .

٢ – منع إقامة بعض الدول السلافية على حدودها الجنوبية .

٣ – تأمين منطقة ذات أهمية فريدة بالنسبة لرءوس أموالها وذلك فيما يتعلق بالثروات الطبيعية والطاقات الاقتصادية .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن الاحتلال كان يمثل بالنسبة لحياة البشانقة نقطة تحول ضخمة ، ولا يمكن مقارنة هذا الحدث فى تاريخ البشانقة إلا بتلك التحولات الحاسمة التى تقطع مسار التاريخ وتوجهه صوب اتجاه آخر وبذلك تثير مختلف المآسى الكبيرة والصغيرة لدى أفراد الشعب الذين كانوا فى خضم هذا الحدث الهائل – فى كثير من الأحيان دون وعى منهم بأهميته – يقومون بأدوار رئيسية أو ثانوية أو بدور المتفرج . وبالإضافة إلى ذلك كان مجىء النمسا الهنغارية إلى البوسنة والهرسك يعنى بالنسبة للبشانقة الانتقال من حضارة إلى حضارة أخرى ، وإلى ثقافة مختلفة تمام الاختلاف ، وإلى أسلوب حياة متباين ، الأمر الذى لم يكن من الممكن أن يمضى فى يسر وسرعة أو دون معاناة .

فالبشانقة عن طريق الدين أصبحوا داخل دائرة ثقافية إسلامية فريدة واندمجوا فى المجتمع العثمانى المتميز الذى شمل كل السكان المسلمين بالإمبراطورية . وارتبط البشانقة بالمراكز البعيدة للحياة السياسية والدينية والثقافية للعالم الإسلامى عن طريق مئات الخيوط والاتصالات المتنوعة ، ثم جاء الاحتلال النمساوى الهنغارى لكى يمزق مرة واحدة كل هذه الخيوط والاتصالات . ولسنوات عديدة بعد الاحتلال تملك البشانقة الإحساس بالضياع الكامل وبالوحدة النفسية والسياسية وبعدم وجود أى سند خارجى لهم ، ولذا فلم يكن أمامهم إلا تقبل الحضارة الجديدة أو الضياع . بيد أن السبيل إلى التكيف مع الظروف الجديدة لم يكن ميسوراً ولا بسيطاً .

وكان من الطبيعى أن يثير الاحتلال فى حياة البشانقة العديد من العواقب السلبية . وكان أول رد فعل هو ثبوط عزيمتهم وعدم ثقتهم بالنمساويين وكراهتهم لهم . ويقال إن العديد من المتقدمين فى السن لم تكن لديهم رغبة على الإطلاق فى الخروج من ديارهم لا لشىء إلا لكيلا يلتقوا بأى نمساوى محتل "بغيض" . وعلى الرغم من عدم رضائهم فإن البشانقة فى السنوات الأولى من الاحتلال تملكهم الصمت وتذرعوا بالتحمل .

ومن المؤكد أن من أهم نتائج الاحتلال أنه تم دفع البشانقة بسرعة - وإلى غير عودة - إلى الوراء إلى الطريق الرأسمالى للتقدم من خلاله ، كما أنه لا يمكن التقليل من أهمية الحقيقة التى تفيد بأن الاحتلال قد دفع البشانقة إلى وضع يعد سياسيا وثقافيا واقتصاديا أضعف إذا ما قورن بوضع الجماعتين الأخريين فى البوسنة (الأرثوذكس والكاثوليك) . ومن خلال الكفاح الشاق لأجل اللحاق بالآخرين على الصعيدين الاقتصادى والثقافى انفتحت أمام البشانقة بالتدريج آفاق جديدة .

وبسبب عدم تكيف عدد كبير من البشانقة المسلمين مع الظروف المتغيرة فى ظل الاحتلال فقد أخذوا - كما أشرنا آنفًا - يهاجرون إلى تركيا . وبدأت الهجرة بالمئات ثم تزايدت إلى أن وصلت فى بعض السنوات إلى آلاف . ويتم ، فى أغلب الأحوال ، فى المراجع التاريخية إرجاع هذه الهجرة إلى الأسباب النفسية . وهكذا كانت الدوائر الرسمية فى النمسا الهنغارية تذكر الأسباب نفسها أمام الرأى العام ، إلا أن بعض الباحثين الآخرين أثبتوا أن السبب الرئيسى للهجرة هو سوء الأحوال الاقتصادية وفقر أفراد الشعب . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت السلطات النمساوية الهنغارية تسمح عن عمد للبشانقة بالهجرة وتيسرها لهم حتى تتمكن على وجه السرعة من الاستيلاء على أراضيهم وديارهم والتوطين فيها بمعرفتها . وفى مكاتباتها السرية ذكرت أجهزة السلطة النمساوية الهنغارية أن الفقر هو السبب الأغلب لهجرة البشانقة المسلمين .

ولم تكن الهجرة بعد الاحتلال مباشرة كبيرة بحيث تشكل ظاهرة ، وفى الأغلب كان يهاجر كبار الموظفين والأعيان الذين يشعرون بإمكانية تعرضهم للخطر أو المساءلة لسبب أو لآخر من جانب سلطات الاحتلال فى ظل الأوضاع الجديدة . وبعد إعلان فرض الخدمة العسكرية الإلزامية على البشانقة فى عام ١٨٨١م وثورة الهرسك المرتبطة بهذا الإعلان بدأت الهجرة الجماعية . ولم تكن سلطات الاحتلال تسجل إحصائيات الهجرة فى الفترة من عام ١٨٧٨ وحتى عام ١٨٨٣م ، ولكن فيما بعد تم التقدير بأنه يمكن أن يكون قد هاجر خلال هذه الفترة على الأكثر حوالى ثمانية آلاف شخص من البشانقة .

وبعد إعلان قانون الخدمة العسكرية ارتفع فجأة عدد طلبات الهجرة ، وحاولت السلطات أن تسد الطريق أمام الهاربين من الخدمة العسكرية الإلزامية أو الهاربين من أية التزامات أخرى تجاه أشخاص أو جهات أخرى ، ولذا فقد حظرت الهجرة على الأشخاص الذين يزيد عمرهم عن خمسة عشر عامًا ويكونون صالحين للخدمة العسكرية ، وعدا هؤلاء كانوا يحصلون بسهولة على تصريح الهجرة . ومن ناحية أخرى كانت السلطات تمنع عودة المهاجرين لأنها كانت توطن على الفور أشخاصًا آخرين على أراضيهم .

ولا شك فى أن الدوائر الرسمية فى النمسا الهنغارية كانت ترى أنه ليس من مصلحتها ، لأسباب عديدة ، أن تحصل هجرة البشانقة من البوسنة والهرسك على أبعاد كبيرة بشكل مبالغ فيه . ومن المؤكد أنه تأتى هنا فى المقام الأول الأسباب السياسية ، فقد كانت النمسا الهنغارية تخشى أن يتم عن طريق الهجرة الجماعية للبشانقة إحداث خلل فى التوازن العرقى والدينى بالبوسنة والهرسك لصالح أتباع القومية الصربية ، الأمر الذى يزيد من عسر موقف الإمبراطورية النمساوية الهنغارية فى منطقة البلقان ، ولذا فمنذ منتصف الثمانينيات انخفض إلى حد ما ضغط السلطات النمساوية على السكان البشانقة . ويبدو أن حكومة الاحتلال قد أدركت أن التصالح مع البشانقة الخاضعين لها هو السبيل الوحيد لتأمين التقدم المستمر للبلاد .

وعند الاحتلال لم يكن لدى المملكة النمساوية الهنغارية أى تصور رسمى لانتهاج سياسة قومية معينة فى البوسنة والهرسك ، إلا أن التناقضات الاجتماعية والدينية فرضت على السلطات النمساوية الهنغارية ضرورة إقامة توازن ، وذلك لأن أى اضطراب أو خلل فى التوازن الدينى والعرقى بالبوسنة والهرسك لصالح أحد عناصرها الثلاثة يمكن أن يعرض موقف المملكة فى الأراضى البوسنية المحتلة للخطر . وتعرضت البوسنة والهرسك إلى ضغوط تعصبية قومية شديدة ، وكان من الحتم إزالة هذه الضغوط والقضاء عليها لأن هذا هو الأسلوب الوحيد لاستمرار تواجد السلطات النمساوية الهنغارية بها ، أى الحفاظ على السيادة لها فيها والسيطرة على إدارتها .

وسعت بالفعل سلطات الاحتلال إلى انتهاج سياسة التوازن والمساواة بين الديانات والقوميات ، إلا أن إمكانياتها فى هذا المضمار كانت محدودة واقتصرت كل جهودها على منع أو على الأقل المراقبة الفعالة للتطلعات القومية لسكان البوسنة والهرسك .

وقد قام الصرب والبشانقة المسلمون بالبوسنة والهرسك بحركات من أجل الحصول على الإدارة الذاتية فى مجال الدين والثقافة ، إلا أن هذه الحركات كانت سياسية تماماً ووجهت كل نشاطها ضد نظام الاحتلال وضد الأحوال السائدة بوجه عام . وتمثلت المطالب الأساسية للحركتين فى الحصول على الإدارة الذاتية لجميع الأنشطة فى مجال الدين والثقافة والسماح لممثلى الجماعتين الإسلامية والأرثوذكسية بإدارة أنشطتهم بأنفسهم وإلغاء التميز فى المعاملة الذى تنتهجه سلطات الاحتلال تجاه هاتين الديانتين من ناحية وتجاه الكاثوليكية المفضلة لديها حينذاك من ناحية أخرى .

واضطرت الحكومة إلى تقديم تنازلات محددة بشأن حقوق الإدارة الذاتية للجماعتين الدينيتين . وكان الاتفاق مع ممثلى المسلمين والأرثوذكس ضروريا بالنسبة لها من أجل تمكينها من تنفيذ استعداداتها لتحقيق نواياها بشأن الضم النهائى للبوسنة والهرسك إلى المملكة . وشملت إجراءات الاستعداد التقارب السياسى مع أهم القوى بالجماعتين ، وتهدئة التطلعات السياسية القومية ، وتدعيم ربط البوسنة والهرسك بالمملكة فى مجال المواصلات والاقتصاد والعلم ، كما تركزت الاستعدادات السياسية على تكوين قوى سياسية موالية للمملكة فى البوسنة والهرسك .

وخططت النمسا الهنغارية للتوغل صوب سالونيك من أجل الاستيلاء على كل المناطق التى يعيش بها كثير من السكان المسلمين من قوميات مختلفة . وفيما يتعلق بالبوسنة والهرسك فقد كانت تعتبر أنه بمقدورها كسب تعاطف البشانقة المسلمين إذا كفلت لهم الحياة والتقدم ، وهذا هو ما فعلته خلال النصف الثانى من الثمانينيات .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ساد لدى القيادات السياسية العليا بالنمسا الهنغارية اعتقاد أنه بغض النظر عن عدم تسوية الوضع القانونى للبوسنة والهرسك فى إطار المملكة فإنه يمكن تنفيذ عملية ضم أراضيها إذا ما سنحت ظروف دولية مناسبة لذلك .

وهكذا فإن المملكة النمساوية الهنغارية طمعًا فى تثبيت حكمها فى شبه جزيرة البلقان وخنق الحركات المعارضة لها عمدت فى عام ١٩٠٨م إلى ضم البوسنة والهرسك لأراضى المملكة ، وأثار إعلان الضم قلقًا وذهولاً لدى البشانقة ، وتعسر على كثير منهم فهم الأحداث ، وكانت هذه بالنسبة لهم ضربة قاسية غير متوقعة . أما سلطات الاحتلال فقد كانت تتابع بعناية أحوال السكان وذلك على الرغم من عدم إمكانية حدوث أية قلاقل أو اضطرابات نظرًا لأن الحزبين المعارضين الكبيرين نصحا الشعب فى البوسنة والهرسك بالالتزام بالهدوء واحترام النظام الشرعى . ولا شك أن الضم كان يعنى البداية الحاسمة لنهاية الإمبراطورية العثمانية أو الانهيار الكامل لتركيا الأوروبية ، وهو ما حدث فى الحرب البلقانية الأولى .

وبعملية الضم هذه قامت المملكة النمساوية الهنغارية من جانب واحد وبالقوة بتغيير الوضع الشرعى الدستورى الذى كانت تتواجد فيه البوسنة والهرسك حتى ذلك الحين ، وهو الوضع الذى صدقت عليه قرارات مؤتمر برلين ، وكشفت بذلك عن نواياها وأطماعها الحقيقية تجاه أراضى البوسنة والهرسك . ومن الطريف أن رد صربيا كان هو الأعنف إزاء عملية ضم البوسنة ، وذلك لأن صربيا كانت تعتبر من قبل أن البوسنة منطقة يستوطنها فى الأغلب الصرب وبالتالى فهى أحق بالاستيلاء عليها ولابد أن تعود لها بعد انتهاء الحكم العثمانى . وأفلح الصرب فى القيام بعمليات مشتركة مع بعض البشانقة المسلمين للإعراب عن رفضهم لعملية الضم .

وأصدرت الحكومة النمساوية القانون الأساسى للبوسنة والهرسك الذى يقوم بمهمة الدستور بالنسبة لها ، ورغم أنها أصبحت جزءًا من المملكة فإنها – أى البوسنة – تمتعت بوضع خاص ، فلها مجلس نواب وحكومة شعبية خاصة بها وما شابه ذلك . وتم – على السطح فحسب – تهدئة التوترات المتعلقة بمسألة الضم ، إلا أن النشاط المكثف ضدها استمر وراء الكواليس ، وكان قويا بشكل خاص فى صفوف الشباب وأجهزة المخابرات لبعض الدول الأوروبية والدول المجاورة للبوسنة .

وشعرت المملكة النمساوية الهنغارية بعد انتصار صربيا فى حرب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣م) بالأخطار القادمة بسبب التحولات التاريخية الضخمة التى أحدثتها هذه الحروب فى شبه جزيرة البلقان وبسبب تزايد الوعى القومى لدى شعوب هذه المنطقة ، الأمر الذى ساهم بالتالى فى زيادة نشاط الحركات الوطنية المطالبة بطرد النمساويين من البلقان . وفى البوسنة والهرسك كثفت الحركات الثورية والجمعيات السرية من أنشطتها الموجهة ضد سلطات الاحتلال النمساوية .

ومن هذه الحركات منظمة "بوسنة الفتاة" ، وهى حركة شبابية ثورية متعصبة للقوميين الصرب تطبق أساليب عنيفة فى الكفاح من أجل الحصول على التحرر القومى وتحقيق الوحدة مع صربيا ولا تستخدم إلا أساليب الاغتيالات فى التخلص من خصومها ، وكثير من أتباع هذه الحركة اشتركوا فى الحروب البلقانية ، وقد ثبتت تبعية هذه المنظمة لجهاز المخابرات الصربى وتعاونها مع حركة "اليد السوداء" الإرهابية .

وفى يونيو من عام ١٩١٤م تمكن جافريلو برينتسيب - أحد البوسنيين المنتمين إلى هذه الحركة - من اغتيال الأرشيدوق فرانتس فرديناند ولى عهد النمسا وزوجته صوفيا خلال زيارته الرسمية للعاصمة البوسنية سرايفو . وجدير بالذكر أن عملية الاغتيال هذه جاءت بتوصية من دراجوتين ديمتيريفيتش أبيس الرئيس المعروف حينذاك لجهاز المخابرات الصربى وقائد المنظمة الإرهابية "اليد السوداء" . وكان من المخطط أن تخدم عملية الاغتيال هذه كمقدمة وباعث لنشوب الحرب التى تعشم الصرب أن تنتهى لصالحهم . وبدأت الحرب بالفعل بعد أن رفضت صربيا الاعتراف بتدخلها فى عملية الاغتيال . وهكذا كانت عملية الاغتيال هذه بمثابة الشرارة التى أشعلت الحرب العالمية الأولى وانتهت بانهيار المملكة النمساوية الهنغارية والقضاء على البقية الباقية من الإمبراطورية العثمانية وقامت على أنقاضهما دول جديدة ووقعت تغيرات هائلة على الساحة الدولية .

الحرب العالمية الأولى :

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الأولى لها أسبابها ودوافعها الحقيقية المتمثلة فى التناقضات بين معسكرى القوى الإمبريالية الكبرى فإن هذا العمل الإرهابى باغتيال ولى العهد فى سرايفو عجَّل بنشوبها . وعلى الفور بعد عملية الاغتيال وقعت فى سرايفو ، وفى بعض الأماكن بالأرياف مظاهرات ضد الصرب وتم تخريب ونهب الكثير من محلات ومنازل التجار والمواطنين الصرب .

وحيث إن النتائج الأولى للتحقيقات بشأن مقتل ولى العهد أثبتت أنه لا صلة للدوائر السياسية الصربية البارزة حينذاك بهذا العمل الإرهابى فقد تم توجيه الاتهام إلى صربيا رسميا . وفى هذا الصدد وجهت الحكومة النمساوية الهنغارية فى يوليو عام ١٩١٤م إنذاراً من عشر نقاط طالبت فيه الحكومة الصربية بوقف كل دعاية معادية للنمسا ، والقبض فوراً على كل المشتركين فى عملية الاغتيال والموجودين بالأراضى الصربية ، واشتراك الأجهزة النمساوية رسميا فى التحقيقات . وفى مواجهة التهديد بالحرب وافقت الحكومة الصربية على كل المطالب فيما عدا الطلب الأخير الخاص بالاشتراك المباشر للأجهزة النمساوية الهنغارية فى التحقيقات التى تجرى على أرضها . واعتبرت أن هذا يمثل خرقًا لسيادتها . وبهذا الرد من جانب الحكومة الصربية على الإنذار النمساوى أصبح من غير الممكن تجنب الحرب ، وسرعان ما تدخلت فيها القوى الكبرى حينذاك .

ورغم بعدها عن ميادين القتال الكبرى فقد كان يتم الإحساس بنتائج الحرب فى كل مكان بالبوسنة والهرسك ، وفى المقام الأول فى شكل جوع جماعى وفقر . وفرضت الحكومة النمساوية على البلاد اقتصاد الحرب بمعنى توجيه الاقتصاد إلى الأهداف العسكرية وإلى الاحتياجات الحربية . ورغم أن الحكومة النمساوية كانت تحاول ضمان وتأمين وصول الاحتياجات الأساسية إلى المواطنين فإن البوسنة والهرسك استقبلت نهاية الحرب فى بؤس فظيع وفقر مريع . وتفيد المراجع بأن

الخسائر البشرية للبوسنة والهرسك فى الحرب العالمية الأولى كانت كبيرة بشكل غير عادى خصوصاً فيما يتعلق بالبشانقة .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وعلى الرغم من حل البرلمان البوسنى فى فبراير من عام ١٩١٥م فإن البوسنة والهرسك استمرت فى الحفاظ على وضعها الخاص داخل المملكة النمساوية الهنغارية ، وذلك بالتوازى مع ترتيب وإعداد مختلف الصيغ والتوليفات بشأن الوضع القانونى للبوسنة والهرسك .

ويمكن القول إنه كانت تجرى المساعى الرامية إلى إقامة دولة يوغسلافية على قدم وساق خصوصاً بعد انتهاء الحروب البلقانية . وقد أسهم انهيار الإمبراطورية العثمانية فى بعث الأمل لدى كثير من العناصر السياسية بإمكانية قيام مثل هذه الدولة اليوغسلافية ، لاسيما أنه لاحت فى الأفق بوادر انهيار الإمبراطورية النمساوية الهنغارية باعتبارها الإمبراطورية الثانية التى كانت تضم تحت سيطرتها عدداً كبيراً من السلاف الجنوبيين ، وبالتالى يمكن على أنقاضها قيام دولة يوغسلافية كبيرة تضم هؤلاء السلاف الجنوبيين .

البوسنة والهرسك فى إطار مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين :

وفى عام ١٩١٨م دخلت البوسنة والهرسك كجزء لا يتجزأ من مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين برئاسة الملك ألكسندر كارادجورجيفيتش . ومن الملاحظ أنه لم يتم ذكر البوسنيين فى اسم الدولة الجديدة . ولم يكن هذا الأمر مصادفة وإنما عن عمد لأن الشعوب الأساسية التى شكلت هذه المملكة لم تشأ أن تعترف بالبوسنيين وإنما اعتبرتهم من المسلمين الصرب أو الكروات دون الاعتراف بشخصيتهم المتميزة وهويتهم القومية البوسنية .

وفى إطار الدولة الجديدة واجه البشانقة المسلمين أوضاعاً اقتصادية واجتماعية وسياسية غاية فى العسر والتعقيد . وتعرضوا لعملية إفقار سريعة ولمختلف ألوان

التنغيص والنهب والقتل ، ولذا فإن كثيراً منهم انضم مبكراً إلى الحركة العمالية والاشتراكية آنذاك .

واستوجبت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى وُجد فيها البشانقة المسلمون بعد عام ١٩١٨م ضرورة تجمعهم فى تنظيم سياسى . وقد أثرت ثلاثة عوامل تأثيراً جوهريا على تجمع وترابط الساسة البشانقة فى الشهور الأولى من عام ١٩١٩م وهى :

١ - الهجوم العام على حياتهم وممتلكاتهم فى كل البوسنة والهرسك .

٢ - تعرض مصالح المزارعين منهم للخطر ، وكانوا يشكلون ٧٥٪ من السكان .

٣ - تمثيلهم الضئيل فى أجهزة السلطة .

واتسمت العلاقات السياسية فى البوسنة والهرسك بين الحربين العالميتين بالتشتت الحزبى السياسى ، الأمر الذى يعد نتيجة لاختلاف وجهات النظر بشأن المشاكل السياسية والاقتصادية ، ونتيجة كذلك لتعقد التركيبة الدينية والقومية للبوسنة والهرسك ، ووفقًا لأول إحصاء للسكان بعد الحرب كان يعيش فى البوسنة والهرسك فى عام ١٩٢١م مليون و٨٩٠٤٦٠ نسمة منهم ٨٢٩٣٦٠ من الأرثوذكس (أى الصرب)، و ٥٨٨١٧٣ من البشانقة المسلمين و ٤٤٤٣٠٩ من الكاثوليك (أى الكروات)، و ١٢٠٥١ من اليهود و ١٦٥٦٧ من أتباع الديانات الأخرى . وقد أوضح هذا التعداد حدوث انخفاض فى عدد السكان فى الفترة من عام ١٩١٠ وحتى عام ١٩٢١م ، وذلك لأن عدد البشانقة المسلمين كان فى عام ١٩٢١م أقل بحوالى ٢٣٩٦٤ بشناقيا عن عددهم فى عام ١٩١٠م . وقد بيَّنا أن من أسباب انخفاض عدد البشانقة الحرب وأعمال العنف التى تعرضوا لها فى السنوات الأولى بعد إعلان دولة السلاف الجنوبيين . ولم تعترف الأيديولوجية السائدة آنذاك للوحدة القومية على مستوى دولة السلاف الجنوبيين إلا بوجود ثلاثة شعوب هى : الصرب والكروات والسلوفينيون باعتبارهم شعباً سلافياً جنوبيا موحداً . وفى حالة البشانقة لم تعترف بحقيقة أنهم كمسلمين يمثلون جماعة ثقافية دينية مختلفة . ووفقًا لهذه العقيدة القومية الوحدوية التى كانت أساس النظام

المركزى للحكومة تم فى سرايفو إقامة الحزب الديمقراطى فى فبراير من عام ١٩١٩م . وفى الوقت نفسه عمدت جميع المنظمات السياسية المحلية البشناقية إلى التوحد فى حزب سياسى واحد للبشانقة ، وهكذا تأسست المنظمة اليوغسلافية للمسلمين المعروفة باسم "يمو" . ومن ناحية أخرى تم خلال عام ١٩١٩م وأوائل عام ١٩٢٠م تأسيس عدة أحزاب أخرى شكلت كلها الفسيفساء السياسى للبوسنة والهرسك .

وأعدت المنظمة اليوغسلافية للمسلمين أيضًا برنامجًا وأصدرت دستورًا لها وانتخبت مجلسًا مركزيا . وجعلت من مهامها الرئيسية تحقيق أمن الأشخاص والممتلكات وحماية المصالح الزراعية للملاك البشانقة والحفاظ على الإدارة الذاتية فى المجالين الثقافى والدينى .

إلا أن الملك ألكسندر كارادجوردجيفيتش قام فى ١٩٢٩/١/٦ بفرض الدكتاتورية ، فقد حل البرلمان وأوقف العمل بالدستور ، وفرض سلطاته غير العادية . ومن الأهداف الأساسية الدكتاتورية السادس من يناير محاولة العزل السياسى للبشانقة عن حزب المنظمة اليوغسلافية للمسلمين وربطهم بالنظام الجديد . وارتأى الملك أنه سيتم بأسهل ما يمكن التوصل إلى ذلك عن طريق إلغاء الإدارة الذاتية للبشانقة فى مجالى الدين والأوقاف واستقطاب شخصيات بشناقية مؤيدة للنظام وتعيينها لقيادة الجماعة الإسلامية .

وعلى صعيد آخر قام النظام الدكتاتورى بتغيير الهيكل الإدارى للبلاد تغييراً كاملاً ، فقد قسمها إلى أقاليم باعتبار أن الإقليم هو أكبر وحدة سياسية وإدارية للدولة . وهكذا تم تقسيم البوسنة والهرسك إلى أربعة أقاليم . واستهدف هذا التقسيم تحقيق غرضين أساسيين :

أولاً : إلغاء المناطق أو الأقاليم ذات الطابع التاريخى التقليدى وإزالة أية أسماء أو مسميات تذكّر بالتقاليد التاريخية أو القومية ، وبذلك يتم محو أية إشارات أو آثار لدولة البوسنة والهرسك وسيادتها الإقليمية .

ثانيًا : إقامة مثل هذه الوحدات الإدارية التى يكون للصرب فيها أغلبية حاسمة ، أو يتم تغليب العناصر المؤيدة ليوغسلافيا فيها .

وبالإضافة إلى ذلك غيَّر الملك اسم الدولة بحيث أصبح مملكة يوغسلافيا ، أو بعبارة أدق مملكة السلاف الجنوبيين . وهو اسم تكمن وراءه طموحات وأطماع لأن يصبح بالفعل ملكًا لكل السلاف الجنوبيين . وهكذا كشف الملك عن وجهه الحقيقى ، وتبين بما لا يدع مجالاً للشك أنه يقف وراء حلم إقامة صربيا الكبرى التى تجمع كل العناصر السلافية الجنوبية . وفرض الصرب سيطرتهم المطلقة على بقية القوميات فى هذه الدولة الجديدة . وحاول البشانقة فى ظل ظروف حل الأحزاب السياسية وحظر كل نشاط لها الدفاع عن مصالحهم السياسية ووضعهم . وسرعان ما ظهرت حركات مناهضة للصرب من الكروات والبشانقة المسلمين وغيرهم من القوميات .

وفى يناير عام ١٩٣٠م تم إلغاء حق البشانقة فى الإدارة الذاتية فى مجالات التعليم والدين والأوقاف . وبعد عدة أيام صدر قرار بشأن التنظيم المؤقت للجماعة الإسلامية ، ووفقًا له أصبح وزير العدل هو المسئول عن الإشراف على الشئون الدينية وعلى نشاط الأجهزة القائمة بذلك .

ومن المشاكل الأساسية التى ورثها النظام الدكتاتورى عن المملكة السابقة هى المسألة الزراعية وتطبيق الإصلاح الزراعى ، فعند قيام مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين فى عام ١٩١٨م كان ما يزيد على ٦٢٪ من الأراضى الخاصة فى يد البشانقة ، وهذا يعنى أن البوسنة والهرسك كانت هى الهدف الرئيسى لتنفيذ الإصلاح الزراعى ، إذ عن طريقه لن يتم فحسب تحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية ، بل فى المقام الأول تحقيق أهداف سياسية وقومية . فالمطمح الأخير هو تحطيم المزارعين البشانقة تحطيمًا اقتصاديا واجتماعيا تامًّا وتدمير البشانقة كلهم سياسيا وقوميا وإخضاعهم .

وبعد اغتيال الملك ألكسندر فى أكتوبر من عام ١٩٣٤م فى مارسيليا أصبح من الواضح أن مثل هذه الدولة غير المتجانسة لا يمكن أن تصمد طويلاً ما لم يحدث اتفاق

بين الصرب والكروات وذلك لأن خلافاتهم وصراعاتهم المستمرة هى السبب الرئيسى فى حدوث الأزمات وعدم الاستقرار السياسى . وللأسف فكما كان يحدث فى أغلب الأحوال حتى ذلك الحين فإنه لم يتم البحث عن حل بإيجاد تسوية ملائمة توفق بين المصالح المشتركة للصرب والكروات وإنما بإجراء تسوية على حساب الآخرين ، أى على حساب البوسنة والهرسك وسكانها من البشانقة المسلمين . وهكذا تم حل المشاكل الصربية والكرواتية وتنفيذ المحاولات الرامية إلى إنشاء دولة كبرى لكل منهم عن طريق تقسيم أراضى البوسنة والهرسك وتشتيت شعبها دون أن يتم أخذ رأيه فى أى شىء .

وغرقت البلاد فى صراعات عرقية لاقى فيها البشانقة الكثير من المعاناة ، ولكنهم لم يصمتوا فقد أعربوا عن رفضهم لما يحدث وبذلوا محاولات عديدة من أجل الحصول على الإدارة الذاتية ، ولكن هذه المحاولات كانت تصطدم دوماً بصخرة الرفض والعناد الصربى . واستمرت هذه الصراعات حتى غزو الألمان ليوغسلافيا فى أبريل من عام ١٩٤١م .

الحرب العالمية الثانية :

على الرغم من أن يوغسلافيا الملكية انتهجت لفترة طويلة سياسة مؤيدة لكل من فرنسا وإنجلترا فإن الأحوال والظروف الداخلية تطورت تدريجيا صوب الأساليب والنظم الفاشية للحكم ، وبالتالى فلم يكن من الممكن تجنب حدوث تقارب معين للقيادات الحاكمة من الساسة الصرب واليوغسلاف تجاه الدوائر الفاشية الحاكمة فى ألمانيا وإيطاليا . وظهر تردد وتذبذب فى سياسة يوغسلافيا بحيث إنها فى فترة وجيزة انضمت إلى الألمانيين والإيطاليين ، ثم فيما بعد إلى القوى المؤيدة لإنجلترا ، الأمر الذى عجّل بصدور قرار هتلر بالهجوم على يوغسلافيا .

وتم تنفيذ الغزو فى السادس من أبريل عام ١٩٤١م ، وعلى الفور هرب الملك اليوغسلافى وأعضاء حكومته والقيادات العليا إلى مدينة زفورنيك أولاً ثم إلى "باليه"

عند سرايفو . وأمام الهجمات العنيفة الحاسمة للقوات الألمانية وجد الجيش الملكى اليوغسلافى نفسه فى الأيام الأولى بعد إعلان الحرب فى حالة من الارتباك والاضطراب الكاملين ، وتم الإحساس بكل هذا فى البوسنة والهرسك باعتبارها المؤخرة الاستراتيجية للجيش . وسرعان ما انقطعت الاتصالات تمامًا بين أغلبية وحدات الجيش والقيادات العليا . وفى مثل هذا الموقف المتردى قررت الحكومة الانسحاب وترك البلاد وفوضت قائد الجيش لتوقيع اتفاق سواء للهدنة أو للاستسلام مع الألمان الذين كانوا بالفعل قد دخلوا بلغراد . ثم سافر الملك وأعضاء الحكومة إلى منطقة الشرق الأوسط فى ظل حماية بريطانية ومنها انتقلوا فيما بعد إلى لندن .

وخلال ما يقرب من اثنى عشرة يومًا تمكن الجيش الألمانى من احتلال مملكة يوغسلافيا احتلالاً كاملاً واختفت كدولة ، وتم اقتسام أراضيها بين كل من ألمانيا وإيطاليا والمجر وبلغاريا . وفيما يتعلق بوضع البوسنة والهرسك وكرواتيا والجبل الأسود والنظام الداخلى بها فقد تم تأجيل اتخاذ قرار بشأنها إلى ما بعد الاتفاق بين ألمانيا وإيطاليا ، وقبل أن يتسع الوقت أمام إيطاليا لكى تتخذ قرارًا بشأن وضع ونظام البوسنة والهرسك قام سلافكو كفاترنيك رئيس جماعة "الأوستاشا" الكرواتية فى زغرب وتحت الحماية الألمانية بإعلان قيام دولة كرواتيا المستقلة فى ١٠/٤/١٩٤١ . وفى الوقت نفسه تم بالأراضى المحتلة رسم خط يفصل مناطق المصالح بين كل من ألمانيا وإيطاليا . وهذا الخط كان يمضى بالذات عبر البوسنة والهرسك . وكان الجزء الجنوبى من الخط يقع فى إطار منطقة المصالح الإيطالية ، والجزء شمالى الخط فى منطقة المصالح الألمانية .

وتساهلت ألمانيا إلى حد كبير فى منطقة مصالحها مع الإدارة المدنية لدولة كرواتيا المستقلة . ولكن من أجل تأمين استغلال ثروات المناجم والغابات والثروات الأخرى فى البوسنة والهرسك ، فقد وضعت جنودًا لها من أجل حماية خطوط السكك الحديدية التى تخدم أغراضها . وعلى هذا النحو كانت ألمانيا تراقب وتؤمن أهم المصادر الطبيعية وأهم خطوط المواصلات فى البوسنة والهرسك .

وجرت إعادة تنظيم وتقسيم البوسنة والهرسك إلى أقاليم وأقسام إدارية جديدة بهدف التأكيد على الحق التاريخى لكرواتيا كدولة فى الاستحواذ على البوسنة والهرسك ، وهو حق لم يتم تسجيله فى أى مكان ولم يكن موجوداً على أرض الواقع . واستهدف ضم أجزاء كبيرة من البوسنة والهرسك إلى الأقاليم الكبرى التى كان مركزها فى كرواتيا – تحطيم تكامل ووحدة البوسنة والهرسك على جميع الأصعدة . ومن أجل هذا أصدرت سلطات جماعة "الأوستاشا" الكرواتية أمراً داخليا إلى كل صحفها وأجهزتها الحكومية بتجنب ذكر اسم البوسنة والهرسك علانية إلا بمعناه التاريخى فحسب . ولم يكن الهدف النهائى لمثل هذه السياسة خفيا ، فقد كانت كرواتيا تهدف ببساطة إلى اعتبار البشانقة ، أهل البوسنة والهرسك ، من الكروات وبذلك يتم طمس هويتهم التاريخية والقومية نهائيا .

وقد عارض وندد الجزء الأكبر من البشانقة – بمختلف الأساليب – بأعمال التعذيب والقتل الجماعى التى تعرض لها السكان اليهود والصرب فى البوسنة والهرسك بمعسكرات "الأوستاشا" . ومن الجلى أنه كانت هناك خطة تنفذها جماعة "الأوستاشا" الكرواتية تهدف إلى تطهير البوسنة والهرسك من كل الصرب بحيث لا يمكنهم أبداً أن يمثلوا أغلبية فى أى مكان على أرضها . وتم تبرير هذه التصرفات بأنها رد على أعمال التعذيب والقتل التى تعرض لها غير الصرب أثناء حكم يوغسلافيا الملكية . وبالطبع لم يكن هذا مبرراً مقنعًا فانتهجت جماعة "الأوستاشا" سياسة صريحة لإبادة الصرب ، وبالإضافة إلى ذلك سعت إلى نسب بعض هذه الجرائم إلى البشانقة ونجحت فى هذا المضمار ، الأمر الذى جعل الصرب يحملون البشانقة المسئولية ويوجهون انتقامهم إليهم . وبالفعل تعرض الكثير من البشانقة وعائلاتهم للجرائم نفسها من جانب جماعة "التشتنيك" الصربية .

والحقيقة أن البشانقة لم تكن لهم أية صلة بأعمال التعذيب وجرائم الإبادة ولم يقوموا بأية دعاية أيديولوجية لمعاداة الصرب ، بل ورفضوا تنفيذ السياسة الأوستاشية لإبادة الصرب . وهناك الكثير من البشانقة الذين حاولوا عن طريق

نفوذهم التدخل لإنقاذ الصرب واليهود والغجر من معسكرات الاعتقال والتعذيب . ولم يتورط فى مثل هذه الأعمال الإجرامية ضد الصرب إلا عدد ضئيل للغاية . وهكذا قام البشانقة فى بعض المدن بتنظيم مسيرات احتجاج علنية ضد هذه الأعمال الإجرامية وطالبوا بفرض النظام والهدوء والحفاظ على أمن كل الأشخاص بغض النظر عن دينه أو قوميته . وكانت هذه حالة فريدة من الاحتجاج الجماعى ضد الإبادة خلال الحرب العالمية الثانية . وتم جمع التوقيعات فى تسع من كبرى المدن بالبوسنة ضد طرد وتعذيب وإبادة الصرب واليهود والغجر .

لقد وقع البشانقة بين مطرقة جماعة "الأوستاشا" الكرواتية وسندان جماعة "التشتنيك" الصربية ، وأصبحوا فى محنة عسيرة لا مثيل له ، ولم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى السلاح للدفاع عن أنفسهم ، ولذا فقد جرى فى كثير من المناطق وعلى الأخص فى الأرياف تشكيل ميليشيات مسلحة من البشانقة بغرض الحماية بشكل خاص من هجمات "التشتنيك" . وطلبت هذه الميليشيات السلاح من الألمان الذين اشترطوا تحويلها إلى فرقة عسكرية ألمانية ، وتم إرسالها إلى فرنسا للتدريب ، إلا أنه نشب تمرد خلال التدريبات فعاقبهم الألمان وتمت إعادتهم إلى بلادهم واستغلوا بعضاً منهم فى محاربة جيش التحرير الشعبى الذى كان قد بدأ فى الظهور إلى أن تم خلال عام ١٩٤٤م حل هذه الفرقة وسلم أفرادها أنفسهم وأسلحتهم إلى البارتيزان من جيش التحرير الشعبى بل وانضموا إلى وحداته .

وقد اشتركت جماهير البشانقة فى حرب التحرير الشعبية ليوغسلافيا وتحملت الكثير من الأعباء الشاقة خصوصاً الضحايا البشرية الهائلة من العسكريين والمدنيين على حد سواء ، واستقبلت البوسنة والهرسك نهاية الحرب فى عام ١٩٤٥م وقد أصابها الدمار الشامل فى جميع مناحى الحياة .

وجدير بالذكر أن الجرائم التى ارتكبتها قوات الاحتلال النازية وأفراد جماعتى "الأوستاشا" الكرواتية ، و "التشتنيك " الصربية فى الفترة من عام ١٩٤١ وحتى عام ١٩٤٥م ، وكذلك أعمال الكفاح التى قام بها البشانقة ضدهم تسببت

فى هلاك آلاف البشانقة . ورغم تحفظنا الشديد على أية تقديرات رقمية تتعلق بالخسائر البشرية فى الحرب العالمية الثانية لسبب بسيط للغاية وهو أنه لم يتم القيام عمليا بمثل هذه التقديرات ، بل وكان من العسير القيام بها ، وكل ما يذكر من تقديرات رقمية يدخل - فى اعتقادى - فى مجال الاجتهادات . بيد أن المراجع اليوغسلافية التى كانت تتعمد تقليل خسائر البشانقة فى هذه الحرب أفادت بأن خسائرهم البشرية بلغت ١٠٣ آلاف شخص ، وبناء عليه يمكن استخلاص أن البشانقة هم أكثر الشعوب البلقانية تعرضًا للخسائر البشرية خلال تلك الحرب .

وبالإضافة إلى ذلك تحملت البوسنة والهرسك أيضًا النصيب الأكبر من الخراب المادى ، فقد خرجت البلاد من الحرب وقد فقدت تمامًا كل مبانيها السكنية والعامة ومدارسها وعدد كبير من آثارها . كما تدمر الاقتصاد تدميرًا شاملاً وتم نهب الجزء الأكبر من ثروة البلاد والشعب . وتم تخريب وتعطيل كل خطوط المواصلات خصوصًا خطوط السكك الحديدية ، بل وتم حرقها وتدميرها بأكملها . وحدث التخريب نفسه للثروات الطبيعية والزراعية والحيوانية والصناعية .

ولم يكن بغريب فى ظل النظام الشيوعى الذى سيطر عليه - فى حقيقة الأمر - الصرب أن يتم إسدال ستائر كثيفة من الصمت والنسيان على هذا المصير المأساوى للبشانقة . وطوال ما يقرب من خمسة وأربعين عامًا من حكم النظام الشيوعى كان من المحظور تمامًا التحدث عن موضوع الإبادة الجماعية التى تم تنفيذها ضد البشانقة فى الحرب العالمية الثانية . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أنانية عنصرية مفرطة وعلى استخفاف واستهانة بضحايا الآخرين .

يوغسلافيا الاشتراكية الاتحادية :

وقاد الحزب الشيوعى اليوغسلافى حرب التحرير الشعبية جامعًا تحت لوائه كل القوميات والشعوب الموجودة بهذه المنطقة وحاملاً الشعارات البراقة مثل طرد المحتل وفرض العدل والمساواة بين مختلف القوميات والشعوب ونشر الأخوة والوحدة .

وفى عام ١٩٤٥م تم تشكيل أول حكومة مستقلة بالبوسنة والهرسك ، وفى عام ١٩٤٦م تم إعلان دستورها باعتبارها إحدى جمهوريات يوغسلافيا الاشتراكية الاتحادية بنظامها السياسى والاقتصادى والاجتماعى الموحد آنذاك .

وبعد الحرب والحصول على الاستقلال تعرضت البوسنة والهرسك مع باقى الجمهوريات اليوغسلافية لتحولات اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية كبيرة ، إلا أن هذه التحولات لم تحقق لشعب البشانقة آماله وطموحاته وأهمها تحقيق هويته القومية والاعتراف به كشعب . ورغم المعاناة الأليمة التى تعرض لها والتضحيات الهائلة التى تحملها خلال الحرب العالمية الثانية وإبان حرب التحرير الشعبية ، ورغم تأييده للحزب الشيوعى بزعامة تيتو على أمل أن يحصل فيما بعد على كيانه وهويته القومية فإنه (أى الحزب الشيوعى) لم يف بوعوده ، وتحت الضغوط التعصبية من الصرب والكروات صادر جميع الممتلكات والأوقاف الخيرية للبشانقة ، وعمد تحت ستار تنفيذ الخطط والمشروعات القومية والإصلاحات الاقتصادية إلى توطين قوميات أخرى بالبوسنة والهرسك عامداً بذلك إلى إفقاد البشانقة أغلبيتهم ، كما عمل على تفتيت وجودهم وتشتيتهم وحرمانهم من حقوقهم . ونتيجة لذلك تعرض الكثير من البشانقة للاضطهاد والقمع والمطاردة وتم حظر أنشطتهم الدينية وتم منعهم من ممارسة شعائرهم الدينية . وتعرّض المثقفون منهم وعلماؤهم للاعتقال دون مبرر وللتنكيل والتعذيب والسجن .

ومنذ اللحظة الأولى تبين أن دولة يوغسلافيا الاتحادية تفتقد إلى أية مقومات للوحدة والتماسك ، فهى مؤلفة من شعوب وقوميات وجماعات عرقية صغيرة تتباين فى لغتها وحضارتها وعاداتها وتقاليدها وديانتها ، وذلك بالإضافة إلى الخلافات التاريخية والعرقية الكامنة .

وكان هذا التباين والتعدد اليوغسلافى يمثل فى حينه ميزة كبيرة وثروة هائلة . وكان النظام الشيوعى يتباهى آنذاك بهذا التنوع والتعدد للتراث الحضارى والثقافى والأدبى للقوميات اليوغسلافية . ومن المعلوم أن النظام الشيوعى بزعامة تيتو نجح

ظاهريا فحسب فى صهر كل هذه القوميات والديانات والثقافات المختلفة فى بوتقة الحزب الشيوعى وحافظ بذلك نسبيا على الوحدة اليوغسلافية ، وقد تم ذلك أحياناً باللين وفى أحيان كثيرة بالعنف والقبضة الحديدية .

وكان من الطبيعى بعد غياب القبضة الحديدية وبسبب التفاوت الاقتصادى بين الشعوب اليوغسلافية أن ينطلق مارد النعرات القومية الكامنة من قمقمه ، وسرعان ما تفجرت المشاعر العدائية بين الشعوب والقوميات وأتباع الديانات المختلفة والجماعات العرقية المتباينة مما عجّل بتفتت يوغسلافيا الاتحادية .

وكما هو معروف فقد أخذ النظام اليوغسلافى بالتعددية الحزبية وفاز حزب العمل الديمقراطى بأكبر عدد من مقاعد البرلمان بالبوسنة ، وبعد انفصال كل من سلوفينيا وكرواتيا ومقدونية أجرت البوسنة والهرسك استفتاءً شعبيا حرا على مرأى ومسمع من المجتمع الدولى فى مارس عام ١٩٩٢م وأعرب الشعب عن رغبته فى الاستقلال وتم انتخاب على عزت بيجوفيتش كأول رئيس للجمهورية . وفى أبريل من العام نفسه اعترفت بهذا الاستقلال العديد من الدول ، وفى مايو من العام نفسه وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قبول البوسنة والهرسك عضواً بالمنظمة الدولية . وقام صرب البوسنة بتحريض وتأييد كامل من صربيا بالهجوم على البشانقة وعلى سرايفو وغيرها من المدن . وبدأت الحرب المأساوية التى استمرت حتى عام ١٩٩٥م وتعرَّض فيها البشانقة لأبشع ألوان الإبادة الجماعية وتعرضت فيها البوسنة والهرسك لتدمير منظم وحشى لكل المبانى والمرافق والآثار الثقافية والإسلامية .

والحقيقة التى لابد أن نعيها جيداً أن البوسنة والهرسك – وسكانها من البشانقة – لم تكن فقط ضحية للطغيان والعدوان الصربى ، وإنما ضحية أيضاً لموقف دولى متخاذل عاجز عن تقديم المساعدة والعون لدولة حديثة على خريطة العالم .

* * *

الفصل الثالث

البوسنة والهرسك

- أصل كلمة البوسنة .
- أصل كلمة الهرسك .
- الموقع والمساحة .
- التغيرات فى أعداد السكان .
- مدلولات الأرقام .
- اللغـــة البوسنية .
- الأحزاب السياسية .
- الرئيس على عزت بيجوفيتش .

الفصل الثالث

البوسنة والهرسك

أصل كلمة البوسنة :

لم يتمكن علماء الفيلولوچيا وتأليف المعاجم وتاريخ البوسنة من التثبت من أصل وإيتمولوچيا اسم البوسنة .. ذلك الاسم الذى أصبح فى الوقت الحالى اسم علم واسمًا لموقع جغرافى ، وتم منه اشتقاق اسم الشعب الذى يعيش على هذه الأرض وهو البوسنيون أو البشانقة . كما لم يتمكن العلماء والباحثون من معرفة ما إذا كان قد تم اشتقاق كلمة البوسنة من أية كلمة معروفة فيما سبق أو من أصل من أصول الكلمات الإغريقية أو اللاتينية أو الإيليرية التى تركت بصماتها على كثير من المفردات اللغوية السلافية عامة والبوسنية خاصة ، وعلى الأخص فى مجال أسماء الأماكن . من هنا تعددت الاحتمالات والآراء بشأن نشأة ومعنى كلمة البوسنة إلا أن رأى العلم لم يتوحد عند شىء معين فى هذا الصدد .

وقد ربط الكتاب القدماء بين اسم البوسنة واسم القبيلة التراكية "بيسا" . ولكن فيما بعد أثبت الباحثون أن هذه القبيلة التراكية المذكورة لم تترك فى البوسنة أية آثار وبالتالى فلا يمكن الربط بينها وبين اسم البوسنة .

ويرى باحثون آخرون أن كلمة بوسنة يمكن أن تكون مشتقة من الكلمة الإيليرية "بوسى" التى تعنى المكان الذى يتم فيه تنقية وتجفيف الملح . ووفقًا لهذا الرأى فإن كلمة بوسنة تعنى "بلد الملح" ، إلا أن هذه النظرية لا تقوم على أسس راسخة وذلك لأن الملاحات تتركز فى منطقة "أوسورا" .

ووفقًا لبعض الباحثين فإنه يمكن ربط كلمة البوسنة بالكلمة اللاتينية "بوسينا" التي تعني الحد . ويبدو أن الكلمة بهذا الشكل كانت محفوظة في الكلام الدارج للفرنجة الذين كانوا خلال القرن الثامن يعيشون في البوسنة على الحدود مع الدولة البيزنطية . ووفقًا لهذا الرأي فإن البوسنيين هم سكان الحدود .

وهناك رأي آخر ذكرته المراجع القديمة بأن السلاف الذين نزحوا إلى مناطق البوسنة جلبوا معهم هذا الاسم كما فعلت بعض القبائل السلافية الأخرى القديمة في نقلها لبعض الأسماء معها ، خصوصًا الكروات والصرب . واستنادًا لهذا الرأي ، فإنه كانت تعيش في الوطن السلافي القديم في أحد الأماكن وراء جبال الكاربات قبيلة باسم "بوسنة" أو قائد قبيلة بالاسم نفسه . وتأييدًا لذلك هناك حقيقة تفيد بأنه يتم في أغلب الأحيان ذكر البوسنة في مصادر القرون الوسطى كاسم مذكر أو مؤنث على حد سواء أو كاسم لموقع جغرافي في دالماشيا أو كرواتيا أو هنغاريا أو سلوفاكيا .

ويتحدث القيصر البيزنطي قنسطنطين بورفيروجينت في منتصف القرن العاشر عن البوسنة ، فهو في كتابه الذي يحمل عنوان : " De administrando imperio" يسمي بهذا الاسم البلد الواقعة حول المنبع والمجرى العلوي والأوسط للنهر الذي يحمل أيضًا الاسم نفسه .

وفي كتابه الذي يحمل عنوان : "تاريخ القس دوكليانين" وأصدره في منتصف القرن الثاني عشر ذكر القس دوكليانين أنه قبيل أواخر القرن العاشر تشكلت على أرض البوسنة دولة تقف على قدم المساواة مع كل من دولة راشكا وكرواتيا ، وأن هذه الدولة البوسنية نشأت آنذاك نتيجة للوحدة التدريجية بين القبائل والدوقيات من أجل الدفاع عن نفسها في مواجهة مختلف الغزوات والهجمات الخارجية ، ويصف الكتاب البوسنة بأنها بلد كبير نسبيا وبه نظام للسلطات ويترأسه حاكم . ويحتوي كتاب "تاريخ دوكليانين" على مجموعة متصلة من المعلومات التاريخية المرتبطة بأحداث تاريخية معروفة وقعت في فترة زمنية من منتصف القرن العاشر وحتى نهاية القرن الحادي عشر .

وكل هذا يؤكد أن البوسنة احتلت مكانة قيادية بفضل موقعها المتوسط فى هذه المنطقة وبفضل مميزاتها الجغرافية . ومثلت البوسنة بموقعها الجبلى مركزًا طبيعيًا للدولة التى أرادت بوعى وعن عمد تجنب التأثيرات السياسية والثقافية ، سواء جاءت من الشرق أو من الغرب . وأرادت بهذه الطريقة أن تبنى وتدعم استقلالها وذاتيتها ، وبالتدريج تم نقل اسم البوسنة لكى يكون اسمًا للدولة الموحدة .

ومن المعتقد أن منطقة "سكلافينيا" التى يتم ذكرها فى كتاب "تأريخ الفرنجة" وفى المصادر التاريخية الخاصة بالعهد الإقطاعى المبكر - هى فى الحقيقة البوسنة . ويذكر الكتاب الملك راتيمير الذى حكم منطقة سكلافينيا ، أى البوسنة ، فى عام ١٨٣٨م .

ويرجح كثير من المؤرخين والباحثين أن كلمة بوسنة مشتقة من صيغة الكلمة الإيليرية "بوسنيوس" أو أصل الكلمة "بوسى" بمعنى الماء الجارى ، وأنه تم إطلاقها على النهر أولاً ، ثم أطلقت على البلد فيما بعد ، ذلك لأن النهر هو الذى وهب الحياة لهذه المنطقة ، فهو نهر يبلغ طوله حوالى ٢٧٣ كيلومترًا وله روافد وفروع متعددة يبلغ طولها ١٠٤٨ كيلومترًا .

وبعد كل هذه الآراء والإيضاحات بشأن اسم البوسنة فما يعنينا أكثر هو أن التاريخ قد شهد بوجود البوسنة كاسم لنهر وبلد تشكلت حول هذا النهر ، وكدولة بالاسم نفسه منذ النصف الأول من القرن العاشر ، بل وتأكد أن هذه الدولة كانت موجودة قبل هذا التاريخ .

كما يعنينا أيضًا أنه منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا منحت الأرض والدولة الاسم للشعب الذى عاش عليها وفيها وبدأ يسمى بالبوسنيين ، أو البشانقة . ومنذ البداية وهذا الشعب يتبع هوية واحدة ويدين بديانات مختلفة ، وجمع بين أفراده المصير الواحد والمكان المشترك والكفاح من أجل الحياة والبقاء .

أصل كلمة الهرسك :

أما الكلمة الثانية من اسم البوسنة والهرسك وهى كلمة الهرسك فقد جاءت - كما أوضحنا من قبل - مؤخراً نسبة إلى الكلمة الألمانية هرتزوج التى تعنى الحاكم . وقد حكم بعض المناطق البوسنية الهرتزوج ستيبان فوكتشيتش كوساتشا (فى حوالى عام ١٤٤٨م) ، ولجأ إلى الأراضى الواقعة تحت سلطانه بعض البوسنيين ، البشانقة، هرباً من الاضطهاد الكاثوليكى . ومنذ ذلك الحين وهذه المنطقة تسمى بالهرسك .

الموقع والمساحة :

تعد البوسنة دولة أوروبية من حيث موقعها الجغرافى ، فهى تقع بشكل مباشر فى جنوب شرق القارة الأوروبية بشبه جزيرة البلقان . وتمتد على المساحة الواقعة ما بين ٢٦َ ٤٢ْ و ١٥َ ٤٥ْ على خط العرض الشمالى ، وما بين ٤٤َ ١٥ْ و ٤١َ ١٩ْ على خط الطول الشرقى .

ومن ناحية أخرى تقع البوسنة فى شمال غرب شبه جزيرة البلقان فى المكان الذى تلتقى فيه مجالات البحر الأبيض المتوسط وشرق أوروبا وشمال غرب سهول بانونيا . كما تتلاقى فى البوسنة مختلف التأثيرات الجغرافية والمناخية والتاريخية والثقافية ، الأمر الذى يسهم فى تنوع سماتها ومميزاتها الجغرافية ، وكذلك تعدد خصائصها وجوانب تميزها التاريخية والثقافية .

ويحد البوسنة والهرسك من الشمال والغرب جمهورية كرواتيا ، ومن الشرق والجنوب جمهورية صربيا والجبل الأسود .

ومن الطريف أن البوسنة والهرسك لها حدود طبيعية منذ عام ١٨٧٨م (عندما قامت النمسا الهنغارية بضمها إلى أراضيها) . وهذه الحدود تمتد من الجنوب والشرق مع مسارات أنهار تريبشنيتسا ، وليما ، وزراڤا ، ودرينا ، ومع امتداد جبال

فولوياك وماجليتش وتارا . وتمضى حدودها شمالاً وغربياً مع مسارات أنهار ساڤا وأونا ثم جبل دينار .

وحدود البوسنة والهرسك ليست مفتوحة نسبيا إلا من الناحية الجنوبية الغربية حيث تخرج جزئيا إلى شاطئ البحر الأدرياتيكى وذلك عند منطقة نعوم . ويبلغ هذا الساحل البوسنى حوالى ٢٤ كيلومتراً وبه يتم تصنيف البوسنة على أنها من دول البحر الأبيض المتوسط . وكان للبوسنة مخرج آخر على البحر الأدرياتيكى عند سوتورينا وبيراست ، إلا أنه تم الاستيلاء على هذه المنطقة بمعرفة الجبل الأسود فى عهد مملكة يوغسلافيا .

وتقع البوسنة على حد فاصل بين منطقتين جغرافيتين وسياسيتين طبيعيتين كبيرتين وهما منطقة البحر الأبيض المتوسط ومنطقة بانونيا . ولكل منطقة منهما فى الوقت نفسه تاريخ عريق وثقافة كبيرة ، كما أن البوسنة تعد منطقة عبور والتقاء وتشابك للتأثيرات الثقافية والحضارية من هاتين المنطقتين المهمتين . وكانت البوسنة على الدوام ، بالفعل ، مجالاً لالتقاء واتصال الناس وعبورهم وتبادل التأثيرات . ومن جميع النواحى تمثل البوسنة بخصائصها الجغرافية وبمناخها المتنوع وتباين أراضيها ونباتاتها صورة مصغرة ومكثفة للبيئة الأوروبية جغرافيا وتاريخيا وثقافيا وهذا يوضح تميزها الكبير وأهميتها بالنسبة للعالم المعاصر كما كانت الحال فى العهود القديمة للتاريخ .

وتبلغ مساحة البوسنة والهرسك ١٢٩ و ٥١ كيلومتراً مربعًا (وهى نفس مساحة سويسرا تقريباً) .

ووفقًا لنتائج الاستفتاء الذى تم إجراؤه فقد استقلت الأراضى البوسنية فى ١٩٩٢/٣/١ حسب رغبة كل مواطنيها من البوسنيين .. البشانقة وأصبحت بالتالى منذ السادس من أبريل من العام نفسه دولة تعترف بها كل دول العالم كدولة مستقلة وذات سيادة إقليمية فى حدودها التاريخية المعترف بها ، وحصلت على عضوية الأمم المتحدة . وتعتبر الأراضى البوسنية نتيجة طبيعية للتاريخ وللتطور الإقليمى والسياسى

للبوسنة كدولة تشكلت وقامت منذ بداية القرن الثامن الميلادى وحتى اليوم . وطوال كل هذه الحقبة زادت أراضى دولة البوسنة وأصبحت منذ أواخر القرن الرابع عشر واحدة من أكبر الدول السلافية فى منطقة البلقان .

وفى عهد أول ملك للبوسنة تفرتكو الأول كوترومانيتش (١٣٥٣ - ١٣٩١م) ، أى فى وقت نهضتها الكاملة ، شملت البوسنة المناطق من نهرى إبرو وموراڤا فى الشرق حتى البحر الأدرياتيكى فى الغرب ، ومن نهرى ساڤا وكركا فى الشمال حتى نهرى ليم وتريبيشنيتسا فى الجنوب . وكان البحر الأدرياتيكى يحد البوسنة من الجنوب الغربى عند مدينتى زادار وشيبنيك على الساحل الكرواتى وحتى ميناء كوتور فى بوكا كوتورسكا . وفى ذلك الحين كانت دولة البوسنة هى أكبر دولة بلقانية من ناحية مساحة الأراضى وواحدة من أكبر الدول التى أقامها السلاف الجنوبيون على الإطلاق.

وفيما بعد انخفضت مساحة الأراضى البوسنية ، وفى النهاية استقرت البوسنة فى حدودها الحالية خلال الأحداث العاصفة التى جرت من النصف الأول للقرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السابع عشر . وفى ختام الحرب الكبرى أو حرب فيينا بين الإمبراطورية النمساوية الهنغارية - أو بعبارة أدق - بين التحالف الكاثوليكى المقدس وبين الإمبراطورية العثمانية ، تم حينذاك عند عقد اتفاقية السلام فى سريمسكى كارلوفتسى فى عام ١٦٩٩م ترسيم حدود البوسنة والاعتراف بها دوليا ، وهى تطابق حدودها الحالية .

ويمكن القول فى هذا الصدد إن حدود البوسنة هى أكثر الحدود ذات الاعتراف الدولى استمرارية واستقرارًا لدولة من دول شبه جزيرة البلقان ، خصوصًا لدولة من دول السلاف فى هذه المنطقة . ويتجلى الاعتراف الدولى بحدود البوسنة فى حقيقة تنطوى على أهمية تاريخية كبيرة للغاية ، وعلى شأن بالغ فى مجال الشرعية الدولية . وتتمثل هذه الحقيقة فى أن أكبر القوى الأوروبية وقتذاك (ألمانيا وإنجلترا وفرنسا) قد شهدت على اتفاق السلام فى سريمسكى كارلوفتسى وعلى عملية ترسيم الحدود بين ولاية البوسنة آنذاك وبين النمسا الهنغارية . وبهذه الاتفاقية تم إعلان الاعتراف الدولى

بحدود البوسنة ، وكذلك التأكيد على الاستمرارية الفريدة لوجود البوسنة كدولة ، فحدود ولاية البوسنة كانت مطابقة لحدود دولة البوسنة المستقلة ، وفي هذا المضمار لا بد من التنويه إلى أن الإدارة العثمانية كانت تراعي على الدوام أن تظل ولاية البوسنة في الحدود التي كانت عليها دولة البوسنة السابقة في القرون الوسطى .

وهذه الحدود نفسها ، التي تم تثبيتها وتأكيدها في عام ١٦٩٩م تم التصديق عليها دوليًا مرة أخرى ، وذلك خلال مؤتمر برلين للقوى الأوروبية في عام ١٨٧٨م . وفي ذلك الحين تم إصدار قرار بقيام النمسا الهنغارية باحتلال أراضي البوسنة مؤقتًا من أجل إعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية وحماية حقوق المسيحيين . وتماثل مساحة الأراضي البوسنية التي منحها مؤتمر برلين للنمسا الهنغارية لإدارتها مؤقتًا مساحة تلك الأراضي التي تقوم عليها جمهورية البوسنة والهرسك الحالية ، وهي تماثل أيضًا حجم أراضي ولاية البوسنة في ذلك الحين . وهكذا ظلت البوسنة محتفظة بخصوصيتها واستمراريتها الإقليمية طوال فترة الاحتلال النمساوي الهنغاري لها .

كما استمر هذا الوضع عند قيام الوحدة بين دول السلاف الجنوبيين في عام ١٩١٨م . ففي ذلك الحين أصدر مجلس الشعب بالبوسنة والهرسك قرارًا بشأن استقلال البوسنة والهرسك وانفصالها عن الإمبراطورية النمساوية الهنغارية ، وقرارًا بانضمام البوسنة إلى مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين بحيث تظل وحدة إدارية إقليمية ذات حكم ذاتي . ومن الطريف أن هذا القرار لم يلق معارضة من الصرب الموجودين في المجلس ، إلا أنه في عام ١٩٢٤م تعرضت البوسنة بالفعل للتقسيم القسري إلى أربع مناطق إلى أن أعيد لها في عام ١٩٤٣م استقلالها بعد حرب التحرير الشعبية في إطار يوغسلافيا الاتحادية وتم التصديق على حدودها في دستور عام ١٩٤٦م وفي الدساتير التالية .

وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أراضي وحدود البوسنة والهرسك كانت على الدوام – وظلت – من أكثر الحدود استقرارًا ودوامًا في العالم بوجه عام ، وفي منطقة البلقان بشكل خاص ، وهي حدود طبيعية وتاريخية وجغرافية سياسية . وهذه الحقائق الجلية المذكورة تدحض أية ادعاءات مغرضة أخرى في هذا الشأن .

التغيرات فى أعداد السكان :

تكررت التغيرات الهائلة التى حدثت فى التركيبة العددية للبشانقة سكان البوسنة والهرسك . ومنذ عهد هجرة السلاف إلى أراضى البوسنة والهرسك استقر السلاف فيها باعتبارهم العنصر المسيطر ، ولكن فيما بعد نشأت تغيرات نتيجة للهجرات ولأسباب أخرى . ونجم عن هذا انخفاض عدد السكان وتغير تركيبته . وقد بحثت الدراسات الإحصائية والتاريخية للسكان هذه التغيرات ودوافعها وأثبتت أن الأسباب الرئيسية للتغيرات فى التركيبة العددية للبشانقة تتمثل فى الهجرات ثم الحروب والأوبئة الكبرى . وأصابت هذه الأسباب الثلاثة المذكورة عدد البشانقة وتركيبتهم القومية والدينية بإصابات غير متكافئة ، ومن أجل هذا يتحتم أن نعرض بإيجاز للآثار الأساسية الناجمة عن هذه الأسباب الثلاثة فيما يتعلق بالتغيرات فى عدد البشانقة وتركيبتهم القومية والدينية .

لقد كانت الحروب هى السبب الأول فى التغيرات الكبيرة فى أعداد البشانقة وتركيبتهم القومية ، وتكرر اشتعال الحروب فى البوسنة بسبب موقعها ، وكان حتمًا أن يشترك فيها البشانقة . وفى عهد الدولة البوسنية الأولى اضطر حكام البوسنة لخوض هذه الحروب من أجل الدفاع والحفاظ على استقلال دولتهم وللرد على هجمات حكام الدول المجاورة مثل راشكا (صربيا) وزيتا وكرواتيا ، ثم هنغاريا . ونجم عن هذه الحروب الاستيلاء على أجزاء من الأراضى البوسنية .

وهكذا فإن بعض الحكام مثل بودين ملك زيتا ، وميلوتين ملك راشكا أو صربيا وبافله شوبيتش حاكم كرواتيا قاموا بغزوات وهجمات فاشلة على الأراضى البوسنية . وقامت هنغاريا بعدة غزوات صليبية ضد البشانقة فى البوسنة . وتم هذا فى الأغلب بناء على طلب رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، أى بابا روما . وفيما بعد جرت عدة حروب ضد العثمانيين الذين ظهروا فى أوائل القرن الخامس عشر على حدود البوسنة وفى النهاية استولوا عليها فى عام ١٤٦٣م . وبعد ذلك نشبت الحروب التى خاضها العثمانيون على أرض البوسنة أو بدأت من هذه الأراضى سعيًا منهم للتوغل صوب

العالم الغربى وفى الاتجاه الشمالى الشرقى ، وهذا يعنى صوب الدول الأوروبية آنذاك : النمسا وروسيا وهنغاريا والبندقية .

ومن الحتم أن يضاف إلى هذا تلك الحروب العديدة التى خاضها العثمانيون على حدود الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف وفى داخل الأراضى التابعة لها واشترك فيها البشانقة كجنود تابعين لسلطان الإمبراطورية العثمانية . وفى النهاية هناك تلك الحروب الحديثة مثل الحرب التى نشبت ضد احتلال النمسا الهنغارية للبوسنة فى عام ١٨٧٨م ، ومثل الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وأخيراً الحرب ضد البشانقة بدءاً من عام ٩٢ ، وهى تعد أفظع الحروب التى جرت على الإطلاق ضد البشانقة وعلى أرض البوسنة .

ومن المؤكد أن هذه الحروب أصابت البشانقة .. كل سكان البوسنة والهرسك ، ولكن يمكن التأكيد بأن البشانقة المسلمين عانوا فيها أشد معاناة . والسبب البسيط لهذا الاستنتاج نجده فى حقيقة مفادها أنه خلال حكم العثمانيين للبوسنة وفى وقت نشوب الحروب الكبيرة كانوا هم الوحيدين المطالبين والملزمين بالاشتراك فيها ، ولم يكن هناك إلزام بالاشتراك فى هذه الحروب على باقى البشانقة ، أى على المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك ، وكذلك على اليهود لأن كلا منهم يعتبر من أهل الكتاب وفى مقابل هذه الميزة كانوا يدفعون الجزية .

وفى الحروب الحديثة أيضاً كان البشانقة – نسبيا – هم أكثر من قدموا الضحايا وذلك لأن جميع أتباع القوميات الأخرى كانوا يقاتلون ضدهم فى كل مكان ، بينما لم يقاتل البشانقة بمفردهم فى أى مكان أتباع القوميات الأخرى . والمسئول عن ذلك أساساً هو الدعاية المستمرة المعادية للإسلام وللأتراك العثمانيين من جانب الأوروبيين، بالإضافة إلى الروح العدوانية والمعاداة للإسلام من جانب الحركات القومية فى منطقة البلقان . ومع ذلك كان البشانقة المسلمون هم وحدهم الذين قاوموا مقاومة جماعية الاحتلال النمساوى الهنغارى ، ثم كان البشانقة أيضاً هم الضحايا الأكثر عدداً فى الحرب العالمية الثانية بعد اليهود وذلك وفقاً لما أثبتته التحاليل الإحصائية السكانية

لخسائر الحرب لدى مختلف الشعوب اليوغسلافية سابقًا . وفى الحرب الأخيرة ، أى خلال العدوان على البوسنة من جانب الصرب والكروات ، معروف للجميع أن العدد الأكبر من الضحايا راح من البشانقة المسلمين ، الذين كانوا هم الهدف الرئيسى للعدوان والإبادة الجماعية . ومن الطريف أن البشانقة كانوا هم الوحيدين الذين لم يخوضوا أبدًا حربًا عدوانية ضد أى شعب من الشعوب الأخرى على أرض البوسنة أو على أراضى الدول المجاورة إذا ما تم استثناء الحروب التى جرت فى عهد العثمانيين .

والسبب الآخر المهم لتغير التركيبة العددية للبشانقة ، سكان البوسنة ، هو تعرضهم المتكرر للأوبئة والأمراض الخبيثة مثل : الطاعون والكوليرا ، اللذين ظهرا بعد غزو المغول للمنطقة . أما الزهرى فقد نقله إلى البوسنة الجنود الفرنسيون والإسبان والبرتغاليون المتواجدون فى جيش يوجين سافويسكى . وكان البشانقة المسلمون هم أكثر من تعرض لكل هذه الأوبئة وذلك لأنهم كانوا يمثلون أغلبية سكان البوسنة طوال فترة الحكم العثمانى التى امتدت لما يزيد على أربعمائة وخمسة عشر عامًا .

يضاف إلى ذلك أن البشانقة كانوا يعيشون فى المدن حيث ترتفع الكثافة السكانية وبالتالى يتزايد انتشار هذه الأوبئة الخبيثة ويتضخم عدد المصابين . وهكذا أثرت تأثيرًا سلبيا للغاية على التركيبة العددية للبشانقة المسلمين موجات وباء الطاعون التى انتشرت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وفى أوائل القرن التاسع عشر . وكما سجل المؤرخون فقد سيطرت آنذاك حالة من الفقر التام على مناطق بأكملها . وكانت هذه الأوبئة بوجه عام هى السبب الرئيسى فى انتقال وترحال السكان وبالتالى تغير التركيبة العددية لسكان البوسنة .

والهجرات هى السبب الثالث للتغيرات فى التركيبة العددية للبشانقة سكان البوسنة . وفى هذا الإطار نجد نوعين من الهجرات بالنسبة لمنطقة البوسنة والهرسك . ويتمثل النوع الأول من الهجرة فى هجرة الأفراد إلى البوسنة ، أما النوع الثانى فهو

نزوح السكان منها . ومما لا شك فيه أن النوعين من الهجرة قد أديا إلى تغيرات فى التركيبة العددية للبشانقة .

وفيما يتعلق بالهجرات فإن العدد الأكبر من المهاجرين إلى البوسنة كان من "الفلاه" ، وهو شعب من أصل رومانى استوطن المناطق الجبلية من البلقان واشتهر بهجراته المتكررة إلى المنطقة كلها من مناطق جبال البلقان ورودوب وحتى جبال كاريات وتاتر . وقد بدأوا يهاجرون هجرة جماعية إلى أراضى البوسنة منذ عهد الدولة البوسنية الأولى ، وتحديداً منذ منتصف القرن الرابع عشر . وكانوا يهاجرون إلى جميع أنحاء المنطقة تقريباً إلا أن نزوحهم إلى البوسنة كان أشد كثافة وعدداً ، ومضى هذا بالتوازى مع الغزوات العثمانية على أراضى البوسنة وكرواتيا . واصطحبهم الأتراك العثمانيون معهم عند قدومهم إلى البوسنة ، ووطنوهم فى الأراضى المهجورة والمزارع العالية ، وعاش الفلاه فيها حياتهم التقليدية برعى وتربية الأغنام فى المراعى المحيطة . وكان العثمانيون يستخدمونهم كمصدر واحتياطى من أجل شراء المواد التموينية فى الغزوات وكقوات مساعدة لتنفيذ مختلف المهام العسكرية وما شابه ذلك ، وفى مقابل هذه الخدمات كان أمراؤهم يحصلون على مميزات ، بل وعلى إقطاعيات صغيرة ، بينما البعض منهم وصل إلى أعلى المناصب فى الإدارة العثمانية بعد اعتناقهم الإسلام .

وقد هاجر أيضًا إلى البوسنة أولئك البشانقة الذين عادوا إلى بلادهم بعد أن تم طردهم من تلك البلاد التى استولى عليها العثمانيون ، والتى كانوا قد استوطنوها أو عاشوا فيها على الدوام ، ولكنهم باعتناقهم الإسلام وضعوا أنفسهم فى وضع تمت فيه إدانتهم وفقًا لمبدأ "صاحب الأرض هو صاحب الدين" .

ومن هؤلاء المهاجرين أيضًا لا بد وأن نحسب كذلك أولئك البشانقة الكاثوليك أتباع القومية الكرواتية لاحقًا ، الذين هاجروا إلى البوسنة خاصة بعد احتلال النمسا الهنغارية لها . وقد جلبت النمسا الهنغارية عددًا كبيرًا من أمثال هؤلاء الكاثوليك لكى يعملوا فى خدمة وتثبيت سلطتها الجديدة ، ولكنها فيما بعد وطنت أيضًا ممثلى

الشعوب الأخرى من كل الأراضى التابعة للنمسا الهنغارية . وأصبح العدد الأكبر من هؤلاء المهاجرين ، تلقائيا ، من أتباع القومية الكرواتية على أساس تبعيتهم للديانة الكاثوليكية .

وكانت الهجرة من البوسنة هى النقطة الثانية التى أثرت تأثيرًا شديدًا على تغير التركيبة العددية للبشانقة سكان البوسنة . وإذا نظرنا من الناحية الزمنية فقد بدأ يهاجر أولاً من البوسنة السكان الكاثوليك ، هذا إذا لم نأخذ فى اعتبارنا أتباع الكنيسة البوسنية الذين تم طردهم من البوسنة خلال القرن الخامس عشر وهاجروا منها بسبب الغزو العثمانى وفيما بعد بسبب الحروب التى خاضتها النمسا الهنغارية على أرض البوسنة ضد الأتراك العثمانيين ، أو هربوا خوفًا من انتقام العثمانيين بسبب تعاونهم مع المغيرين من النمساويين .

وقد تم تسجيل مثل هذه الهجرات عند هجوم القائد النمساوى يوچين سافويسكى على البوسنة فى أواخر القرن الثانى عشر ، ثم عند غزو البوسنة فى عام ١٤٦٣م وما بعده ، وأخيرًا فى عام ١٧٣٧م ، بعد الحرب التى جرت أسفل مدينة بانيالوكا عندما توغل الجيش النمساوى إلى الجزء الغربى من البوسنة .

أما هجرة البشانقة المسلمين من البوسنة فقد جرت بشكل مغاير واختلفت أسبابها اختلافًا تامًا ، فقد هاجروا من البوسنة واستوطنوا تلك المناطق التى تقع تحت سيطرة العثمانيين ، سواء أكانت فى ولاية البوسنة الكبيرة أم فى غيرها ، كما هاجر البشانقة المسلمون من البوسنة بسبب الاحتلال النمساوى الهنغارى لها فى أواخر القرن التاسع عشر . ووفقًا للتقاليد الإسلامية المستندة إلى فتوى صادرة حينذاك فلا يمكن لأى مسلم أى يواصل العيش فى دولة لم تعد إسلامية ، إذ لم يعد المسلمون فيها هم العنصر الغالب ، وذلك ما دام من الممكن الهجرة إلى أى بلد إسلامى . وتبعًا لهذه الفتوى فقد هاجر كثير من البشانقة المسلمين إلى تركيا منذ عام ١٨٧٨م وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

وكان هناك خمس دفعات من مثل هذه الهجرات : أولاً فى عام ١٨٧٨م ، ثم فى عام ١٨٨٢م ، وبعدئذ فى عام ١٩٠٠م ، ثم فى عام ١٩٠٨م ، وأخيراً بعد الحرب العالمية الأولى . ويذكر أنه هاجر آنذاك حوالى ٢٥٠ ألفًا من البشانقة المسلمين ، أى ٣٠٪ من إجمالى البشانقة المسلمين . وفى عهد الحكم الشيوعى ليوغسلافيا كانت الضغوط السياسية والاقتصادية والدينية الكبيرة على المسلمين هى الدافع الأساسى وراء هجرتهم إلى تركيا .

وجدير بالذكر أن السكان الصرب كانوا نادراً ما يهاجرون من البوسنة . وهؤلاء السكان ، أو البشانقة الأرثوذكس الذين سيعتبرون أنفسهم فى العصر الحديث صرباً فحسب ، كانوا لا يهاجرون إلا وفقًا لخطط حيازة الأراضى والاستحواذ عليها .. تلك الأراضى التى استولى عليها الصرب فى العصر الحديث . أى أنهم كانوا مستعمرين وكانت الدولة بقيادة الصرب توطنهم فى المناطق التى تريد الحصول فيها على أغلبية صربية . وهكذا فإنه كان يتم بشكل منظم توطين السكان البوسنيين الأرثوذكس ، أى الصرب ، فى مناطق سلاڤونيا ، وكوسوڤو ، وڤويڤودينا . وقد تم تهجير السكان الأرثوذكس الموجودين بالمناطق المتخلفة من البوسنة ومن الأقاليم الأخرى من يوغسلافيا سابقًا وتوطينهم فى الأراضى التى تم الاستيلاء عليها مؤخراً ولم يكن للصرب فيها حتى ذلك الحين أغلبية أو لم يستوطنوا فيها من قبل على الإطلاق . وهكذا أصبح صرب البوسنة سلاحًا لتنفيذ سياسة توسعية معينة ترمى إلى تحقيق حلم صربيا الكبرى . وحدثت هذه الهجرات المخططة فى عامى ١٩١٨ و ١٩٤٦م ومنذ عام ١٩٨٩م .

ولابد أن نضيف إلى هذا الهجرة الناجمة عن أسباب اقتصادية ، وهى هجرة أضرت بالتركيبة العددية للسكان البشانقة الكاثوليك والبشانقة نتيجة لكونهم يعيشون بشكل مكثف فى المناطق الفقيرة غير المنتجة وبالتالى فقد كانوا تابعين للآخرين ولم يكن بإمكانهم بسهولة الحصول على عمل كما هو الحال بالنسبة للسكان الصرب . وتعد هذه الهجرة مهمة بشكل خاص بسبب حجمها وعواقبها ، وقد بدأت منذ

عام ١٩٦٠م واستمرت حتى الهجرة الجماعية فى التسعينيات نتيجة للعدوان على السكان وطردهم المتعمد ، أى نتيجة للإبادة الجماعية التى أطلق عليها ، تلطيفًا لحدة التعبير ، اسم التطهير العرقى للسكان .

ونجم عن الهجرة فى الفترة من عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٩٢م انخفاض فى عدد السكان قدره ٣٠٠ ألف شخص وربما أكثر . وأدت الهجرة المؤسفة الأخيرة الناجمة عن العدوان والإبادة الجماعية إلى نزوح ما يزيد عن مليون ونصف شخص من البوسنة وتفرقهم فى جميع أنحاء العالم .

ولم يتم بعد تحديد التقديرات النهائية للخسائر الديموغرافية فى سكان البوسنة والهرسك . أما ما تمت دراسته دراسة علمية فهى الخسائر الديموغرافية الناجمة عن الحرب العالمية الثانية وما ارتبط بها من حروب جرت بين الشعوب اليوغسلافية . وأثبتت الأبحاث الصادرة فى هذا الشأن أن أكبر الخسائر السكانية فى الحرب العالمية الثانية فى يوغسلافيا السابقة وقعت لليهود ، إذ بلغت ٨٠٪ من إجمالى عدد السكان فى عام ١٩٤٦م ، وتليهم الخسارة فى عدد البشانقة المسلمين التى بلغت ١٢٪ من إجمالى عدد السكان ، بينما بلغت الخسائر لدى الصرب ٨٪ ولدى الكروات ٤٪ ، وإذا أخذنا فى الاعتبار – وفقًا للإحصائيات الصادرة آنذاك – التساوى التقريبى لنسبة البشانقة المسلمين والصرب الأرثوذكس فى إجمالى عدد سكان البوسنة فيمكن أن نعتبر أن البشانقة المسلمين هم ذلك الجزء من سكان البوسنة الذى تعرض لضحايا أكثر خلال الحرب العالمية الثانية .

ومن المتميز بالنسبة للبشانقة المسلمين أنهم كانوا على الدوام هدفًا للاضطهاد من جانب جميع الأطراف المتحاربة ، فقد تعرضوا للطرد والقتل على يد المحتل الألمانى وجماعات "الأوستاشا" الكرواتية و "التشتنيك" الصربية ، بل وأيضًا على يد "البارتيزان" .. قوات التحرير الشعبى التى انضم إليها البشانقة المسلمون فيما بعد بأعداد كبيرة . وقد قامت جماعات "التشتنيك" الصربية – كما أثبتت الأبحاث الحديثة – بذبح حوالى مائة ألف مسلم على أرض البوسنة وسنجق .

ومما لا شك فيه أن أعمال الإبادة المتكررة ضد البشانقة المسلمين دفعت إلى حدوث موجات من الهجرة أدت إلى الإخلاء التام لبعض مناطق البوسنة فى السنوات المائة والعشرين الأخيرة . ومن أجل هذا وغيره من الأسباب انخفضت نسبة عدد السكان البشانقة المسلمين من إجمالى عدد سكان البوسنة والهرسك من ٧٠٪ فى الفترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر إلى ٣٥٪ فى أوائل القرن العشرين وبعد ذلك ارتفعت إلى حوالى ٥٠٪ .

مدلولات الأرقام :

مما لا شك فيه أن الأرقام الواردة بالتعدادات لها مدلولات واضحة وأخرى كامنة ، ومن هنا سنبرز بعض الأرقام التى نرى أن لها أهمية خاصة .

بلغ عدد المسلمين فى يوغسلافيا الاتحادية – وفقًا لتعداد عام ١٩٧١م – مليونًا و ٧٣٠ ألف مسلم يشكلون ٨,٤٪ من إجمالى عدد سكان يوغسلافيا . وكان أكبر عدد من المسلمين – وهو مليون و ٤٨٢٤٣٠ مسلمًا – يعيش فى البوسنة والهرسك ويمثل ٣٩,٦٪ من سكان هذه الجمهورية . كما يعيش فى البوسنة والهرسك أيضًا مليون و ٣٩٣١٤٨ من الصرب ، و ٧٧٢٤٩١ من الكروات ، و ١٣٠٢١ شخصًا أصلهم من الجبل الأسود .

ومن الأمور اللافتة للنظر فى هذا التعداد أن المسلمين فى يوغسلافيا سابقًا كان لديهم أكبر نسبة للمواليد ١٦,٧٪ لكل ألف نسمة ، وأقل نسبة للوفيات ٦,٢٪ لكل ألف نسمة . وقد استمر هذا الاتجاه فى الزيادة فيما بعد ذلك وهذا يدل على حيوية وفتوة هذا الشعب .

ووفقًا لتعداد عام ١٩٨١م بلغ عدد المسلمين حوالى ٢ مليون نسمة وهذا العدد يشكل ٨,٩٪ من كل سكان يوغسلافيا الاتحادية آنذاك . والعدد الأكبر منهم موجود فى البوسنة والهرسك ويبلغ حوالى مليون و ٦٣٠٠٣٢ مسلمًا أو ٣٩,٥٪ من سكان البوسنة والهرسك أو ٨٠٪ من كل مسلمى يوغسلافيا الاتحادية سابقًا .

ووفقًا للتعداد الذى أجرى فى أبريل عام ١٩٩١م فقد كان يعيش فى يوغسلافيا الاتحادية آنذاك مليونان و ٣٧٦٦٤٦ نسمة أعربوا عن أنفسهم أنهم مسلمون بالمعنى العرفى والدينى ، وما يزيد على ٨٠٪ من هؤلاء المسلمين كانوا يعيشون فى البوسنة والهرسك ، أى مليون و ٩٠٥٠١٨ نسمة أو ٤٣,٧٪ من إجمالى السكان بالبوسنة والهرسك .

ووفقًا لتعداد عام ١٩٩١م بلغ عدد البشانقة - سكان البوسنة والهرسك - أربعة ملايين و ٣٧٧٠٣٣ نسمة ، منهم ٤٣,٧١٪ من المسلمين ، و ٣١,٣٪ من الصرب ، و١٧,٣٪ من الكروات ، و ٧,٧٪ من اليوغسلاف وأتباع الأقليات القومية الأخرى .

وقد أجريت فيما بعد أبحاث ودراسات ديموغرافية من أجل التيقن من نوعية وهوية هذه المجموعة البالغة ٧,٧٪ ، وتبيَّن أن العدد الأكبر من أفراد هذه المجموعة من أصل مسلم ، إلا أنهم لأسباب متباينة فضلوا الإعراب عن هويتهم بأسلوب محايد وذلك لتجنب المسمى الدينى للهوية القومية .

وبينت هذه الأبحاث أيضًا أن عددًا من الصرب والكروات هم من البشانقة المسلمين الذين استمروا فى الحفاظ على قوميتهم السابقة منذ ذلك العهد الذى لم يكن البشانقة المسلمون يستطيعون فيه إثبات قوميتهم والإعراب عن رأيهم إلا كصرب أو كروات أو غير محددين قوميا .

كما أوضحت الأبحاث أن ٥٠٪ تقريبًا من سكان البوسنة والهرسك هم من المسلمين وفقًا لديانتهم أو أصلهم القومى ، أى أنهم من البشانقة المسلمين . ومن المؤكد أنهم من البشانقة القدامى أو المعاصرين أو من البوسنيين الذين لم يتعرضوا لإخفاء طابع القومية الصربية أو الكرواتية عليهم ، وهو ما جرى تنفيذه تنفيذًا مكثفًا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وحتى عهد قريب .

وبناء عليه فقد أكدت تعدادات السكان الثلاثة (فى ١٩٧١ ، ١٩٨١ ، ١٩٩١) أن البشانقة الذين كان يطلق عليهم آنذاك اسم "المسلمون" بمعنى يشمل الهوية العرقية

والدينية – كانوا يمثلون الشعب الثالث من الناحية العددية فى جمهورية يوغسلافيا الاتحادية سابقًا ، وهم الآن أغلبية شعب البوسنة والهرسك وسكانها .

ويبلغ متوسط الكثافة السكانية فى البوسنة والهرسك ٨٠,٦ نسمة فى الكيلومتر الواحد . وأكثر المناطق "كثافة" بالسكان هى المدن الكبيرة مثل : سرايفو وبانيالوكا وموستار وتوزلا وزينتسا ، والمناطق التالية : بوسانسكا كرايينا ، وادى نهر البوسنة (منطقة زينتسا) ، والجزء الشمالى الشرقى (منطقة توزلا) . ولا شك أن الحالة الراهنة لكثافة السكان فى البوسنة والهرسك مؤقتة نتيجة للحرب ولأعمال العنف وعمليات طرد السكان والتطهير العرقى ، التى قام بها الصرب والكروات فى الحرب الأخيرة ، وبالتالى فعن طريقها ظهرت صورة جديدة تمامًا لتوزيع سكان البوسنة والهرسك .

وجدير بالذكر أنه يوجد فى الوقت الحالى خارج البوسنة ما يزيد على مليون بشناقى ، هذا علاوة على أن مليونًا وأربعمائة ألف آخرين من البشانقة غيروا مكان إقامتهم القديم ، وذلك على الرغم من بدء عمليات الإعمار وإعادة البشانقة إلى أماكن إقامتهم وتوطينهم فى مساكن جديدة .

وباستعراض ودراسة البيانات الخاصة بعدد السكان فى البلديات بالبوسنة والهرسك وفقًا للهوية العرقية فإنه يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

١ – يشكل البشانقة المسلمون أغلبية مطلقة فى ٤٠ بلدية (من العدد الإجمالى ١٠٦ بلديات) ، ويبلغ عددهم فيها مليونين و ١٣٥٥٦ نسمة أو ٤٦,١٪ من عدد السكان .

ومن أهم البلديات التى يشكل فيها البشانقة المسلمون أغلبية مطلقة : سرايفو ، بيهاتش ، تسازين ، فوتشا ، جوارچده ، يابلانيتسا ، كونيتس ، لوكاڤاتسى ، أولوڤو ، سربرنيتسا ، سربرينيك ، ترنوڤو ، توزلا ، ڤيشيجراد ، زينتسا ، زڤورنيك ، وغيرها .

ويشكل البشانقة المسلمون أغلبية نسبية فى ١٢ بلدية ، ويبلغ عددهم فيها ٧٥١٨٨٨ نسمة أو ١٧,٢٪ من عدد السكان .

ويبلغ إجمالى عدد البشانقة فى البلديات التى يشكلون فيها أغلبية مطلقة أو نسبية مليونين و ٧٥٦٤٤٤ نسمة أو ٦٣٪ من إجمالى عدد السكان . ويعيشون فى المناطق الأكبر حجماً وأكثر تقدماً .

٢ – يشكل الصرب أغلبية مطلقة فى ٣١ بلدية ، ويبلغ عددهم فيها ٩٢١٤٨٤ نسمة أو ٢١,١٪ من إجمالى السكان .

ويمثل الصرب أغلبية نسبية فى ست بلديات ، ويبلغ عددهم فيها ٢٠٠٨٠٩ نسمات أو ٤,٦٪ من عدد السكان .

ويبلغ إجمالى عدد الصرب فى البلديات التى يشكلون فيها أغلبية مطلقة أو نسبية مليوناً و ١٢٢٢٩٣ نسمة أو ٢٥٪ من إجمالى عدد السكان . وتعد المناطق التى يعيشون فيها فى المرتبة الثانية من حيث حجمها وتغطى جزءاً كبيراً من المناطق النامية وغير الآهلة بالسكان فى البوسنة والهرسك .

٣ – يشكل الكروات أغلبية مطلقة فى ١٤ بلدية ، ويبلغ عددهم فيها ٣١١١٠٣ نسمات أو ٧,١٪ من إجمالى عدد السكان . ويشكلون أغلبية نسبية فى ست بلديات ، ويبلغ عددهم فيها ١٦٦١٦٤ نسمة أو ٣,٨٪ . وهكذا يبلغ إجمالى عدد الكروات فى المناطق التى يشكلون فيها أغلبية مطلقة أو نسبية ٤٧٧٣٢٧ نسمة أو ١٠٪ من إجمالى عدد السكان . وهذه المناطق هى أقلها حجماً وأقلها تقدماً فى الوقت نفسه ، وهى مناطق زراعية فى الأغلب .

٤ – لوحظ انخفاض الكثافة السكانية فى البلديات التى يمثل فيها الصرب والكروات أغلبية مطلقة أو نسبية . وهذه الملاحظة ترتبط بحقيقة تاريخية مفادها أن العدد الأكبر من الصرب والكروات قد جاء مهاجراً إلى البوسنة والهرسك ، وبالتالى فقد كان يستوطن فى مناطق ذات كثافة سكانية ضئيلة حتى ذلك الحين .

٥ – كما لوحظ ارتفاع الكثافة السكانية فى البلديات التى يشكل فيها البشانقة أغلبية مطلقة أو نسبية . وهذا يبين ببساطة أن البشانقة هم الأكثر انتشاراً

ونشاطًا على الصعيدين الحضارى والاقتصادى وهم الأكثر إنتاجًا بالنسبة للقوميات الأخرى ، وبالتالى فهم الجزء الأكثر أهمية وحيوية من سكان البوسنة والهرسك .

٦ - حينما يتعلق الأمر بالاختلاط بين السكان ، فلا بد عندئذ من الإقرار بأن البشانقة هم الأكثر اختلاطًا ، وهذا نتيجة طبيعية لانتشارهم فى كل أنحاء البلاد . ويمكن تقدير درجة اختلاطهم بالآخرين بنسبة ٩٠٪ . وتوضح البيانات المفصلة فى هذا الصدد أن شعب البوسنة والهرسك ، أى البشانقة ، شعب مختلط تمامًا ، وهو يعيش على هذا النحو منذ القدم . ولم يكن من الممكن تغيير هذا الوضع الناشئ عبر عهود التاريخ وتبديل طبيعة الشعب إلا بإجراءات قسرية هائلة وإن كان هذا الأمر بالتأكيد عمره قصير ، ولن يحدث هذا إلا إذا تم بالكامل تدمير البوسنة كبلد ودولة .

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن البوسنة تمثل نسيجًا ثقافيا وحضاريا وتاريخيا وحياتيا جميلاً . إنها أشبه بنسيج العنكبوت فى تشابكه . وخيوط هذا النسيج يمثلها البشانقة المسلمون الذين يربطون البوسنة والهرسك كلها فى نسيج واحد ، ولذا فإن إبادة البشانقة المسلمين وتمزيق هذا النسيج هما فى الوقت ذاته تدمير للبوسنة كلها.

اللغة البوسنية :

اللغة البوسنية "البوشناقية" هى لغة البشانقة ، وهى اللغة السائدة فى البوسنة والهرسك واللغة التى يتحدث بها أغلبية البشانقة . وهى لغة ذات تاريخ عريق حتى من قبل أيام الدولة البوسنية فى القرون الوسطى .

وعلى الرغم من سيطرة اللغات الشرقية (التركية والعربية والفارسية) فى عهد الحكم العثمانى فإن اللغة البوسنية ظلت متواجدة ولها كيانها الخاص ولم تسجل المراجع التاريخية أى صدام بينها وبين اللغات المذكورة ، بل لقد تم بحروفها تسجيل وكتابة ما يسمى بالأدب الهاميادو أو الأدب الأعجمى الذى سنتحدث عنه فى الفصل

الخاص بالإبداعات الأدبية . وفى عام ١٩٠٧م أصدرت سلطات الاحتلال النمساوية الهنغارية فى البوسنة قراراً بعدم تسمية هذه اللغة باسمها التقليدى الذى حملته عبر العصور وهو اللغة البوسنية . وبالطبع فقد لقى مقاومة شديدة لأنه لم يكن من الممكن إلغاء لغة شعب بقرار إدارى أصدره محتل أجنبى .

وخلال الحكم الشيوعى ليوغسلافيا اقتسمت اللغة البوسنية مصير البشانقة المسلمين ، فكما لم يتم الاعتراف بهويتهم القومية فلم يتم أيضًا الاعتراف بلغتهم ، وتمت تسمية لغة البشانقة باللغة الصربوكرواتية وذلك على الرغم من مشاركة علمائهم وباحثيهم مشاركة فعالة فى الاجتماعات الخاصة بمراجعة أول قاموس للغة الصربوكرواتية أو الكرواتوصربية فى عام ١٩٦٩م ، وعلى الرغم من أن البوسنيين كانوا يمثلون ثالث شعب من الناحية العددية فى يوغسلافيا سابقًا . ولكن تبين أن موضوع اللغة البوسنية كان مرتبطًا أشد الارتباط بمسألة القومية البشناقية ولذلك تم بشدة رفض طرح اسم اللغة البوسنية .

جدير بالذكر أنه فى عام ١٩٦٨م ظهر كتاب "مسلمو اللغة الصربوكرواتية" لمؤلفه سليم تشريتش وهو قائد للواء البشانقة المسلمين فى حرب التحرير اليوغسلافية وأثار هذا الكتاب ردود فعل شديدة وانتقادات عنيفة من جانب رجال السياسة الشيوعيين حينذاك لأن المؤلف أورد أفكاراً عن شعبه ومصيره التاريخى ولغته وثقافته تتعارض مع ما تتبناه وتروج له الدوائر السياسية الشيوعية . وبسبب كتابه تعرض المؤلف إلى حكم سياسى ضده لأنه تجرأ وخالف تعليمات الحزب الشيوعى وطرح مسألة اللغة البوسنية والهوية القومية لشعبه بهذا الشكل الصادق الصريح ولم يشفع له تاريخه العسكرى المشرف وسمعته الطيبة .

ونجحت القبضة الحديدية للحكم الشيوعى فى فرض الأمر الواقع فى مجال اللغة بزعم التغلب على الانقسام والتفتت اللغوى الذى يمزق الشعوب اليوغسلافية وخصوصاً المتحدثين منهم باللغة الصربوكرواتية . وتم توحيد قواعد اللغة الأدبية "الفصحى" وتوحيد أسلوب كتابتها ، أما لغة الكلام فقد ظلت على حالها واختلفت كثيراً فى نطقها وبعض كلماتها فى أماكن كثيرة من يوغسلافيا سابقًا .

والحقيقة أن الاتفاق اللغوى باستخدام تعبير اللغة الصربوكرواتية أو الكرواتو صربية كان اتفاقًا بين شعبين فقط من بين أربعة شعوب يتحدثون بهذه اللغة . وكان حقا طبيعيا لكل شعب أن يسمى لغته وفقًا لتراثه وتقاليده اللغوية والأدبية بالاسم الذى يراه مناسبًا حتى ولو تشابهت وتطابقت مع لغة أخرى . وهذه ليست بدعة جديدة وإنما حق أساسى من حقوق الشعوب وحقوق الإنسان .

وعلى الرغم من الإجراءات ومختلف الضغوط السياسية فإن الدراسات والأبحاث توالت عن مسألة اللغة البوسنية وارتباطها بالقومية والثقافة البشناقيتين وبغير ذلك من المسائل الجوهرية والمهمة للبشانقة . وكان الطرح صادقًا ومدعمًا بالأدلة والأسانيد بمعرفة علماء أجلاء وباحثين مجدين بحيث إنه تمكن تقويض من المفاهيم المنحازة والآراء المتعصبة والاحتكارات الثقافية والأدبية . إلا أن تعنت المتعصبين داخل الحزب الشيوعى كان أقوى وأشد إلى أن جاءت الأيام الأخيرة التى كان النظام الشيوعى يلفظ أنفاسه فيها وخفت قبضته الحديدية فأخذ اسم اللغة البوسنية يظهر ويجد مكانه فى المقالات والأبحاث ويلقى الدعم والتأييد من العلماء والباحثين واللغويين والأدباء وغيرهم من المهتمين باللغة البوسنية .

وطوال تاريخها المديد كانت اللغة البوسنية تتميز بسمات خاصة عن اللغتين الصربية والكرواتية فى طريقة نطق بعض حروفها وكلماتها وفى استخدامها لكلمات معينة دون غيرها . واللغة البوسنية تكتب بطريقتين : بالحروف التشريليتسية وهى مشابهة إلى حد كبير للحروف الروسية ، وبالحروف اللاتينية المعروفة . ويسود اليوم اتجاه إلى تغليب وسيطرة الكتابة بالحروف اللاتينية .

ومن السمات الخاصة التى تتميز بها اللغة البوسنية احتواء قاموسها على عدد كبير من الكلمات العربية والتركية والفارسية . فإذا نظرنا إلى القاموس العربى البوسنى الذى أعده المستشرق المعروف عبد الله شكاليتش فسنجد أنه يحتوى على ٦٥٠٠ كلمة منها حوالى ٢٨٠٠ كلمة من أصل عربى ، أى أن ما يربو على نصف الكلمات الواردة بالقاموس كلمات ذات أصل عربى .

ومن الغريب أن كثيراً من علماء اللغة كان – إلى عهد قريب – يدرج الكلمات العربية الموجودة باللغة البوسنية تحت اسم كلمات ذات أصل تركي . والسبب وراء هذا الخطأ هو سيطرة الرأى القائل بأن الحكم العثمانى للبوسنة – الممتد لما يقرب من خمسة قرون – هو المسئول أولاً وأخيراً عن ظهور الكلمات العربية فى اللغة البوسنية – إلا أن السبب الأهم وراء هذا الخطأ هو نقص الأبحاث المتخصصة التى تبحث وتدرس بشكل علمى أكاديمى هذه الظاهرة وتأثير الإسلام على شعب البوسنة .

ونحن نرى أن هناك عوامل عدة هيأت الإمكانيات وخلقت الظروف على مر العصور لتغلغل الكلمات العربية فى اللغة البوسنية . ومن أول هذه العوامل تلك الاتصالات المتنوعة التى جرت بين الشعوب العربية الإسلامية والشعوب البلقانية – ومنها شعب البوسنة – منذ عهد الخلفاء الراشدين وإلى فترة ما قبل مجىء العثمانيين إلى البوسنة .

وخلال وجود الأتراك العثمانيين فى البوسنة وانتشار الإسلام بها كانت هناك أيضاً عدة سبل تم عن طريقها نشر وانتشار الكلمات العربية واتساع استخدامها لدى البشانقة حتى وقتنا الحالى . وقد تم ذلك ، أولاً ، عن طريق البشانقة الذين أجادوا اللغتين العربية والتركية ، ثم استكملوا دراستهم فى القسطنطينية وبعد عودتهم من الدراسة تعسر عليهم التخلص من تأثير هاتين اللغتين عليهم فاضطروا فى مختلف أعمالهم وأنشطتهم فى المجالات الثقافية والدينية إلى ابتداع نوع من المزيج أو اللغة الوسط بين اللغتين العربية والتركية وبين لغتهم البوسنية ، فكانوا يستخدمون الكلمات العربية بالنسبة لكثير من المعانى ، وذلك بعد تكييفها وتطويعها لروح وتطور لغتهم . وثبّتت هذه الكلمات العربية مع مرور الوقت أقدامها فى قاموس اللغة البوسنية وأصبح من الصعب الاستغناء عنها .

والسبيل الثانى هو اللغة التركية نفسها التى نقلت الكثير من الكلمات والتعبيرات عن اللغة العربية وأضافت عليها البوادئ واللواحق التركية أو حورت وغيرت فى معانيها ونطقها ، وانتقلت هذه الكلمات بتغيراتها وأشكالها الجديدة إلى اللغة

البوسنية ، واستخدمها البشانقة بحالتها ، وربما أضافوا عليها إضافاتهم الخاصة بلغتهم دون أي تعصب لغوى من جانبهم .

ولا شك أن اللغة العربية نفسها هى من السبل الرئيسية لانتقال كلماتها إلى اللغة البوسنية . ولا ننسى أن اللغة العربية كانت هى الناقل الرئيسى ووسيلة التعبير الأساسية عن الثقافة الإسلامية وهى بالتالى لغة كل من اعتنق الإسلام . وعلى نحو ما أصبحت اللغة العربية فى متناول جميع البشانقة . ومن المرجح أن عدداً كبيراً من الكلمات العربية قد انتقل مباشرة منها إلى اللغة البوسنية وخصوصًا تلك الكلمات المتعلقة بالأمور الدينية والشعائر الإسلامية .

ونظرًا لأن أغلبية الإبداعات الشعبية للبشانقة قد ظهرت فى وقت تواجد العثمانيين وفى هذا الجو المناسب لتقبل الكلمات العربية فقد حفلت بالكثير من هذه الكلمات . ولم يدافع جامعو هذه الإبداعات عن تطهيرها لغويا واستبدال كلمات أخرى بها لإحساسهم بأنها ليست غريبة عليهم ولتَعَوُّد جماهير الشعب عليها . بل لقد أصبحت الكلمات العربية الموجودة فى الإبداعات الشعبية مثل الملح والبهارات والتوابل للطعام . ومن الطبيعى أن مثل هذه الإبداعات الشعبية بكلماتها العربية قد أثرت تأثيراً كبيراً على اللغة اليومية لعامة البشانقة .

الأحزاب السياسية :

انتصرت التعددية الحزبية فى البوسنة والهرسك منذ نوفمبر ١٩٩٠م فى أول انتخابات حرة بها وأسقطت الحكم الشيوعى . ويوجد الآن بالبوسنة والهرسك حوالى ثلاثة وثمانين حزبًا سياسيًا ، ومن أهمها :

١ – حزب العمل الديمقراطى .

٢ – الحزب الليبرالى للبوسنة والهرسك .

٣ – حزب الجماعة الديمقراطية الكرواتية للبوسنة والهرسك .

٤ – الحزب الراديكالى الصربى .

٥ – الحزب من أجل البوسنة والهرسك .

٦ – الحزب الاشتراكى الديمقراطى للبوسنة والهرسك .

٧ – حزب المبادرة الكرواتية الجديدة .

٨ – الحزب الصربى لكرايينا وبوسافينا .

٩ – حزب الاشتراكيين الديمقراطيين للبوسنة والهرسك .

١٠ – الحزب الاشتراكى لجمهورية صربيا .

١١ – الحزب المدنى الديمقراطى للبوسنة والهرسك .

١٢ – الحزب الشعبى لجمهورية صربيا .

١٣ – حزب المزارعين الكرواتيين للبوسنة والهرسك .

١٤ – حزب الجماعة الشعبية الديمقراطية .

١٥ – حزب الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين .

١٦ – الحزب الوطنى الصربى .

١٧ – الحزب الجمهورى للبوسنة والهرسك .

١٨ – حزب المنظمة البشناقية للمسلمين .

١٩ – حزب التحالف الشعبى الصربى "بيليانا بلافشيتش" .

٢٠ – الحزب الديمقراطى الوطنى .

٢١ – حزب المنظمة الليبرالية البشناقية .

٢٢ – الحزب الكرواتى للحقوق .

٢٣ – الحزب الصربى الديمقراطى .

٢٤ – حزب جامعى الأخشاب .

● **الرئيس على عزت بيجوفيتش (١٩٢٥ – ٢٠٠٣م) :**

وعلى عزت بيجوفيتش هو أول رئيس لحزب العمل الديمقراطى وأول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك بعد استقلالها . وهو مولود فى أسرة مسلمة تقطن قرية بوسانسكى شاماتس الواقعة عند نقطة التقاء نهرى البوسنة وساڤا على الحدود المشتركة مع جمهورية كرواتيا . وقد تعلم فى مدارس سرايفو ودرس القانون والآداب بجامعتها وحصل على شهادات أخرى فى العلوم والفنون .

وفى أثناء دراسته للقانون فى جامعة سرايفو سجلت تقارير الشرطة اليوغسلافية حينذاك انتماءه إلى جماعة "الشبان المسلمين" التى أسسها قبل الحرب العالمية بعض المثقفين البشانقة الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعات اليوغسلافية أو فى جامعة الأزهر وتأثروا بالحركة الإسلامية فى مصر . واقتصر نشاط هذه الجماعة على إيواء المهاجرين وكفالة الأيتام ومساعدة الفقراء وأعمال الخير والبر بوجه عام ، ولم يكن لها أى نشاط سياسى ، وكان شاغلها الأول هو الدفاع عن الهوية القومية والحضارية للبشانقة وهو ما يعارضه بشدة النظام الشيوعى الموجود آنذاك .

وقد اعتقل مرتين بسبب نشاطه فى هذه الجماعة ، وأفرج عنه فى المرة الأولى ، أما فى المرة الثانية فى عام ١٩٤٩م فقد حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات مع الأشغال الشاقة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . وكانت التهمة المنسوبة إليه فى عريضة الاتهام أنه يدعى أن البشانقة المسلمين قد عانوا الأمرين على أيدى الشيوعيين اليوغسلاف عندما دخلوا قراهم فى أواخر الحرب العالمية الثانية وأن منظمة الشبان المسلمين وغيرها من المنظمات المماثلة قد تأسست لكى تقف فى وجه هذه المعاناة .

وعمل بيجوفيتش مستشارًا قانونيا لجهات علمية وتجارية وفى مقدمتها جامعة سرايفو لمدة خمسة وعشرين عامًا ، ثم اعتزل بعدها العمل وتفرغ للكتابة والبحث وإلقاء المحاضرات فى أوساط الشباب لخدمة الإسلام .

وفى مارس من عام ١٩٨٣م وقف بيجوفيتش مرة أخرى أمام المحكمة ضمن ثلاثة عشر شخصًا من أقطاب البشانقة بتهمة القيام بأعمال معادية للنظام الشيوعى ونابعة

من القومية الإسلامية . وحكم عليه بالسجن لمدة أربعة عشر عامًا تم تخفيفها فيما بعد إلى أحد عشر عامًا . واستمد الادعاء التهمة الرئيسية من البيان الإسلامى الذى كان بيجوفيتش قد كتبه فى أوائل السبعينيات . ولم يبق بيجوفيتش فى السجن سوى خمس سنوات فقط حيث تم الإفراج عنه فى عام ١٩٨٨م مع بدء تغير الأحوال السياسية .

وفى عام ١٩٩٠م تم انتخابه رئيسًا لحزب العمل الديمقراطى ، ثم رئيسًا لمجلس رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك . وبعد توليه السلطة عمل على تأكيد مبادئ التسامح ، وساعد معارضيه على الانضمام إلى النظام الديمقراطى الجديد ، وطالب أتباعه بالتخلى عن نوازع الانتقام .

وكانت الحرب فى البوسنة التى بدأت فى عام ١٩٩٢م محنة جديدة بالنسبة لعزت بيجوفيتش ولمبادئ حزبه ، فقد تعرض شعب البشانقة الأعزل لإبادة جماعية فظيعة وتمكن عزت بيجوفيتش بصعوبة من السيطرة على التيارات الخطيرة التى اجتاحت أفراد شعبه وتدعو إلى الرد على المعتدين بنفس أساليبهم . وتحت قيادته الحكيمة تمكنت البوسنة والهرسك من تكوين جيش قوى والدفاع عن ما يزيد على ٣٠٪ من الأراضى التى تعيش بها أغلبية من البشانقة . وبسبب ظروفه الصحية رفض فى عام ٢٠٠١م ترشيح نفسه رئيسًا لحزب العمل الديمقراطى فتم إعلانه رئيسًا شرفيًا للحزب .

وبالإضافة إلى كونه رئيس دولة ورجل سياسة ومجاهد سياسى فهو أيضًا مفكر إسلامى من طراز رفيع وثقافته واسعة . وامتد نشاطه إلى ميدان الفكر ، حيث نُشرت له كتابات رصينة ، ومنها : البيان الإسلامى ، الإسلام بين الشرق والغرب ، عوائق النهضة الإسلامية ، هروبى إلى الحرية ، ذكريات .

وليس من نافلة القول التنويه إلى حصوله على العديد من شهادات التقدير والجوائز المحلية والإقليمية والعالمية .

* * *

الفصل الرابع

مدن البشـــانقة

- تمهيـد .
- مدينة سرايفو .
- مدينة بانيا لوكا .
- مدينة موستار .
- مدينة ڤيشيجراد .
- مدينة توذلا .
- مدينة زينتسا .
- مدينة تراڤنيك .
- مدينة سربرينتسا .
- مدينة فوتشـــا .

الفصل الرابع

مدن البشـــانقة

تمهيـد :

حينما قمت فى أواخر الثمانينيات بجولة سريعة بين مدن البشانقة فى البوسنة والهرسك كان أول ما لفت نظرى وجذب انتباهى أنه يشق عنان سمائها العديد من المآذن السامقة الرائعة ، وترصع أحياءها مساجد وجوامع بسيطة وأخرى فاخرة بقبابها المستديرة ، وذلك علاوة على كثير من الآثار الإسلامية الجميلة التى تم الحفاظ عليها عبر السنين . ومن المعلوم أن كل هذه الآثار الإسلامية التى تحفل بها مدن البشانقة ترجع إلى عهد وجود العثمانيين فى هذه المناطق وبالتحديد اعتباراً من عام ١٤٣٥م .

وبمجرد سيطرة الأتراك العثمانيين على مناطق البوسنة والهرسك انتشر الإسلام انتشاراً مكثفًا بين سكانها البشانقة الذين تقبَّلوه طواعية وبمحض إرادتهم وكامل رغبتهم ، ونقل إليها العثمانيون الكثير من عناصر الحضارة والثقافة الإسلاميتين المأخوذة عن العرب المسلمين وغيرهم من المسلمين الشرقيين . وتوغلت هذه العناصر وتعمقت فى البوسنة خصوصًا وأن فترة الحكم العثمانى قد امتدت قرابة خمسة قرون حتى نشوب حرب البلقان فى عام ١٩١٢م .

وأحدث الحكم العثمانى للبوسنة والهرسك تغيرات هائلة فى جميع مناحى الحياة ، فقد أنشأ العثمانيون مدنًا جديدة فى أماكن جديدة أو على أطلال مدن قديمة وسرعان ما تحولت بفعل النمو العمرانى والاقتصادى السريع إلى مراكز للصناعات والحِرَف

والتجارة أو إلى مراكز عسكرية دفاعية أو إلى مقار لأجهزة الحكم والإدارة ومراكز للفكر والثقافة الإسلامية . وأصبحت هذه المدن الجديدة أو المجددة مراكز لأعداد من المهاجرين الجدد الذين لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، واتسمت بطابع شرقى إسلامى يناسب متطلبات الدولة الإسلامية ، كما تميزت أمثال هذه المدن بكثرة سكانها من البشانقة وهم فى أغلبيتهم من المسلمين مع وجود عدد لا بأس به من المسيحيين واليهود ، وتحلت بآثارها الإسلامية الرائعة من جوامع ومساجد ومدارس إسلامية وكتاتيب وتكيات واستراحات للقوافل وأبراج للساعات وحمامات ومطاعم عمومية ، بالإضافة إلى أسواقها الكبيرة التى تزدهر فيها ألوان التجارة ومختلف الحرف .

وحينما يجرى الحديث عن مدن البشانقة فى البوسنة والهرسك فمن الحتم أن نتعرض لهذا العدد الضخم من الآثار المعمارية الرائعة التى بلغت فى هذا المضمار من النشاط البشرى أقصى حد للجمال والرفعة والروعة . وتدل على هذا النشاط الهائل تلك الآثار الإسلامية التى جرى تشييدها خلال فترة الحكم العثمانى لهذه المنطقة والتى اندثر وتهدم الكثير منها للأسف ، وبقى أيضًا - لحسن الحظ - الكثير منها شاهدًا على قيام وزوال إمبراطوريات وممالك وانهيار أنظمة واندلاع حروب ، فهو شاهد على انهيار الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية الهنغارية وعلى انهيار المملكة اليوغسلافية القديمة وعلى قيام يوغسلافيا الاشتراكية ، ثم انهيار نظامها الشيوعى وتفتتها إلى دول مستقلة ونشوب الحرب الغاشمة ضد البشانقة فى البوسنة والهرسك ، وغير ذلك من أحداث .

وخلال وجود العثمانيين بالبوسنة تطورت ونمت إلى أبعد حد ممكن مختلف الفنون المعمارية . وكان من عادتهم أن يقيموا الجوامع أو المساجد أولاً وقبل كل شىء وبعد ذلك تتم إقامة المحلات التجارية والحرفية المختلفة حول الجامع الأول الذى غالبًا ما يتم إطلاق اسم السلطان عليه . وفى أغلب الأحوال يصبح هذا الجامع نواة للمدينة الجديدة ومركزًا لها ، وبعد ذلك تتم إقامة الجوامع والمساجد فى المناطق المحيطة .

ويتحتم هنا أن ننوه إلى أنه فى الفترة الأولى من ظهور الإسلام تساوت كلمتا المسجد والجامع فى الإشارة إلى أى مكان تقام فيه شعائر الصلاة للمسلمين دون أية تفرقة بينهما من جانب جمهور العامة ، غير أنه فيما بعد وعلى الأخص فى تلك المناطق الأوروبية التى دخل فيها الإسلام وانتشر عن طريق الأتراك العثمانيين اختلف معنى كل منهما . فأصبحت كلمة المسجد تعنى مكانًا صغيرًا تتم فيه إقامة الصلوات الخمس ، وتجوز به إقامة صلاة الجمعة والعيدين ، وهو فى أغلب الأحوال دون مئذنة . أما الجامع فهو الأكبر مساحة وحجمًا والأشمل فى أداء مهامه ، ففيه تقام الصلوات الخمس والصلاة فى أيام الجمع وفى الأعياد ، كما يتم فيه إلقاء المحاضرات وتحفيظ القرآن وسماع الأحاديث النبوية الشريفة وتعليم اللغة العربية وما شابه ذلك من أمور ، وغالبًا ما تكون للجامع مئذنة ومنبر وجناح للحريم .

وكان يقوم بعملية التشييد للمدن والجوامع والمكتبات والأسبلة والتكيات وغيرها من الآثار الإسلامية فى البوسنة والهرسك كبار المسئولين من الأتراك العثمانيين وأعيان المدن وأثرياؤها وتجارها وأصحاب الحرف من البشانقة . ولم تكن ضخامة البناء ترتبط ارتباطًا كبيرًا بمشيده فحسب ولكن أيضًا بصاحب تصميمه المعمارى ومنفذه وعمال بنائه .

وبالتوازى مع النمو العمرانى والاقتصادى نما لدى البشانقة المسلمين من أهل البوسنة والهرسك اهتمام بالحياة الثقافية الإسلامية حتى يصقلوا بنتاجها عقولهم ويهذبوا به نفوسهم . ومما لا شك فيه أن هذا كان باعثًا قويا على نشر القراءة والكتابة والإقبال المتزايد على التعليم وطلب العلم . ويدخل فى هذا اهتمامهم بإنشاء المكتبات الإسلامية باعتبارها من أهم المؤسسات الثقافية والتثقيفية نظرًا لدورها المهم والخطير فى نشر ألوان المعرفة والثقافة بين المسلمين بل وبين غير المسلمين . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر تم إنشاء عدد كبير من المكتبات الإسلامية العامة والخاصة فى جميع المدن الكبرى بالبوسنة ، ولم يتم حتى وقتنا الحالى التحقق من عدد هذه المكتبات بسبب اختفاء كثير من الآثار الأولى الدالة على ذلك . وقد لوحظ أنه كان

يطلق على هذه المكتبات آنذاك المكتبات الشرقية نظراً لاحتوائها على كتب باللغات الشرقية : العربية والتركية والفارسية .

وفى المكتبات الموجودة بالجوامع كان يتم الحفاظ على مخطوطات القرآن وعلى مختلف الكتب الخاصة بشعائر الصلاة وأدائها وتعلمها والفقه فى أمور الدين . وفى مكتبات التكايا كان من الممكن أن توجد بجانب الكتب الدينية أشعار للصوفية . وكانت المكتبات الموجودة بالمدارس الإسلامية هى أكثر هذه المكتبات أهمية وأفضلها من ناحية التزود بالكتب الجيدة والحديثة ، فكانت تحتوى على أشهر المؤلفات فى جميع المجالات الدينية والعلمية الخاصة بالدراسة . وتطور العديد من المكتبات عبر الزمن إلى أن أصبح مؤسسات عامة مستقلة .

وكما تميزت مدن البشانقة بجوامعها ومساجدها فقد حفلت أيضًا بالمدارس الإسلامية بمستوياتها المختلفة التى سرعان ما أصبحت مراكز عامة للثقافة والتثقيف والتعليم فى المجتمع الإسلامى الجديد ومشاتل للثقافة الإسلامية ، وآنذاك كانت هى المدارس الوحيدة فى البوسنة لأنه لم تتوافر بها مدارس نظامية عادية .

ومثلما حدث مع الجوامع فقد كان الحكام والأمراء يتسابقون إلى إقامة وإنشاء المدارس الإسلامية ، واقتدى بهم فى هذا المضمار كبار رجال الدولة والأثرياء وغيرهم . ومن أجل استمرار هذه المؤسسات التعليمية كانوا يوصون لها بتركات كبيرة تسمى بالأوقاف .

وبالطريقة نفسها أيضًا وجدت الكتاتيب الأولى فى البوسنة والهرسك وأخذت فى الانتشار والتزايد بحيث ظهرت فى جميع المدن والقرى بها واحتلت نفس مكانة المدارس الإسلامية وقامت تقريباً بنفس مهمتها . وفى أغلب الأحوال كانت تتم إقامة هذه الكتاتيب بجوار الجوامع أو كجزء منها . ونظراً لضياع الكثير من الوثائق والمستندات والوقفيات الخاصة بهذه الكتاتيب فإنه من العسير التحدث بالتفصيل عن كل من هذه الكتاتيب على حدة .

وتمت إقامة أغلبية الكتاتيب فى البوسنة والهرسك بفضل المبادرات الشخصية ، وبعض منها أقيم على أنه مؤسسات خيرية بمعرفة الأغنياء والمسئولين وفاعلى الخير وكانوا يوقفون لها بعض الأوقاف من أجل الإنفاق عليها وعلى إعاشة تلاميذها ودفع رواتب مدرسيها وصيانة مبانيها . وفى أغلب الأحوال كانت الأحوال المالية للكتاتيب جيدة وتلقى إقبالاً طيبًا ولها أهدافها المحددة المتمثلة فى اكتساب التعليم الدينى الأساسى إلى أن تغيرت أحوالها وساءت ظروفها .

ووفقًا لسماتها العامة فقد كانت هذه الكتاتيب مشيدة تبعًا لنماذج الهندسة المعمارية العثمانية إلا أنها رغم ذلك تأثرت فى أحوال كثيرة إلى حد كبير بالتقاليد المعمارية المحلية ، وقام بتشييدها عمال البناء المحليون وفى أحوال نادرة عمال بناء أجانب . وفى البناء يتم استخدام الخامات المحلية من أخشاب وأحجار وطوب لبنى . واتسمت الكتاتيب عامة ببساطتها وتواضعها الشديد وصغر مساحتها وخلوها من الزخارف والنقوش الإسلامية الجميلة .

ويصعب تحديد عدد الكتاتيب فى مدن البشانقة لاختفاء وضياع المصادر والمراجع والمستندات الخاصة بذلك . وذكرت بعض المصادر الرسمية أنه فى عام ١٨٧٠م كان يوجد بمنطقة البوسنة والهرسك ٨٥٠ كُتَّابًا ، وانتظم فى الدراسة فيها ٣٩٤٧٢ تلميذًا وتلميذة ، وهو عدد لا يستهان به على الإطلاق آنذاك . وهناك طبعًا تحفظات على هذه الأرقام ، ولكن أيا كانت التحفظات عليها فمن المؤكد تمامًا أن الكتاتيب كانت هى أكثر المدارس عددًا فى منطقة البوسنة والهرسك حينذاك .

وعلاوة على ذلك حفلت مدن البشانقة بالجسور الحجرية التى جرى تشييدها فى فترة وجود الأتراك العثمانيين بها . ويعتبر الجسر الحجرى بناءً معماريا يتألف من مجموعة من العناصر المعمارية التى تعد نتيجة منطقية للأغراض التى تم تشييد الجسر من أجلها وللإمكانات المعمارية المتوافرة . وهو كذلك محصلة نهائية لأفضل التصميمات الهندسية والحلول المتاحة القائمة على تكثيف أفضل التجارب الهندسية السابقة فى هذا المضمار .

ومن الملاحظ فى الجسور بمدن البشانقة أنه تتوفر فى كل جسر حجرى العناصر الأساسية التالية : الأساس والأعمدة والقباب والأسوار الأمامية وحشو الجسر والتيجان والحواجز الأمامية والعناصر التكوينية والمعمارية والإضافية .

ومن جسر إلى جسر كانت الأحوال المتغيرة والظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية المتميزة والمتباينة تدفع مصمم الجسر ومشيده لأن يعد تصوراً هندسيا معيناً وأن يبحث ، وهو يمزج بين هذه العناصر ، عن أنسب العلاقات التى تناسب الموقف الراهن فيما بينها . وهكذا كان لكل جسر من الجسور تميزه وشكله وروحه . وقد تمكنت هذه الجسور الحجرية من مقاومة الزمن وبعضها قاوم المعتدين ، إلا أن جميع الجسور القديمة المشيدة من الأخشاب تحطمت وانهارت .

ونعرض فى هذا الفصل لبعض المدن البشناقية المهمة ، وذلك إيماناً منا بأهمية مثل هذا العرض لأنه دون شك جزء لا يتجزأ من الصورة الشاملة التى نحاول قدر إمكاننا تقديمها على صفحات كتابنا هذا عن تاريخ وثقافة البشانقة . كما تتمثل أهمية هذا العرض فى أنه يقدم تسجيلاً فريداً لعديد من الآثار الثقافية الإسلامية التى اختفت من على وجه أرض البوسنة والهرسك بفعل العدوان الغاشم الذى استهدف الطمس المتعمد لتاريخها وثقافتها .

مدينة سرايفو :

وسرايفو هى مركز وعاصمة جمهورية البوسنة والهرسك جغرافيا وتاريخيا . وتتميز بموقع فريد ، حيث تلتقى فيها منابع عدة أنهار ، وتمثل قمة طبيعية لوادى نهر البوسنة ، وهو النهر الأساسى الذى يشطر البلاد إلى قسمين شبه متساويين فى المساحة .

ووفقًا لتعداد السكان فى عام ١٩٩١م فإن سرايفو كان بها ٥٢٧٠٥٩ نسمة ، منهم ٥٠,١٪ من البشانقة المسلمين ، و ٢٧,٧٪ من الصرب ، و ٧,١٪ من الكروات ،

و ١١,٨٪ من القوميات الأخرى . ومن المعروف أن العدد الأكبر من القوميات الأخرى هم أيضًا من البشانقة المسلمين إلا أنهم لم يعربوا عن رأيهم صراحة لأسباب عديدة .

وسرايفو هى مقر البرلمان ورئاسة الجمهورية والحكومة والوزارات المختلفة . ويوجد بها مقر البنك المركزى والبنوك الأخرى ومقر الهيئات والمصالح وكبرى المؤسسات والشركات والجمعيات والاتحادات ، كما توجد بها الجامعة وأكاديمية العلوم والفنون والمتحف والمسرح القومى وأكاديميات الفنون المختلفة ، علاوة على دار الكتب ومكتبة الجامعة ومكتبات أخرى شهيرة . ومن أجل كل هذا فإن سرايفو تعد – دون شك – أكبر مركز للحياة الاقتصادية والعلمية والثقافية فى البوسنة والهرسك .

ويقال إن مدينة سرايفو قد نشأت على أطلال مستوطنات ومدن قديمة ، إلا أن الفضل الأساسى فى إنشائها بعمائرها وآثارها الإسلامية وشكلها الحالى يرجع إلى اثنين من المشيدين وفاعلى الخير : أولهما هو القائد العثمانى الكبير وحاكم المنطقة الغربية (عيسى بك إسحاقوفيتش هرانوشيتش) الذى وضع الأساس الفعلى لمدينة سرايفو ، ذلك أنه أنشأ فى البداية قصرًا له "سراى" وحوله نمت المبانى والمناطق السكنية والجوامع والمدارس وغيرها من المنشآت .

وهناك روايات عديدة بشأن اسم مدينة سرايفو وكونه يحمل جذورًا عربية . وأقربها للصدق رواية تفيد بأن عيسى بك قد أنشأ فى البداية قصرًا شخصيًا له ، أى سراى ، فى منطقة سهلية باسم "أوفاسى" ، فكان الاسم "سراى أوفاسى" وبعد التحريف والحذف والتبديل عبر السنين أصبح الاسم سرايفو .

وأقام عيسى بك بجانب قصره أول جامع وأطلق عليه جامع السلطان ، ثم أنشأ حمامًا عموميا وميدانًا لسباق الخيل واستراحة للقوافل والمسافرين وعددًا كبيرًا من المحلات لأصحاب الحِرَف والتجار . وزود المدينة بشبكة للمياه وبالعديد من الطواحين وغير ذلك من المستلزمات الأساسية المطلوبة للمدينة التى أصبحت المركز الإدارى والعسكرى والتجارى والثقافى لولاية البوسنة والهرسك آنذاك .

والشخص الثانى الذى يرجع إليه الفضل أيضًا فى تعمير مدينة سرايفو واستكمال مستلزماتها هو الغازى خسرو بك الذى زودها بالعديد من العمائر الضخمة ورصعها بجامعه الرائع وأقام بها مدرسة إسلامية وتكية ومطعمًا عموميا ومكتبة كبيرة وغيرها من المبانى . وقد اشتهر الغازى خسرو بك بكونه من كبار رجال الحكم والسياسة ومن أبرز رجال الثقافة أيضًا . وقد ارتبط أوثق ارتباط باسمه وأنشطته كل ما تمثله وتعنيه مدينة سرايفو من الناحية التجارية والاقتصادية وكل الأنشطة الإيجابية للمؤسسات الاجتماعية والثقافية والخيرية .

وقد أوقف سلسلة من الأوقاف المهمة ذات الطابع الثقافى والتعليمى والاقتصادى والإنسانى والصحى الخيرى . وعن طريق إيرادات أملاكه الموقوفة كفل الغازى خسرو بك الوجود المستمر لأوقافه ونظم إدارتها بالوصايا الوقفية . وكانت هذه الأوقاف تستخدم كقاعدة لسرعة تطوير سرايفو وازدهارها حينذاك . وبالفعل تطورت المدينة على الصعيدين الروحى والمادى وأقامت علاقات تجارية واقتصادية وثقافية مع المراكز المحيطة بها ، وكذلك مع المراكز المماثلة فى الشرق .

وأقام الغازى خسرو بك جامعًا ضخمًا يعرف باسمه أو باسم "مسجد البك" فى وسط السوق فى عام ١٥٣١م . ويعتبره خبراء الفن المعمارى الإسلامى من أكبر الجوامع الموجودة فى سراييڤو وفى البوسنة كلها ، ومن أروع الأعمال المعمارية فى عصره . وتقع أمام الجامع نافورة تصل إليها المياه داخل مواسير من منبع "تسرنيلو" الذى يبعد عن سرايفو بسبعة كيلومترات ، وذلك فى الوقت الذى لم تكن توجد فيه مدينة واحدة فى أوروبا مزودة بمثل هذه المواسير لجلب المياه . وأقيم على مسافة قريبة محل كبير لبيع السلع واستراحة للمسافرين . وفى الناحية الغربية من الجامع أقيم المطعم والمطبخ العمومى لإعداد الخبز والطعام وتوزيعهما كل يوم على طلبة المدرسة وموظفى الأوقاف وعلى فقراء المدينة . وتغنت القصائد الشعبية بإنجازات الغازى خسرو بك ومدحته ووضعت اسمه على كل لسان وأطنبت فى ذلك .

وفى فترة الحكم العثمانى أيضًا أقيمت السوق الرئيسية المسماة "باش تشارشيا" أى سوق الباشا التى حقق فيها الشرق والغرب تبادلاً دوليا للسلع والبضائع . فقد كان بإمكانك أن تشترى من هنا بثمن رخيص للغاية كل أنواع السلع الواردة من الهند والجزيرة العربية وفارس وبولندا وبلاد التشيك . واستمرت هذه السوق فى التطور بحيث نشأت مجموعة كاملة من مراكز الحرفيين المتخصصة التى وفقًا لاسمها كانت تحصل بعض الشوارع على أسمائها . فهناك الحدادون وصناع النحاس والأحذية والمجوهرات والأسلحة والسروج والأجراس والقطن والنحاتون والصباغون وغيرهم من أصحاب الحِرَف المتخصصة .

ويعد جامع السلطان من أروع مبانى الفن المعمارى الإسلامى فى مدينة سرايفو . وقد تم تشييد الجامع بأوامر من السلطان محمد الفاتح وعلى نفقته الخاصة . وتم افتتاحه رسميا فى عام ١٥٦٧م . ومن حيث أهميته وضخامته كان يحتل المكانة الثانية بين المشروعات المعمارية المماثلة فى البوسنة .

ويتبع جامع السلطان ذلك النموذج من الجوامع الذى له ساحة واحدة وقبة مقوسة . وترتفع مئذنته إلى سبعة وأربعين مترًا ، وهى بذلك تعتبر من أعلى وأجمل المآذن فى جمهورية البوسنة والهرسك ، بل وفى منطقة البلقان كلها ، وتتميز بكونها المئذنة الوحيدة فى سرايفو التى لها شرفة مرصعة بالسواقط الحجرية . وتبلغ أبعاد الساحة الخارجية للصلاة الموجودة أمام الجامع ١١,٣٣ × ٥,٧٠ متر ، كما تنفرد ردهة الجامع بجمالها وتتألف من أروقة ذات قناطر لها سبع قباب صغيرة يحملها عشرون عمودًا حجريا .

وتعتبر مكتبة الغازى خسرو بك فى مدينة سرايفو من أقدم المكتبات المشهورة التى تم الحفاظ عليها فى البوسنة . وقد تم تأسيسها فى عام ١٥٣٧م . ويرجح الباحثون أنه لا بد أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ مكتبة قديمة للمراجع تم إنشاؤها مع إقامة أول الجوامع والمدارس الإسلامية والكتاتيب ، ولكن لا تتوفر أية معلومات مؤكدة عن هذه المكتبة القديمة .

ويعتبر الخبراء أن هذه المكتبة أغنى خزينة للمخطوطات الشرقية الثمينة بهذه المنطقة ، وقد حققت عبر القرون الهدف الذى قصده مؤسسها بإنشائها وهو قراءة الكتب والتعلم منها ، وكانت الكتب على الدوام فى متناول العامة والخاصة .

وتضم المكتبة ما يربو على ستة آلاف وخمسمائة مجموعة من المخطوطات تشتمل على حوالى خمسة عشر ألف مؤلف ، وأحد عشر ألف ومائة واثنين وتسعين كتاباً مطبوعة باللغات الشرقية ، وحوالى تسعة عشرة ألف ومائتين وثلاثة وعشرين كتاباً باللغات الأوروبية . وتدخل ضمن محتويات المكتبة مجلدات كاملة من الصحف والمجلات القديمة ومجموعات الوثائق التركية والسجلات والدفاتر والوصايا الوقفية ، وكذلك مجموعة مهمة من الخرائط الجغرافية القديمة والإعلانات والصور ، وذلك بالإضافة إلى عدد من المعاجم والقواميس المختلفة والمراجع ودوائر المعارف .

وتم الانتهاء من تشييد مدرسة الغازى خسرو بك فى عامى ١٥٣٧ و ١٥٣٨م ، وذلك بعد الانتهاء من بناء تكية الدراويش والجامع الذى يقع بالقرب منها . والأسلوب المعمارى لتشييد المدرسة مماثل لأسلوب المدارس العثمانية التقليدية التى عادة ما تكون فى مبنى منفصل وتتخذ لها موقعًا بجوار أحد الجوامع . ولها فناء داخلى محاط من جميع الجهات بحجرات للتلاميذ والأساتذة وحجرة لإلقاء الدروس .

وهناك بالإضافة إلى كل هذا معهد الاستشراق الذى تم تأسيسه فى سرايفو فى يناير من عام ١٩٥٠م بهدف جمع وحفظ وبحث ونشر المخطوطات والوثائق والسجلات الموجودة باللغات الشرقية ، ودراسة الآداب والفنون الشرقية الموجودة ، وكذلك دراسة التاريخ العام والتاريخ الثقافى للشعوب والقوميات بالبوسنة والهرسك خلال فترة الحكم العثمانى مع تطبيق الأساليب العلمية الحديثة وانطلاقًا من العناية بالسمات والمميزات التاريخية والثقافية لجميع الشعوب والقوميات .

وبمجرد إنشائه تسلم معهد الاستشراق من مكتبة المتحف الإقليمى فى سرايفو كل المخطوطات والمطبوعات والمواد الخاصة بالاستشراق ، وهى تبلغ خمسة آلاف مجموعة تشمل ما يزيد على خمسة عشر ألف مخطوطة تتعلق بالقرآن وعلوم التفسير

والتجويد والقراءات وبالأحاديث النبوية وبتعليم الدين والشريعة الإسلامية والفقه والوعظ والتصوف ، وبالفلسفة والمعاجم ، وبالعلوم الرياضية والطبيعية ، وبالجغرافيا والتاريخ والسياسة ، وبعلوم اللغة ، وبالمؤلفات الأدبية والموسيقية . وهى كلها مخطوطات على درجة كبيرة من الأهمية ستسلط الأضواء على كثير من الحقائق الجديدة وتصحح كذلك العديد من المفاهيم القديمة .

وقد تعرضت مدينة سرايفو خلال تاريخها لعدة حملات لتدميرها وحرقها ، ومنها الحملة التى شنها الأمير النمساوى يوچين سافويسكى فى عام ١٦٩٧م ، ودمر وحرق فيها العديد من الآثار الإسلامية بها ، وأعاد التاريخ نفسه حينما تعرضت "سراى البوسنة" ومدينة المآذن المائة للخراب والدمار خلال الحرب البربرية فى أعوام ١٩٩٢ – ١٩٩٥م على يد التطرف والتعصب الطائفى الأعمى . فقد تم تدمير دار الكتب القومية ومكتبة الجامعة ومعهد الاستشراق بكل محتوياته النادرة وعدد كبير من الجوامع والآثار الإسلامية الشهيرة بالمدينة .

وحوصرت سرايفو من جميع الجهات بهدف تجويع أهلها وتصفيتهم معنويا وجسديا ونزع بذور الحب والتسامح من صدورهم وبهدف إفراغ المدينة من سكانها من البشانقة المسلمين طوعًا أو كرهًا ، وبغرض طمس الطابع الإسلامى الأصيل الذى اتسمت به هذه المدينة . ومع ذلك بقيت بعون اللّه سرايفو مدينة للإخاء والوئام ، وظلت رمزًا للحب والسلام وموطنًا لكل الآنام وخابت بذلك آمال اللئام .

مدينة بانيا لوكا :

تقع مدينة بانيا لوكا على نهر ڤرباس فى المنطقة الغربية الشمالية من البوسنة التى يطلق عليها اسم "بوسانسكا كراينا" . ويبلغ عدد سكانها ١٩٥,٦٩٢ نسمة ، منهم ١٤,٦٪ من البشانقة المسلمين ، و ١٤,٩٪ من الكروات ، و ٥٤,٨٪ من الصرب ، و ١٢٪ من القوميات الأخرى . ويلاحظ هنا أنه بعد التغييرات فى التركيبة العددية للسكان أصبح الصرب يمثلون أغلبية السكان .

وتعد مدينة بانيا لوكا مركزًا إداريا وثقافيا واقتصاديا مهما لكل منطقة بوسانسكا كرايينا . وذلك علاوة على كونها مقرا لصناعات الإلكترونيات والمعادن والآلات الصناعية والصلب والجلود والأحذية والطوب . كما تعد من أكبر المدن المنتجة للأغذية والصناعات الغذائية بسبب كونها مركزًا للعديد من المنتجات الزراعية . وهى كذلك مركز دينى إذ يوجد بها حوالى ثمانية عشر جامعًا وعدة كنائس كاثوليكية وأرثوذكسية وأديرة ومدارس دينية مختلفة . كما كان يوجد بها معبد يهودى ، إلا أن النازيين قاموا بتدميره خلال الحرب العالمية الثانية .

ويرجع الفضل فى إقامة وتعمير بانيا لوكا إلى فرحات باشا سوكولوفيتش الذى كان أول حاكم لولاية البوسنة أيام حكم الأتراك العثمانيين . وكانت بانيا لوكا حينذاك (أى منذ أواخر القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر) مركزًا لولاية البوسنة . وفيما بعد حينما تم نقل المركز الرسمى إلى مدينة ترافنيك ظلت بانيا لوكا مركزًا لسنجق ومنطقة بوسانسكا كرايينا .

وتذكر المراجع القديمة أن فرحات باشا سوكولوفيتش أقام فى الفترة من عام ١٥٧٩ وحتى عام ١٥٨٧م حوالى مائتين وستة عشر مشروعًا وعملاً خيريا . ومنها على سبيل المثال إقامته لجامعه المعروف باسم "فرهادية" وبجانبه كُتَّاب وقبر له وحمام وشبكة مياه وصرف خاصة بالنافورة التى يستخدم البشانقة المسلمون مياهها فى الوضوء ، وذلك علاوة على إقامته برج للساعة ودورات مياه عمومية واستراحة للمسافرين ومخزن للغلال ومائتين من دكاكين التجارة والحِرَف ، أى شيد سوقًا كاملة تقريبًا ، بالإضافة إلى عدة جسور وطاحونة هوائية وغير ذلك من مشروعات وأعمال الخير .

وقد تعرضت المدينة مثل غيرها من مدن البشانقة لأحداث مؤسفة . فى عام ١٩٦٩م تعرضت المدينة لزلزال مأساوى مدمر . وفى الفترة السابقة للحرب العدوانية الأخيرة على البوسنة كانت تعمل فى المدينة الجامعة ومكتبتها ودار الكتب القومية ومعهد التاريخ والاقتصاد ودار السجلات لمنطقة بوسانسكا كرايينا والمتحف

علاوة على المسرح ودور السينما . وخلال الحرب الفاشية الأخيرة قام الصرب بتدمير معظم الجوامع بالمدينة علاوة على بعض الأديرة . ومن أشهر الجوامع التى تم تدميرها جامع "فرهادية" المشيد فى عام ١٥٧٩م ، وجامع "إرنا أوديا" ، وجامع "غضنفر" ، وهى تعد من أجمل وأروع جوامع المدينة .

وفى أواخر القرن السادس عشر أقام القائد غضنفر فى بانيا لوكا عدة مشروعات خيرية منها الجامع والكُتَّاب وضريحان . ولا تتوفر الكثير من المعلومات عن شخصية القائد غضنفر ، ولا يعرف إلا أنه كان قائداً كبيراً يحصل على دخل سنوى ضخم يصل إلى عشرين ألف إكتشى تركى ، وأنه كان صديقًا لفرحات باشا سوكولوفيتش مؤسس المدينة ، واشترك فى التوقيع على وصيته الوقفية .

ومن المفروض أنه كانت لجامع "غضنفر" قبة حجرية ، إلا أنها اختفت من زمن بعيد ولا تشهد على وجودها إلا القاعدة الأساسية المربعة للجزء الرئيسى من الجامع وأبعادها الخارجية ١٢×١٢م . وقد تم فيما بعد خلال الإصلاحات اللاحقة إقامة قبة أخرى من الخشب بدلاً من القبة الحجرية . وبلغت أبعاد المساحة الأساسية للجامع ١٢×١٩,٣٦م ، وكان به قبو مغلق مقسم إلى قسمين وممر للدخول . وكان يتم استخدام أحد القسمين ككُتَّاب ، والآخر للوضوء والجلوس .

وقد تم فيما بعد إجراء تجديدات وترميمات وإصلاحات بمبنى الجامع ومع ذلك تم الحفاظ على المظهر الأول للمئذنة والضريح الموجودين عند البوابة الداخلية . أما الكُتَّاب الواقع على الجانب الأيمن من المدخل فقد اختفى منذ فترة طويلة . وأقيمت بعد ذلك فى مكان قريب للغاية بناية مكونة من ثمانى حجرات واستخدمت ككُتَّاب إلى أن قام النظام الشيوعى بتأميمها والاستيلاء عليها وتحويلها إلى مدرسة ابتدائية .

وكان يوجد فى فناء الجامع ضريحان مشيدان بالحجارة . ويقال إن القائد غضنفر مدفون فى أحد هذين الضريحين ، وولديه مدفونان فى الضريح الثانى . ولا توجد أية كتابات توضيحية من أى نوع على الجامع أو على الضريحين . كما اختفت الكتابات من على شواهد القبور الحجرية الموجودة فى جناح الحريم ، ويقال

إنها ترجع إلى عهد القائد غضنفر ، كما تم فى فناء الجامع دفن أبرز الشخصيات من البشانقة المسلمين فى بانيا لوكا .

ومئذنة الجامع مشيدة من الحجر بارتفاع يبلغ ٢٧,٥٦ متر ولها شرفة كبيرة بسيطة فى بنائها ولا توجد أية نقوش لها وإنما توجد بها زخارف على شكل الماء المتحجر فى أعلى المغاور ، وتتصل المئذنة بمبنى الجامع ولم يكن هذا أمرًا طيبًا نظرًا لأن مدينة بانيا لوكا تعتبر من المناطق التى تتعرض للزلازل كثيرًا .

وعلى الرغم من أنه تم تجديد وإصلاح الجامع عدة مرات وخصوصًا بعد وقوع الزلزال فى عام ١٩٦٩م فإنه لم يتم إصلاح المئذنة وكان السواد يغطيها من الداخل ، ويرجح أن هذا السواد سببه حريق وقع من قبل ، كما أصبحت المئذنة مائلة مثل برج بيزا . ولا يعرف أحد على وجه التحديد متى بدأ هبوط الأرض . ولم يتم إجراء قياسات لهذا الميل إلا فى أغسطس من عام ١٩٩٠م حيث تبيَّن أن المئذنة تميل تجاه الشمال الغربى بنحو ٦٠,٥ سم ، وتميل إلى نحو الجنوب الغربى بنحو ٦٦,٧سم . وعلى الرغم من ذلك فلم تتوفر لدى أجهزة حماية الآثار أو الجماعة الإسلامية – فى ظل الحكم الشيوعى – أية إمكانيات لإصلاحها .

وجامع "بهرام أفندى" من الجوامع الصغيرة المتميزة الفريدة فى مدينة بانيا لوكا. وتقدر مساحة هذا الجامع بحوالى ٣٧ مترًا مربعًا ، وله رواق قائم على ثمانية أعمدة خشبية . والجامع متواضع وبسيط ويخلو من أية قيمة فنية أو جمالية . ويوجد بجانب الجدار الأيسر ضريح بهرام أفندى وكان الناس يتوجهون نحوه بعد كل صلاة ويقرأون الفاتحة ترحمًا عليه وذلك لأن بهرام أفندى كان إنسانًا متعلمًا ومتواضعًا ومحترمًا .

ومن الطريف أنه يوجد عند الجانب الأيمن لهذا الجامع مكان يطلق عليه اسم "كويا" ، وأغلب ظنى أن هذه الكلمة تحريف لكلمة كوة . وهو عبارة عن مكان صغير تحت الأرض يبلغ طوله ٣,١٠ متر وعرضه ١,٦٠ متر وارتفاعه ١,٩٠ متر . وعند جداره الجنوبى الشرقى يوجد محراب صغير وفوقه نافذة . ويتم الهبوط إلى هذه الكوة عن طريق سلم من عدة درجات . ووفقًا للاعتقادات الشعبية السائدة فقد كان بهرام أفندى يقضى

هنا كل أوقات فراغه فى العبادة وأعمال الفكر والكتابة ونسخ الكتب ، كما كان يعتكف فى هذا المكان . ولم يكن اعتكافه قاصراً على الثلث الأخير من رمضان ولكنه كان يعتكف هنا لفترات طويلة واهبًا وقته للعبادة والعلم . وما زال الجامع والضريح والكوة محل اهتمام البشانقة المسلمين ، وكذلك الزائرين القادمين من مدن أخرى .

مدينة موستار :

تقع مدينة موستار على نهر نيرتفا فى منطقة الهرسك ، وتعد مركزًا ثقافيا واقتصاديا وإداريا وتاريخيا لكل منطقة الهرسك . ويبلغ عدد سكانها ١٢٦٠٦٧ نسمة، منهم ٣٤,٨٪ من البشانقة المسلمين ، و ٣٣,٠٨٪ من الكروات ، و ١٩٪ من الصرب ، و ١٠٪ من القوميات الأخرى . وتعتبر موستار من المدن التى يعيش فيها البشانقة المسلمين بأغلبية نسبية .

ومدينة موستار مركز لصناعات الألومنيوم والطائرات والنسيج والدخان ، وهى كذلك مركز مهم لإنتاج نباتات وفواكه وخضروات منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ولذا فقد تم إنشاء مصنع لتعليب الفواكه والخضراوات المحفوظة ، كما نشطت فى المدينة جامعة موستار ومكتبتها ودار الكتب ومصلحة السجلات ومتحف الهرسك ، علاوة على المسرح القومى وغير ذلك من المصالح والمؤسسات المتنوعة .

وكانت نواة مدينة موستار القلاع والجسر والسوق ، أى أنها لم تبرز كمدينة إلا خلال الحكم العثمانى لهذه المنطقة . وبعد ذلك سرعان ما نبتت الحياة البشرية والعمرانية فى شكل مساكن وجوامع وأحياء بحيث أصبحت المدينة وخصوصًا بعد جعلها مقرا لسنجق الهرسك آنذاك تحوى حوالى سبعة وثلاثين جامعًا وحيا ، وتسع مدارس ، وخمسة وثلاثين من الكتاتيب ، وثمانى نافورات ، ومائة وخمسين حنفية عمومية ، وثلاثة حمامات عمومية ، وتسع استراحات لعابرى السبيل ، ومائة وخمسين مكتبة خاصة وعامة للقراءة علاوة على الأضرحة والمقابر وما إلى ذلك . كما حفلت المدينة خلال فترة الحكم العثمانى بالعديد من العلماء والمتعلمين والشعراء ورجال الدولة وغيرهم ،

واشتهرت بكونها أفضل وأكبر مركز للثقافة ومقر للعلم فى البوسنة خاصة وفى كل منطقة البلقان الإسلامية حينذاك بوجه عام .

وتشتهر مدينة موستار بجسر السلطان سليمان العظيم أو الجسر القديم الذى تم الانتهاء من تشييده فى عام ١٥٦٦م ، وهو جسر كان يثير إعجاب الزائرين والمارين بجماله وفتنته وروعته . وقد تم تشييد هذا الجسر بأسلوب مدرسة المهندس المعمارى المشهور سينان الذى كان من أساطين العمارة الكلاسيكية العثمانية فى حينه . وقد تم العثور على وثائق مكتوبة تفيد بأن المهندس المعمارى خير الدين مساعد المهندس سينان هو الذى قام بالإشراف الهندسى على بناء هذا الجسر .

وعاشت مدينة موستار أيامًا عصيبة فى عهد الاحتلال النمساوى الهنغارى ، وكذلك فى عهد الملكية اليوغسلافية ، فقد تمت مصادرة الأراضى والأملاك والأوقاف وتم تنفيذ الإصلاح الزراعى فى البوسنة والهرسك دون غيرها من المناطق . وهكذا فى غمضة عين أصبح العديد من سكان موستار من البشانقة المسلمين فقراء معدمين . وتم إغلاق جميع المدارس فى وجه المسلمين وإهمال المدارس والكتاتيب الإسلامية ومُنيت الجوامع بإهمال لا مثيل له . ولم تلق المدينة معاملة أفضل فى عهد الحكم الشيوعى فقد اختفت وتهدَّمت الجوامع وتحطمت المآذن .

وكابدت المدينة أفظع مكابدة خلال الحرب الانتقامية الأخيرة بدءًا من أبريل عام ١٩٩٣م ، فقد قامت التشكيلات العسكرية الكرواتية والجيش الكرواتى بتدمير المبانى السكنية والمؤسسات ومختلف الآثار العريقة الموجودة بالمدينة . وقامت على مرأى من العالم كله بهدم جسر موستار القديم ، الأمر الذى أثار سخط الرأى العام العالمى والكرواتى أيضًا . كما قامت القوى الغاشمة نفسها بتدمير المجمع الكنسى الأرثوذكسى الموجود بالمدينة .

كانت توجد بمدينة موستار الجوامع والمدارس الإسلامية التالية :

١ - جامع قراقوز بك ومدرسته ، وقد تم التشييد فى الفترة من عام ١٥٥٧ وحتى عام ١٥٧٠م .

٢ – جامع كوسكي باشا ومدرسته ، وتم التشييد في حوالى عام ١٦٢٠م .

٣ – جامع تشيفان تشيهاى بك ومدرسته ، وقد تم التشييد فى حوالى عام ١٥٥٨م .

٤ – جامع درويش باشا بايزيد أغا ، وقد تم التشييد فى حوالى عام ١٦٠١م .

٥ – جامع روزنا ميدچى إبراهيم أفندى ، وقد تم التشييد فى حوالى ١٦١٢م .

٦ – جامع تاباتشيتش .

٧ – جامع نصوح أغا ڤوتشيا كوفيتش .

٨ – جامع الحاج ميمن ومدرسته ، وتم التشييد فى القرن السابع عشر .

٩ – جامع كامبر أغا .

١٠ – جامع الحاج ڤيلين .

١١ – جامع كوتلين .

١٢ – جامع بابا بشير ، وقد تم التشييد فى النصف الثانى من القرن السادس عشر .

ويقع جامع بابا بشير فى حى بالينوڤاتس الواقع فى أقصى الناحية الغربية من موستار . ويعد هذا الجامع من أقدم الجوامع فى هذه المدينة ، فهو مشيد فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وبالتحديد قبل عام ١٥٨٥م . وبالاطلاع على سجلات الإحصاء لسنجق الهرسك فى عام ١٥٨٥م . تبين أنه يوجد بمدينة موستار أربعة عشر حيا ، ومنها حى بشير أغا الذى يضم أربعة وثلاثين عائلة . وقد تشكل الحى ونما فى النصف الثانى من القرن السادس عشر حول جامع بشير أغا المشيد حديثًا ، فالجامع هو الأقدم عمرًا وحصل الحى على اسمه وفقًا لاسم الجامع .

ولم يتم العثور بأى شكل من الأشكال على أية معلومات عن شخصية بابا بشير أغا ولا على وصيته الوقفية أو ما شابه ذلك ، إلا أنه وفقًا للروايات الشعبية فقد قام

اثنان من عائلة باكاموفيتش : بابا بشير والحاج على بك لافو بتشييد جامعين بمئذنتين حجريتين .

وعلاوة على الأوقاف التى تركها بابا بشير للإنفاق من إيراداتها على الجامع وصيانته ، فقد أوقف أيضًا الدرويش محمد باكو فيتش بوصيته المؤرخة فى عام ١٨٣٨م ، بعض الأوقاف الأخرى لكى يقوم المسئولون عن الجامع بتوزيع الخبز على الفقراء وبقراءة القرآن وختمه على أرواح صاحب الوقفية وأسرته ، وكانت هذه من التقاليد المتبعة آنذاك .

وقد تم تشييد الجامع بالأحجار المهذبة وتغطيته بسقف ذى أربعة جوانب . وتوجد بجانب الجدار الأيمن مئذنة حجرية يبلغ ارتفاعها حوالى عشرين مترًا . ومساحة الجامع مستطيلة وتبلغ ٤٥ ,١٠×١٠ ,٦متر من الداخل ، أما المساحة الإجمالية بالفناء فتبلغ ٢٣٨ مترًا مربعًا . وتوجد على جدار المحراب أربع نوافذ ، وعلى الجدار الأيمن نافذتان ، وعلى الجدار الأيسر ثلاث نوافذ . ويزين ساحته الداخلية جناح جميل للحريم مصنوع من الأخشاب ويمتد بعرض الجامع كله .

وأجريت إصلاحات لعدة مرات للجامع . وتوجد فوق باب الدخول إلى المئذنة لوحة حجرية حجمها ٢٠×١٠ سم ومسجل عليها العام فقط ، ومنها يُعرف أنه فى عام ١١١٦هـ / ١٧٠٤م تم إجراء بعض الإصلاحات بالجامع أو بالمئذنة ، أو ربما تمت فى ذلك العام إقامة المئذنة . كما قام فى عام ١٩٣٤م الحاج إبراهيم أفندى ريبتسا التاجر والرئيس السابق لهيئة الأوقاف فى موستار - على نفقته الخاصة - بإجراء إصلاحات بالسقف المتهالك وترميمات بسيطة أخرى علاوة على طلاء الجدران الداخلية . كما أجريت فى عام ١٩٧٨م إصلاحات وتجديدات وترميمات أساسية بمبنى الجامع كله فيما عدا المئذنة وذلك باعتبار أن الجامع من الآثار المعمارية الإسلامية المهمة فى موستار .

وتم تشييد حجرة واسعة بالرواق الأيسر وكان يتم استخدامها لعقد دروس الدين. وتم توصيل المياه إلى الرواق الأيمن ، حيث يوجد فى أحد أركانه باب الدخول إلى

المئذنة ، وتشييد حوض من الأسمنت المسلح وتركيب حنفيتين لأغراض الاغتسال والوضوء . وقام بهذا العمل الخيرى الحاج خليل بينتولا وزوجته راضية من موستار .

ويقع جامع تشيفان تشيهاى بك ، المقام فى حوالى عام ١٥٥٨م ، على الشاطئ الأيسر لنهر نيرتفا بالقرب من الجسر القديم فى موستار . وخلافًا لما هو متبع عند إقامة الجوامع من تشييد المئذنة على الناحية اليمنى من المدخل وبجانب الجدار الأيمن للجامع فإن هذا الجامع يعد من الجوامع النادرة ، فقد تمت إقامة مئذنته على الجانب الأيسر من المدخل . ووفقًا لإحدى الروايات الشعبية ، فقد كان واقف هـذا الجامع عبدًا ، ثم أصبح عالمًا كبيرًا ومن كبار رجالات الدولة ، ثم واليًا على الهرسك ، ولذا فقد قام بتشييد المئذنة على اليسار حتى لا ينسى ما كان فيه وما أصبح عليه وحتى يتذكر على الدوام أن القضاء والقدر بيد اللَّه وحده .

وملحق بالجامع كُتَّاب ومدرسة يحملان الاسم نفسه . والمدرسة مشيدة بعد عام ١٥٥٨م ، وذلك لأنها غير مذكورة فى وصية الوقف المتعلقة بالجامع والكُتَّاب والصادرة فى عام ١٥٥٨م . وقد أقيمت المدرسة على شكل حرف " ل " وتضم أربع حجرات لإقامة التلاميذ وحجرة واحدة لإلقاء الدروس . والمدرسة والكُتَّاب مبنيان من الأحجار ولهما سقف خشبى مثل كثير من المبانى فى مدينة موستار . وقد تهدَّمت المدرسة فى عام ١٩٣٠م .

ومن الظواهر المعمارية الطريفة فى بعض جوامع موستار وجود أربعة جوامع لها مآذن صغيرة منفصلة إلى جانبها وهى جوامع : كامبر أغا ، والحاج بايزيد أغا ، والحاج فيلين ، وكوتلين . وهذه المآذن صغيرة فى حجمها ولا يتعدى ارتفاعها عدة أمتار ، ومشيدة بشكل منفصل تمامًا عن الجامع بالقرب من الشارع أو الممر على قاعدة بارتفاع حوالى مترين . ومن الخارج يوجد سلم بدرجات حجرية تقود إلى برج حجرى أيضًا وعادة ما تكون له ثمانية أضلاع . والنهاية العلوية للبرج مدببة ، وتوجد علامة حجرية عند القمة ، كما توجد فى نهاية البرج فتحات من جميع الجهات يستخدمها

المؤذن لرفع الأذان ، وفى بعض الأحيان كان الصوفية يلقون دروس الوعظ والدين من هذا المكان على سكان موستار من البشانقة أو يدعون العابرين لأداء الصلاة .

ومن البنايات الإسلامية القديمة فى موستار ما يسمى بزاوية بتشيفيتش الواقعة بالقرب من نهر نيرتفا . وهى مشيدة – حسب روايات الناس – فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتعتبر من أجمل البنايات التى تم تشييدها فى موستار فى عهد العثمانيين . وتتألف هذه البناية ، مثلها مثل باقى منازل الأثرياء ، من طابق أرضى وآخر علوى يحتوى على ديوانية واسعة . وهذه الزاوية أو الشرفة العلوية ترتفع حوالى عشرة أمتار عن الأرض وتستند على عمودين حجريين رشيقين . وهذه البناية فى الوقت الحالى ملك لأحفاد عائلة بتشيفيتش ، وقد تم إعدادها وتجهيزها وتجديدها مع الحفاظ على طابعها القديم بحيث تظهر كمتحف صغير ويتردد عليها البشانقة من سكان موستار من أجل احتساء المشروبات والسمر كما كان يحدث فى الأزمنة الخوالى .

كما يقع فى مدينة موستار جامع قراقوز بك وهو مشيد فى عام ١٥٥٧م ، وله قيمة فنية عالية ، وتوجد فى فناء الجامع مدرسة تحمل الاسم نفسه ، وهى تعد من أقدم وأهم المدارس الإسلامية فى موستار . ومن المرجح أنه تم إنشاء المدرسة فى الفترة من عام ١٥٥٧م . بعدما تم الانتهاء من إقامة الجامع وعام ١٥٧٠م حينما تمت كتابة وصية الوقف الخاصة بالبنايتين .

وقد لاحظ خبراء الآثار والعمارة أن أسلوب بناء المدرسة يحمل كل مميزات الأسلوب المعمارى لبناء المدارس العثمانية ، وأن الأسلوب المعمارى للبنايتين يشير إلى اشتراك عمال البناء الأتراك فى عملية البناء . وحيث إنه كان من النادر اشتراك عمال البناء الأتراك فى مثل هذه الأعمال الإنسانية فقد فسر الباحثون اشتراكهم فى بناء هذا الجامع والمدرسة بأن قراقوز بك كان من كبار المسئولين وشقيقًا للوزير الأكبر ، وكان فى الوقت نفسه مشرفًا على تشييد جسر موستار القديم ، كما هو مسجل كتابة على الجامع ، ولذا فقد كان من السهل عليه تكليف بعض عمال البناء الأتراك المشتركين فى إقامة الجسر العظيم فى موستار والمشيد فى الفترة ما بين

عام ١٥٥٧م وعام ١٥٦٦م بالمساهمة فى إقامة جامعه ومدرسته . كما يفترض الباحثون أنه من المرجح أن نفس مشيد جسر موستار القديم وهو المهندس المعمارى خير الدين قد أشرف هندسيا على إقامة جامع ومدرسة قراقوز بك ، وذلك بسبب ارتفاع قيمتها المعمارية والفنية ولأنه تم الانتهاء منهما فى العام نفسه الذى بدأت فيه الأعمال التمهيدية لتشييد الجسر . يضاف إلى ذلك حتمية وجود تعاون كبير بين خير الدين باعتباره المهندس المعمارى للجسر وقراقوز بك باعتباره المشرف الأول على أعمال تشييد الجسر .

والمدرسة مشيدة فى فناء الجامع بحيث إنها تعد منفصلة عنه انفصالاً كاملاً ، كما توجد إلى جانبها نافورة مياه لأغراض الشرب والاغتسال والوضوء . والحقيقة أن الجامع مع المدرسة فى فنائه وبجانبها النافورة التى تخدم الاثنين يشكلان كلاً معمارياً جميلاً . والمدرسة صغيرة نسبيًا فى حجمها ومساحتها ، فهى تشتمل على أربع حجرات للتلاميذ . وفى فترة لاحقة تمت إضافة حجرة لعقد الدروس ومكتبة للقراءة ، ولكن تم ذلك بأسلوب معمارى مشابه للبناء السابق بحيث إنهما يقفان معًا فى الصف نفسه مع الجامع فى تناسق رائع . ولا توجد أية زخارف بالجامع أو المدرسة .

والمكتبة العامة لها مكان مستقل فى إطار المدرسة ويقال إنه تم تشييدها فى عام ١٥٧٠م . ووفقًا لوصية الوقف فإن مدير الأوقاف كان بإمكانه أن يعير الكتب للقراء من البشانقة من سكان موستار برهان أو بضمان .

ويوجد فى موستار أيضًا جامع ومدرسة روزنا ميدچى إبراهيم أفندى ، وهو من سكان موستار ، إلا أنه تربى فى قصر السلطان بالقسطنطينية ، وكان يقوم – نسبة إلى اسمه – بكتابة الأحوال اليومية للسلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠م) . ويُنسب إليه أنه أول من أقام شبكة مياه فى مدينة موستار .

وتقع المدرسة فى مواجهة الجامع ، وتعد من أكبر المدارس الإسلامية فى موستار ، وهى مشيدة على شكل حرف " ل " . فهناك تسع حجرات للتلاميذ ذات مساحة مربعة وهى تشكل الذراع الأول ، وهناك حجرتان أكبر للمحاضرات ، وهما يشكلان الذراع

الآخر . ويربط الرواق بأعمدته الحجرية بين الذراعين ويرسم إطاراً حول فناء المدرسة وتوجد بكل حجرة مدفأة ، وتوجد بفناء المدرسة نافورة تعد من أكبر وأجمل النافورات فى موستار .

ووفقًا للبقايا الموجودة من الجدران فيمكن الحكم بأن المدرسة كانت مشيدة كبناية ضخمة من الأحجار المقطعة . ونلاحظ على الجدار الخارجى فتحات للنوافذ تم سدها بالبناء . ويلاحظ الشيء نفسه أيضًا فى مدرسة كوسكى باشا . وهذا يشير إلى أن هذه المدارس تمت إقامتها أولاً بنوافذ على الجدار الخارجى كما هى العادة فى المدارس العثمانية ، إلا أنه بسبب تزايد النمو العمرانى للمساكن فقد اقتربت البنايات السكنية اقترابًا شديداً من المدرسة وبالتالى ضاع الهدوء اللازم لمثل هذه المؤسسة التعليمية ، ومن أجل ذلك تم سد النوافذ المواجهة للشارع وتم فتح نوافذ جديدة تجاه الفناء ، حيث يتوفر الهدوء المطلوب .

أما محمد كوسكى باشا الذى عمل كاتبًا للأحوال اليومية ، أى مؤرخًا ، للوزير الكبير لالا محمد باشا سوكولوفيتش ، فقد أقام جامعًا وفى مواجهته مدرسة فى فنائه فى حوالى عام ١٦٢٠م . وتتوسط النافورة الموجودة فى الفناء الجامع والمدرسة . وقد أقيمت البنايتان على الجانب المنحدر لشاطئ نهر نيرتفا . ورغم أن المدرسة تهدمت فى عام ١٩٥١م فإن بقايا جدرانها والصور المحفوظة لها تقدم معلومات كافية عنها .

وجامع الحاج ميمين الواقع فى حى تسرنيتسا بمدينة موستار مشيد فى القرن السابع عشر ، ويوجد فى فنائه كُتَّاب يعد نموذجًا متميزاً لهذا النوع من الكتاتيب ، إلا أنه لمْ يتم التيقن مما إذا كان الكُتَّاب قد نشأ فى التاريخ نفسه أو لا . ويطلق بعض الناس على الجامع نفسه اسم جامع تسرنيتسا .

والكُتَّاب مكون من فصل واحد فحسب ، وأبعاده من الداخل ٤×٥ أمتار بارتفاع ٢,٥ متر . وهو مشيد من الأحجار المهذبة وسقفه خشبى مستو ومغطى بالبلاط الحجرى مثل البنايات الأخرى فى الهرسك . وهناك تجويف فى الجدار على شكل دولاب وكان يستخدم مخزنًا للكتب اللازمة للدراسة .

مدينة ڤيشيجراد :

تبعد مدينة ڤيشيجراد عن سرايفو بمائة وعشرة كيلو مترات . ويعيش فيها ٢١٢٠٢ نسمة ، منهم ٦٢,٨٪ من البشانقة المسلمين ، و ٣٢,٨٪ من الصرب ، و٠,٢٪ من الكروات ، و ١,٥٪ من القوميات الأخرى . وتعد ڤيشيجراد من المدن التى يعيش فيها البشانقة المسلمون بأغلبية مطلقة .

وتشتهر مدينة ڤيشيجراد بالجسر الحجرى الكبير المقام على نهر درينا ، وهو جسر له قيمة معمارية كبيرة وينفرد بجماله وروعته . وكثير من المدن التى تتفوق على ڤيشيجراد فى ثرائها وتجارتها لا تملك مثيلاً لهذا الجسر .

والحقيقة أن الجسر نشأ فى ذلك المكان الذى يعد أنسب مكان لعبور نهر درينا منه . ومنذ وجد الرومان فى هذه المنطقة وعبر كل العصور الوسطى دعت الحاجة إلى وجود مثل هذا الجسر على نهر درينا وظهرت أهمية إقامته وتعاظمت هذه الأهمية بعد انضمام هذه المنطقة إلى الإمبراطورية العثمانية التى توفرت لها القدرات الهندسية والمادية والبشرية لتشييد مثل هذا الجسر الذى يعد الممر الوحيد الدائم والمضمون على مجرى نهر درينا . وبعد إنشائه ربط بين البوسنة وسائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية المترامية ، كما كان ولا يزال هو المعبر الحيوى بين البوسنة والأراضى الصربية المجاورة لها .

وقد أقام هذا الجسر الفريد الوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفيتش المولود فى أوائل القرن السادس عشر بقرية سوكولوفيتش على مسافة غير بعيدة من مدينة ڤيشيجراد . وقد تم نقله إلى القسطنطينية فى صغره حيث تربى وترعرع وتعلم . وبفضل كفاءاته النادرة ونبوغه الشديد ترقى سريعًا إلى منصب الوزير الأكبر وتربع فيه لمدة خمسة عشر عامًا خلال عهود ثلاثة من السلاطين العثمانيين . وفى النهاية وقع ضحية للاغتيال فى عام ١٥٧٩م .

وفى لمسة وفاء من الوزير الأكبر لبلدة مسقط رأسه أمر بإقامة هذا الجسر الكبير على نهر درينا على نفقته الخاصة وبأحدث الأساليب الممكنة وأفضل الإمكانات المتاحة . وذلك علاوة على إقامته بالمدينة نفسها جامعاً واستراحة للمسافرين وشبكة مياه . وكان قد شيد من قبل العديد من المشروعات الخيرية فى القسطنطينية وبدرينا وحلب والمدينة وفى أنحاء كثيرة من منطقة البلقان .

ويعد الجسر إنجازاً معماريا لواحد من أكبر المهندسين المعماريين فى الإمبراطورية العثمانية فى عصره وهو المهندس سينان . والمشروعات التى نفذها سينان والمبانى التى أقامها تضعه فى مصاف كبار المهندسين المعماريين فى تاريخ فن العمارة عموماً وفى الفن المعمارى العثمانى بشكل خاص . وقد أقام فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف الكثير من المشروعات العمرانية والمبانى ومن بينها إقامة ثمانية جسور كبيرة . ويعد الجسر المقام على نهر درينا فى فيشيجراد هو إنجازه الأخير من هذا النوع . وتتجمع وتتركز فى هذا الجسر كل خبرات وتجارب المهندس سينان ومعارفه الثرية حتى ذلك الحين وقد بلغ من العمر ثمانين عاماً .

ويرى كثير من الخبراء فى هذا المجال أن الأهمية الفنية المعمارية للجسر المقام على نهر درينا تعادل أهمية تلك المبانى التى أقامها كبار الفنانين الإيطاليين من عصر النهضة مثل برامانت وميخائيل أنجلو . وكل هذا يؤكد أهمية وعظمة الإنجاز المعمارى الكبير الذى قام به كل من محمد باشا سوكولوفيتش والمهندس سينان .

ويستند الهيكل الرئيسى للجسر على عشرة أعمدة حجرية قوية ذات أحجام متساوية . ويبلغ الطول الإجمالى للجسر ثلاثمائة متر ، ويبلغ عرضه ستة أمتار مع ارتفاع بسيط فى وسطه ، وهو أمر كان مألوفاً فى الفن المعمارى للجسور العثمانية حينذاك . ويحتضن الجسر من ناحيتيه إفريز حجرى يرتفع إلى متر واحد ، ويبلغ عرضه ستين سنتيمتراً . وتتوسط الجسر بوابة حجرية عالية مسجلة عليها أبيات من الشعر من تأليف الشاعر العثمانى بديع ، وذلك علاوة على إشارة إلى اسم مشيد

الجسر ولقبه وأصله ، وإلى العام الذى تم فيه تشييد الجسر وهو عام ٩٧٩ هجريا الموافق ١٥٧١ ميلاديا .

وقد نشأت منذ البداية رابطة حميمة بين هذا الجسر وبين حياة سكان مدينة ڤيشيجراد من البشانقة واستمرت لقرون تالية . وتداخل وتشابك مصير هذا الجسر مع مصير المدينة بحيث لا يمكن لأحد أن يتخيلهما منفصلين . فالقصة الحقيقية لحياة المدينة وحياة سكانها البشانقة عبر الأجيال المختلفة المتتالية لم تبدأ إلا مع نشأة الجسر ولم تستمر إلا به ومن خلاله . فجميع الروايات والأقاصيص ، بل والأساطير التى تروى عن هذه المدينة وعن سكانها لا يصلها ببعضها ولا ينظمها إلا خيط الجسر الحجرى بقناطره الإحدى عشرة وببوابته فى وسطه كأنها تاج يعلو رأسه . ومن خلال الجسر وعبره تتشابك الحكايات عن التغيرات والأحداث التاريخية والوقائع المصيرية ، وعن أشخاص ارتفعوا وآخرين سقطوا ، وعن هزات أصابت المدينة وسكانها . وهكذا فعلى الجسر أو بجانبه يمضى مسلسل تاريخى للحياة بقلقها وانفعالاتها ، وللبشر بصعودهم وهبوطهم ومصائرهم المضطربة .

وسرعان ما نمت مدينة ڤيشيجراد بعد إقامة الجسر على نهر درينا ، وظلت منزلته عبر القرون التالية فى قلوب سكان المدينة ، وتثبت معناه فى حياتهم .. وهو معنى يشتمل على البقاء والديمومة . فالقمر أعلاه يكبر ويصغر والأجيال حوله تتوالد وتفنى وهو باق دون تغير كتلك المياه التى تجرى أسفل قناطره . وإذ كان الهرَم والكبر قد أصاباه فإن شيخوخته تدلف إليه من مقياس زمنى يفوق أعمار الكثير من الأجيال بحيث إنه لا يمكن للعين أن تلحظ تقدمه فى العمر . وعلى الرغم من أن جميع من رأوا الجسر أدركوا أن مصيره إلى فناء وزوال فإنهم فى قرارة أنفسهم يشعرون بأن حياته تبدو خالدة لأنهم لا يستطيعون التنبؤ بنهايته .

وتشير المراجع إلى أن جسر ڤيشيجراد قد وقف صامداً فى وجه أقوى الظواهر المائية الطبيعية ، فقد اجتاز محنة فيضان نهر درينا فى خريف عام ١٨٩٦م . وكان ضحية لأعمال التدمير خلال الحربين العالميتين ، إذ أصاب النمساويون أحد أعمدته

خلال انسحابهم فى عام ١٩١٤م من أمام الجيش الصربى بهدف إعاقة تقدم أفراد الجيش الصربى . وللأسباب نفسها قام الجيش الصربى فى عام ١٩١٥م بتدمير أحد أعمدة الجسر حتى يتمكن فى سلام من الانسحاب أمام الهجوم النمساوى . ونظراً لأهمية الجسر قام النمساويون بإجراء الإصلاحات والتجديدات اللازمة له فى عام ١٩٤٠م ، إلا أنه أصيب مرة أخرى فى المكان نفسه فى عام ١٩٤٣م خلال الحرب العالمية الثانية وتم الانتهاء من إصلاحه فى عام ١٩٥٢م ، غير أن الأيادى الغاشمة أصابت الجسر فى عدوانها الأخير على البوسنة فى عام ١٩٩٢م .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن الجسر المقام على نهر درينا هو البطل الحقيقى والشخصية الرئيسية فى الرواية المشهورة والمعروفة باسم "جسر على نهر درينا" التى كتبها الأديب البوسنى إيڤو أندريتش فى عام ١٩٤٥وصور فيها بطريقته الخاصة أربعة قرون من حياة مدينة ڤيشيجراد وجسرها تبدأ من القرن السادس عشر وتنتهى بالحرب العالمية الأولى . وهذه الرواية هى الأساس الذى دفع اللجنة العالمية إلى منح أندريتش جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٦١م .

ومن الحتم فى هذا المضمار أن ننوه هنا إلى أن الأديب البوسنى إيڤو أندريتش قد تعرض إلى هجمات حادة وانتقادات شديدة من جانب كثير من النقاد وذلك بسبب قتامة الصورة التى قدمها فى روايته المذكورة عن بناء الجسر على نهر درينا . واتهمه البعض منهم بتحريف الأمور وتشويه حقائق التاريخ والمبالغة غير اللازمة فى وصف أساليب السخرة التى يزعم أن العثمانيين قد استخدموها فى إقامة الجسر وذلك بهدف التعمد فى إثارة الخوف والرعب من العثمانيين . كما دحض كثير من النقاد ما ذكره أندريتش فى روايته بأنه تم تشييد الجسر بالسخرة ودللوا على ذلك بأنه عند إقامة مشروع أو عمل خيرى يتحتم على فاعل الخير أن يدفع للعامل أجره قبل أن يجف عرقه واستشهدوا على ذلك بالعديد من المراجع والقصائد الشعبية التى خلدت هذا الجسر الفريد . وارتأوا أنه كتب هذه الرواية لأغراض سياسية تعصبية تهدف إلى نسب كل الأمور السلبية والسيئة إلى الأتراك العثمانيين وبالتالى إلى البشانقة المسلمين .

والحقيقة أن جمال مدينة ڤيشيجراد لا ينحصر فى جسرها المشهور الرائع وإنما أيضًا فى آثارها الإسلامية وخصوصًا جوامعها التى تتميز بمآذنها الهيفاء المتجهة صوب السماء ، كما تنفرد بأسلوب بنائها الشرقى الرائع والبسيط فى آن واحد ويبرز هنا جامع السلطان بمئذنته الحجرية الجميلة بشكل غير عادى والميضأة ومكان الاغتسال والكُتَّاب الموجود بجانب الجامع نفسه ، وكذلك بموقعه المتميز تزينه وتحيط به الزهور من جميع الجهات . وتحفل الساحة الداخلية للجامع بالزخارف البديعة ، علاوة على المنبر وجناح الحريم والمدخل المغطى بالزجاج ، أما جامع غضنفر فهو يقع فى وسط المدينة ويمثل قيمة ثقافية وتاريخية حقيقية ، وله مئذنة خشبية بها نوافذ شرقية وحفر على الخشب أمام باب الدخول .

مدينة توذلا :

مدينة توذلا هى مركز المنطقة الواسعة لجنوب شرق البوسنة ، التى تحدها أنهار درينا من الشرق والبوسنة من الغرب وسافا من الشمال . كما تقع المدينة نفسها على نهير يالا وفى الوادى الواسع لنهر سبديتشا . وقد جرى ذكر المدينة لأول مرة فى كتابات المؤرخ قنسطنطين بورفريجنت فى منتصف القرن العاشر . وقد أطلق عليها فى عهد الرومان اسم "ساليناتس" بمعنى مخازن الملح حيث إنه كانت تتوفر فيها الملاَّحات .

وفى القرون الوسطى كانت توذلا مستوطنة فى مقاطعة سولى من الدولة البوسنية . وفى الفترة من عام ١٢٨٢ إلى عام ١٣١٦م كانت تابعة للملك الصربى دراجوتين بيمانيتش . وبعد انهيار الدولة البوسنية قامت توذلا – بمساعدة هنغاريا – بمقاومة الأتراك العثمانيين فى الفترة من عام ١٤٦٣ وحتى عام ١٥١٢م . إلى أن سيطر عليها العثمانيون وأطلقوا عليها اسم توذلا بمعنى "الملاَّحة" . وكما هو واضح فعلى طول تاريخها ارتبطت المدينة واسمها بالملاَّحات الموجودة بها .

ويعيش في مدينة توزلا حوالي ١٣١٨٦١ نسمة ، منهم ٥٠,٦٪ من البشانقة المسلمين ، ويتساوى فيها عدد الكروات والصرب بنسبة تبلغ ١٥,٦٪ لكل منهما ، و١٣,٦٪ من القوميات الأخرى . وتعد توزلا من المدن التي يعيش فيها البشانقة المسلمون بأغلبية مطلقة .

وتوجد في هذه المدينة أكبر احتياطي للملح والفحم وغيرها من المعادن (الأسبستوس وما شابه ذلك) . وهي مركز كبير للصناعات الكيميائية في البوسنة والهرسك . وتضم الجامعة ومكتبتها والدار القومية للكتب علاوة على العديد من المؤسسات والمصالح الحكومية والعلمية والثقافية والفنية الأخرى ، بالإضافة إلى المسرح القومي ومتحف شمال شرق البوسنة وصالة ممتازة لعرض الصور .

ومن الجوامع الشهيرة فيها جامع يالسكي . وكان يوجد في المكان نفسه من قبل جامع محمد أغا المتواضع المشيد في عام ١٦٠٠م . ومن الحكايات الشعبية الطريفة عن هذا الجامع يقال إنه في إحدى السنوات (لا يعرف أية سنة على وجه التحديد) قامت فتاة مجهولة بالإنفاق من مهرها على تجديد وترميم الجامع ومنذ ذلك الحين وهو يحمل اسم جامع كيزلر – جامع الفتاة .

وفي عام ١٨٩٠م أجريت به إصلاحات وتجديدات كاملة وشاملة بمعرفة السيدة حفيظة هانم توذليتش ، وسرعان ما أطلق الناس اسمها على الجامع فأصبح جامع حفيظة هانم ، إلا أنها لم تعش حتى انتهاء أعمال التجديد بسبب وفاتها المفاجئة . وتم الانتهاء من هذه الأعمال في عام ١٩١٠م وفقًا لوصيتها .

وجدير بالذكر أنه كان يقوم بأعمال التجديدات عمال بناء من الإيطاليين الذين هدموا المئذنة وشيدوها من جديد . وحيث إن درجات السلم المؤدية إلى المئذنة كانت بالية ومستهلكة ، فقد قام العمال الأجانب بقلبها على الوجه الآخر فأصبحت تصعد بك في اتجاه اليسار بدلاً من اتجاه اليمين كما هي الحال في جميع الجوامع الأخرى . وبذلك أصبح هو الجامع الوحيد الذي تتجه فيه درجات السلم الموصلة إلى المئذنة ناحية اليسار .

ولهذا الجامع أهمية خاصة فى توزلا حيث كان يتم فيه الدخول فى نية الحج ، كما يتم منه توديع الحجاج البشانقة المتجهين إلى بيت اللّه الحرام . وفى الآونة الأخيرة أطلق عليه الناس اسم جامع ياسكى لوقوعه مباشرة بجانب نهر يالا . وإذا استثنينا مئذنته الهيفاء الجميلة فليس للجامع أية أهمية معمارية كبيرة .

مدينة زينتسا :

تعتبر مدينة زينتسا مدينة صناعية ومركزًا عمرانيا كبيرًا بوسط البوسنة ، وهى تقع فى المجرى الأوسط لنهر البوسنة . وهى أيضًا مركز للتعدين وللصناعات الثقيلة مثل صناعة المعادن والحديد والصلب ، إذ إنها تنتج ما يزيد على مليونين من الأطنان من الحديد والصلب سنويا إلى جانب إنتاج مناسب من جميع أنواع قوالب الصلب ، وعلاوة على ذلك يوجد بها كثير من مناجم الفحم من نوعية ممتازة . وبالإضافة إلى أهميتها الصناعية فلهذه المدينة أهمية تجارية حيث إنها منطقة عبور للتجارة .

ومدينة زينتسا مركز ثقافى وتعليمى إذ توجد بها كلية لصناعة الصلب والتعدين ومسرح قومى ودار للكتب ومتحف وعديد من المؤسسات والمصالح العلمية والثقافية . ووفقًا لتعداد عام ١٩٩١م يعيش فى زينتسا ١٤٥٥٧٧ نسمة ، منهم ٥٥,٢٪ من البشانقة المسلمين ، و ١٥,٦٪ من الكروات ، و ١٥,٥٪ من الصرب ، و ١٠,٨٪ من القوميات الأخرى ومنهم عدد كبير من البشانقة المسلمين . وتعد زينتسا من المدن التى يوجد فيها البشانقة المسلمون بأغلبية مطلقة .

وفى الفترات السابقة حصلت مدينة زينتسا على أسماء مختلفة ، وخلال الحكم الرومانى كان اسمها "بيستوا الجديدة" خلافًا لمدينة "بيستوا القديمة" ، وهى راما عند كونيتسا فى منطقة الهرسك .

وكانت بوريد (مدينة زينتسا فيما بعد) مدينة سلافية مشهورة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وموقعها فى بولينو بولى . ويتم ذكر هذه المدينة لأول مرة

فى وثيقة فى أبريل من عام ١٢٠٣م ، ويجرى فيها الحديث عن اجتماع زعماء البوجوميليين الذين تخلوا عن ديانة البوجوميلية أمام قسيس القصر البابا إينوتسنتيا الثالث - إيڤان كاسيماريس .

كما جرى ذكر مدينة زينتسا فى الوثائق المكتوبة فى ١٤٣٦/٣/١٦م . حينما أرسل مجلس الشيوخ بجمهورية دوبروفنيك المبعوث ماروى جوركوفيتش إلى القائد التركى باراك لكى يقوم بزيارة له ويمنحه هدية قدرها خمسمائة "بربر" شريطة أن يبحث عنه عند بودفيسيكو أو زينتسا فى البوسنة ... وفى حالة عدم وجود هذا القائد التركى هناك فعليه أن ينتظره عند منطقة "فره بوسنة" حيث سيعود .

وخلال فترة الحكم العثمانى كان يطلق على مدينة زينتسا اسم بوريد (نسبة إلى كلمة "بروديتى"، أى عبور النهر) ، وذلك بسبب العبور على نهر البوسنة من هذا المكان . وهكذا كانت أيضًا تسمى هذه المنطقة باعتبارها وحدة إدارية مركزها فى زينتسا . وفيما بعد حصلت على اسم "بوسنة برود" حتى يمكن تمييزها عن منطقة سلافونسكى برود فى سنجق (مديرية) بوجيشكى . وفى الوقت الحالى يحمل أحد أحياء مدينة زينتسا اسم "برودا" نسبة إلى كلمة "بروديتى" المذكورة سابقًا .

وهناك ثلاث روايات تتعلق بأصل ومنشأ اسم زينتسا . والرواية الأولى تتحدث عن حكاية شعبية توارثتها الأجيال مفادها أن الملك ستيبان توماشيفيتش والملكة يلينا عند هربهما من الأتراك العثمانيين من مدينة بوبوفاتس وصلا إلى منطقة جورنيا زينتسا حيث أخذا يستريحان من عناء السفر . وبهذه المناسبة قال الملك ستيبان عبارته المشهورة : "بقيت حدقة عينى" تعبيرًا عن وصوله سالمًا . وحدقة العين فى اللغة البوسنية تعنى زينتسا . وحسبما يذكر فمنذ ذلك الحين يطلق على هذه المنطقة اسم زينتسا . وفيما بعد اتسعت هذه المنطقة حتى امتدت إلى سهل نهر البوسنة حيث توجد مدينة زينتسا الحالية .

إلا أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة ، وذلك لأنه تم تاريخيا إثبات أن الملك ستيبان والملكة يلينا قد هربا من مدينة بوبوفاتس إلى مدينة يايتسى أمام الأتراك

العثمانيين فى أواخر شهر مايو من عام ١٤٦٣م ، أى بعد سبعة وعشرين عامًا من التاريخ الذى يعرف أنه تم فيه لأول مرة ذكر اسم منطقة زينتسا وهو عام ١٤٣٦م .

والرواية الثانية بشأن أصل اسم مدينة زينتسا تقوم على اعتقاد سائد بأن زينتسا حصلت على اسمها بسبب تشابه موقعها الجغرافى فى الوادى وتحيطها التلال من جميع الجهات مثل موقع الحدقة فى العين .

وتقوم الرواية الثالثة على أن اسم مدينة زينتسا جاء من كلمة زوف وهى تعنى شجرة البيلسان ، وكانت المنطقة التى تقع فيها مدينة زينتسا الحالية مكتظة بهذا النوع من الأشجار . ومن كلمة زوف نشأت كلمات : زوفيك - بزوفيك - بزينيتسا ومنها أتت كلمة زينتسا . وفى الوثائق التركية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يتم ذكر اسم مدينة إزينتسا .

وخلال عصور التاريخ المختلفة حصلت مدينة زينتسا على أدوار متباينة تنبع من اهتمام السلطات بها من عدمه ، ففى عهد الرومانيين وخلال حكم حكام البوسنة فى القرون الوسطى ، وكذلك فى أثناء الحكم العثمانى وبعده فى عهد الحكم النمساوى الهنغارى لم يكن لمدينة زينتسا أهمية كبيرة أو دور خاص . واقتصرت أهميتها على الدوام على النطاق المحلى فحسب ولم تتجاوز أبدًا إطاره ، فخلال حكم الرومانيين كانت بلدية ، وفى عهد الحكام البوسنيين فى القرون الوسطى لم تكن مركزًا للمنطقة ، وفى أثناء الحكم التركى لم تبلغ إلا مستوى مدينة صغيرة . وخلال العهد النمساوى الهنغارى كانت زينتسا مركزًا للمنطقة ، وفى عهد يوغسلافيا الملكية كانت مركزًا للمحافظة .

ونظرًا لأن زينتسا لم تشكل فيما مضى وحدة إدارية أو اقتصادية أو ثقافية أو سياسية كبيرة ، لذا فلم يتم بها تشييد مبان ضخمة ، سواء على الطراز الشرقى أو الغربى . ولهذا السبب لا نجد فى مدينة زينتسا ولا حتى فى ضواحيها - فى الفترة الزمنية السابقة - جامعًا أو مسجدًا أو أى مبنى آخر مزينًا بقبة أو زخارف أثرية . ويحصل المرء على انطباع بأن الأغلبية العظمى من المبانى التى تحمل طابعًا مقدسًا

لدى البشانقة المسلمين فى هذه المنطقة تم تشييدها بالجهود الذاتية المشتركة من جانب سكان المنطقة .

ومن الطريف اكتشاف عدم الحفاظ على أية وقفية لأى من هذه المبانى ذات الطابع الدينى ، وهو أمر تسهل معرفته من التقرير الختامى للأوقاف فى البوسنة والهرسك لعام ١٨٨٩م . ولكن على الرغم من أن هذه المبانى ذات الطابع الدينى ليست كبيرة فى حجمها وتخلو من الزخارف المعمارية فإن العنصر الإيجابى فى وجودها يتمثل فى التوافد الكبير المنتظم للمصلين لا يوم الجمعة فحسب ، ولكن أيضًا فيما عداه من الأيام وخصوصًا فى شهر رمضان المعظم ، وهذا يشكل ميزة كبيرة تتميز بها عن باقى الأماكن الأخرى فى البوسنة والهرسك .

وفى عهد يوغسلافيا الاشتراكية الاتحادية زادت أهمية ودور مدينة زينتسا وتغير وجهها العمرانى وتجاوزت إطارها الإقليمى ، وتحولت إلى مدينة معاصرة بعد أن كانت مدينة صغيرة وذلك عن طريق تنفيذ العديد من المشروعات العمرانية الكبيرة .

وقد تم خلال الحكم العثمانى لمنطقة البوسنة تشييد خمس جوامع فى مدينة زينتسا ، وهى : جامع السلطان أحمد ، جامع سيمين ، جامع كوتشيفسكا ، جامع عثمان شلبى (بوتوتشكا) وجامع ياليسكا .

ولا تتوفر إلا معلومات ضئيلة للغاية عن تطور ونمو مدينة زينتسا خلال الحكم العثمانى ، وبعد استقرار السلطة العثمانية أصبحت مدينة زينتسا مركزًا لمنطقة بوسنة برود ومقرا لدائرة القضاء . وأقيمت فيها وتطورت خمسة أحياء حول الجوامع الخمسة التى تحمل الأسماء نفسها . وفى المنطقة الممتدة بين هذه الجوامع ولمسافة عدة أمتار على طول نهر البوسنة تمت إقامة السوق الذى نما وتطور بحيث أصبح المركز الاقتصادى والإدارى للمدينة .

وهناك أثر فى هذه المدينة ، ربما رجع تاريخه إلى الأيام الأولى للحكم العثمانى فى زينتسا ولا زال موجوداً حتى وقتنا الحالى . ذلك أنه عند المكان الذى فيه يصب نهر

بابينا فى نهر البوسنة وعلى الشاطئ الأيمن لنهر البوسنة يوجد مكان يسمى "بالمصلى" . وفى هذا المكان أقيم أول مكان لإقامة الصلاة للبشانقة المسلمين . وفيما بعد قبل أربعين عامًا تم استخدام هذا الموقع كمكان رئيسى لمقابر المسلمين . وأحيط هذا المصلى بسور حجرى يبلغ ارتفاعه ارتفاع قامة رجل وتم تخصيصه للقاءات الجماهيرية فى الاحتفالات ، وكذلك لإقامة صلاة الجماعة فى أوقاتها المفروضة ، وللمصلى محراب فى الجنوب الشرقى ومنبر فى الجانب الأيمن من السور . ومن أجل الإمام تم وضع لوح حجرى حافل بالزخارف المحفورة على شكل مجسم لسجادة الصلاة ، وقد أعيد إصلاح وترميم هذا الأثر النادر .

وعند الناحية الجنوبية من سوق زينتسا ، وعلى بعد خمسين مترًا من نهر البوسنة يوجد جامع زينتسا الرئيسى .. جامع السلطان أحمد والمشهور أكثر لدى البشانقة باسم "جامع السوق" .

وأقدم وثيقة مكتوبة عن هذا الجامع يمثلها النص المنقوش على اللوح الحجرى الموضوع عند سفح مئذنة جامع سيمين ، وهذا النص مكتوب باللغة التركية ويتحدث عن تجديد جامع السلطان أحمد (مسجد السوق) فى عام ١٥٠٦م ، وهذا يعنى أنه قبل السنة المذكورة ، حينما تم إجراء التجديد ، كان يوجد فى منطقة السوق جامع يرجح أنه تم تشييده فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر . ونظرًا لأن الأتراك العثمانيين استولوا على زينتسا فى عام ١٤٦٣م ، فإن الجامع الأصلى لا بد أن يكون قد تم تشييده فى العقد الأول أو على الأكثر فى العقد الثانى من الحكم العثمانى لهذه المنطقة ، وبناء عليه يمكن وضع هذا الجامع فى عداد أقدم الجوامع فى البوسنة والهرسك . وهذه المعلومة توضح أفضل توضيح أهمية زينتسا فى الفترة المبكرة من الحكم العثمانى لهذه المناطق . وبعد التجديد المذكور حصل الجامع على اسم جامع السلطان أحمد ، وهو الاسم المعروف به حتى يومنا هذا .

مدينة تراڤنيك :

تعد مدينة تراڤنيك من المدن التاريخية العريقة فى البوسنة والهرسك ، فهى أقدم المدن فى وادى نهر لاشفا ، وكانت آهلة بالسكان منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، أى فى العصر الحديث . ونشأت فى ذلك الحين مناطق سكنية وتضخمت فى جميع أنحاء وادى نهر لاشفا وفروعه . وبقيت حتى الآن قلاع محصنة كثيرة ترجع إلى هذا العهد . وخلال الحكم الرومانى لهذه المنطقة ازدادت قيمة أهمية تراڤنيك بسبب موقعها كملتقى للطرق وثرواتها الطبيعية ونتيجة لذلك تطورت ونمت اقتصادياً ، يضاف إلى ذلك أن الرومان عرفوا تنقية الذهب من رمال نهر لاشفا .

ويرجع الباحثون أن اسم مدينة تراڤنيك ظهر فى القرون الوسطى خلال حكم الدولة البوسنية ، ويرون أن اسم المدينة أصله كلمة "تراڤا" التى تعنى العشب أو الكلأ ، و "تراڤارنيك" هو اسم الموظف الذى يقوم بتحصيل ضريبة الكلأ من أصحاب قطعان الماشية التى ترعى بهذه المنطقة . ونظراً لأن هذا المحصل كان موقع عمله فى هذا المكان فمن المفترض أنه من اسم محصل الضريبة "تراڤانيك" نشأ اسم تراڤنيك للمنطقة السكنية الموجودة حينذاك ، والتى نمت وأصبحت مدينة .

وجرى ذكر مدينة تراڤنيك لأول مرة فى عام ١٤٦٣م فى الوثائق التركية بعدما استولى السلطان العثمانى محمد الثانى على البوسنة وتوقف بجيشه بالقرب من أسوار تراڤنيك لفترة وجيزة عند عودته من غزوته الناجحة فى طريقه إلى إسطنبول .

وعاشت مدينة تراڤنيك عصرها الذهبى خلال الحكم العثمانى فقد أصبحت مركزاً عسكريا للعثمانيين وقاعدة انطلاق لجنودهم لغزو مناطق الجنوب الغربى ، علاوة على كونها مركزاً لتزويد الحاميات العثمانية بالسلاح والذخيرة . وتزايدت أهمية مدينة تراڤنيك بعدما أصبحت مقرا لإقامة ولاة السلطان والوزراء ممثلى السلطان فى الفترة من عام ١٦٩٩ وحتى عام ١٨٥١م ، كما أصبحت تراڤنيك مركزاً دبلوماسيا ومقرا لأول القناصل الغربيين فى البوسنة والهرسك خلال فترة الحكم العثمانى لها ، حيث افتتحت فرنسا قنصلية لها فى عام ١٨٠٧م ، ثم النمسا الهنغارية فى عام ١٨٠٨م .

وهكذا تشابكت مصالح الشرق والغرب وجرت اتصالات مباشرة بين حضارتيهما على أرض مدينة تراڤنيك .

ووفقًا لتعداد عام ١٩٩١م فإنه يعيش فى مدينة تراڤنيك ٧٠٤٠٢ نسمة ، منهم ٤٥,٣٪ من البشانقة المسلمين ، و ٣٦,٩٪ من الكروات ، و ١١٪ من الصرب ، و٥,٢٪ من القوميات الأخرى . وتعد تراڤنيك من المدن التى يعيش فيها البشانقة المسلمون بأغلبية مطلقة .

وتحفل مدينة تراڤنيك بالآثار التاريخية والإسلامية من جوامع ومدارس إسلامية ، وكتاتيب وتكيات ونافورات للوضوء وأسبلة وحمامات عمومية وأبراج للساعات واستراحات لعابرى السبيل وأسواق وغيرها .

ومن أشهر هذه الجوامع جامع السليمانية أو الجامع المزركش الواقع فى وسط المدينة وفى وسط السوق السفلى . ومن الطريف أن الغازى أغا أقام فى هذا المكان نفسه جامعًا فى عام ١٧٥٧م . وفيما بعد أجرى به تشاميل (كامل) أحمد باشا إصلاحات وتجديدات كبيرة ، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم جامع "التشاميلية" . وبهذه المناسبة أقام أسفله سوقًا كبيرًا يضم سبعة وعشرين حانوتًا ، وأضاف لمسات جمالية على النافورة والميدان الموجودين أمامه . وكان يتم الإنفاق على الجامع وصيانته من إيرادات هذه الحوانيت ، إلا أنه احترق فى عام ١٨١٥م . وقام سليمان باشا سكوبلياك فى عام ١٨١٦م بإصلاحه وتجديده ونسبة إلى اسمه تمت تسميته بجامع السليمانية . ونظرًا للزخارف الجميلة الكثيرة التى تزين جدرانه الخارجية وتجعل منه أجمل جوامع البوسنة وأكثرها قيمة فقد تمت تسميته بالجامع المزركش .

ومن المميزات الخاصة بهذا الجامع وجود مئذنة على الجانب الشرقى بدلاً من وجودها على الجانب الغربى كما هى العادة فى الجوامع الأخرى ، وكذلك وجود - وفقًا للمعتقدات الشعبية - عدة شعرات من لحية النبى ﷺ ، وهى شعرات أهداها إلى الجامع سليمان باشا سكوبلياك وكان قد حصل عليها كوسام عسكرى من السلطان نظير إنجازاته العسكرية الجليلة .

وتوجد أيضًا بمدينة تراڤنيك مدرسة إلتسى إبراهيم باشا المشيدة فى عام ١٧٠٦م . وتذكر وصية الوقف المؤرخة بالعام نفسه أن الحاكم البوسنى السابق إبراهيم باشا أقام فى حى "أوسوى" مدرسة تضم حجرة للدرس والمحاضرات وست حجرات للدراويش والتلاميذ ثم تكية وكُتَّابًا . والمدرسة متواضعة فى بنائها ومشيدة من الأخشاب على شكل حرف " ل " . وقد تهدَّمت هذه المدرسة فى عام ١٨٩٢م . وعلى الرغم من تبعيتها لمصلحة حماية الآثار فإنها تعرضت لإهمال شديد خلال الحكم الشيوعى ثم استولت عليها - بعلم الدولة وموافقتها - شركة شيباد للأخشاب وجعلت منها معرضًا لمنتجاتها . وفى عام ١٩٩٠م جرى اتفاق بين الشركة وبين المسئولين عن الجماعة الإسلامية لاسترداد المبنى ودفع تعويض مناسب لشركة الأخشاب على الرغم من أن الأرض تعد من الأوقاف الخاصة بالبشانقة المسلمين .

وجامع الحاج على بك مشيد فى الفترة من عام ١٧٥٧م وحتى عام ١٧٥٩م . إلى جانب مقر إقامة الوزير بمعرفة محمد باشا كوكافيتسا . وتمت تسمية الجامع باسم الحاج على بك نسبة إلى الحاج على بك حسن باشيتش الذى أجرى - على نفقته الخاصة - تجديدات شاملة وكاملة بالجامع فى الفترة ما بين عامى ١٨٦٥ -و ١٨٦٦م بعد احتراق الجامع فى عام ١٨٥٠م . وتم فى عام ١٨٦٦م تركيب ساعة شمسية على الحائط الغربى للجامع ، وهى تعد فريدة من نوعها فى البوسنة والهرسك .

وإلى جانب الجامع كانت توجد مدرسة محمد باشا كوكافيتسا التى تعرضت لنفس ما تعرض له جامعه وجددها أيضًا الحاج على حسن باشيتش وأوصى لها بأوقاف جديدة . وكانت المدرسة مصممة على شكل "u" . والبوابة العالية لهذه المدرسة مشيدة فى شكل واجهة بسيطة مربعة الشكل ومبنية من الأحجار المهذبة ومغطاة بسقف خشبى . وتنتهى البوابة من أعلى بقوس تعلوه لوحة مكتوب عليها اسم مشيد المدرسة وتاريخ تشييدها ، وتوجد على الجانبين وردتان بسيطتان من الأحجار وهما تمثلان العناصر الزخرفية الوحيدة على البوابة . وقد تهدَّمت المدرسة فى عام ١٩٥٢م . ولم يتبق منها إلا البوابة والكتابة الموجودة عليها .

ويعد جامع ينى من أقدم الجوامع التى تم الحفاظ عليها فى مدينة ترافنيك ، وهو مشيد فى حوالى عام ١٥٤٩م . ويرجح الباحثون والمؤرخون أنه كان يوجد فى المكان نفسه جامع آخر أكثر قدمًا ولكنه تهدم وأقيم مكانه هذا الجامع الذى يسميه بعض البشانقة بجامع ينى الجديد تمييزًا له عن الجامع السابق ، ويحتوى الجامع على مدفن قديم كان يتم به دفن الشخصيات العثمانية البارزة .

ومدرسة لونتشاريتسا مشيدة فى عام ١٧٦٧م بمعرفة الحاكم البوسنى محمد باشا محسنوفيتش . وبحثًا عن أصل هذا الاسم أفادت المراجع أن الحى الذى أقيمت فيه المدرسة كان مركزًا لصناعة الأوانى الفخارية ، ومن هنا حصلت المدرسة على هذا الاسم الذى يعنى "صانعة الأوانى الفخارية" .

والتصميم المألوف للمدارس على شكل حرف " ل" تم تكييفه مع قطعة الأرض المتاحة وذلك عند القيام بعملية إنشاء المدرسة ، ولذا فإن جناحى المدرسة قصيران ومتساويان فى الأبعاد تقريبًا . وتشمل المدرسة ست حجرات للتلاميذ ثم حجرة للدروس . وهناك رواق مشيد بالأعمدة الخشبية وهو يعد كالدهليز أمام الحجرات ويضع إطارًا حول الفناء المشترك للجامع والمدرسة . والمدرسة مشيدة من الأحجار المقطعة وكانت فى البداية مغطاة بألواح الخشب . وشكلها الحالى لا يناسب تصميمها الأول ولذا فلا يمكن الحكم على أسلوبها المعمارى . ووفقًا لما هو معروف فقد تم إجراء إصلاحات وتجديدات كبيرة ، الأولى فى عام ١٩٠٢م بعد حريق كبير والثانية فى عام ١٩٥٦م .

ويوجد فى ضاحية سوميتش أحد الكتاتيب وهو مكون من طابقين . الطابق الأرضى عبارة عن حجرة صغيرة ، وفى الطابق الأول يوجد فصل وممر للدخول . وقد تم إبراز المبنى على الشارع من أجل الحصول على مسافة أكبر . وأبعاده الداخلية ٦,٢×٥ متر بارتفاع ٢,١ متر . والبناية كلها مشيدة بالأحجار ويعلوها سقف بأربعة جوانب مغطى بألواح من الخشب . ومن ناحية الأسلوب المعمارى لهذا الكُتَّاب فهو لا يختلف كثيرًا عن أسلوب بناء المبانى السكنية فى ترافنيك .

ونظراً لأن الأديب إيڤو أندريتش مولود فى هذه المدينة فقد تم بعد حصوله على جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٦١م تجديد منزله فى عام ١٩٧٤م وجعله مزاراً للزائرين والمعجبين والسائحين ، ومتحفًا تذكاريا ومعرضًا للطبعات الأولى من كتبه ، سواء باللغة البوسنية أو باللغات الأجنبية ، وكذلك للصور الخاصة برحلته إلى استوكهولم لاستلام جائزته .

مدينة سربرينتسا :

تقع مدينة سربرينتسا فى منطقة منعزلة فى أحد الأودية حيث تحفها جوانب جبلية منحدرة بشكل حاد فى منطقة شرق البوسنة . وخلال أيامها الخالية كان سكانها يعيشون عيشة طيبة من عوائد دخلهم من السياحة وذلك بالإضافة إلى اشتغالهم بالتعدين وصناعة النسيج . ومن الطريف أن اسم المدينة جاء من كلمة "سربرو" التى تعنى الفضة وهذا يوضح ارتباطها التاريخى بهذا المعدن ، وهو ارتباط يعود إلى أيام الرومانيين .

ووفقًا للتعداد السكانى ليوغسلافيا سابقًا فى عام ١٩٩١م فإن عدد السكان فى محافظة سربرينتسا بلغ ٣٧٢١١ نسمة ، منهم ٧٢,٩٪ من البشانقة المسلمين ، و٢٥,٥٪ من الصرب ، و ١٪ من الكروات ، و ١٪ من القوميات الأخرى . وتعد سربرينتسا من المدن التى يعيش فيها البشانقة المسلمون بأغلبية مطلقة .

وتفيد المراجع التاريخية أنه جرى ذكر اسم مدينة سربرينتسا لأول مرة فى المصادر المكتوبة فى عام ١٣٧٦م . حينما كانت مركزًا تجاريا حيا تكثر فيها مناجم الفضة والرصاص والمعادن المختلفة . وكانت جمارك سربرينتسا تورد دخلاً طيبًا للحاكم الإقليمى (حوالى ستين ألف دوكات سنويا) . وكانت سربرينتسا حينذاك أكبر مدينة للمناجم والتجارة فى المنطقة كلها الممتدة من نهر سافا وحتى البحر الأدرياتيكى. وبسبب ثروتها المعدنية فقد كانت محل نزاع بين كثير من الحكام والأشراف فى القرون

الوسطى . وسجل المؤرخون أن المدينة وقعت مرة تحت الحكم النمساوى الهنغارى وخمس مرات تحت الحكم الصربى وأربع مرات تحت الحكم البوسنى وثلاث مرات تحت الحكم العثمانى .

وقد سعى العثمانيون قبل سقوط البوسنة فى أيديهم بفترة طويلة إلى السيطرة على سربرينتسا باعتبارها مركزًا للتعدين ، ونجحوا فى ذلك إلى حد ما . ولكنهم لم يستولوا عليها استيلاءً نهائيا إلا فى منتصف عام ١٤٦٢م . وعينوا فيها ممثلاً لهم لشئون التعدين وأنشأوا دائرة قضائية خاصة بها فى العام نفسه . وتواجدت بها أيضًا فى القرن السادس عشر دار لسك العملة يجرى ذكرها فى الوثائق فى عام ١٥٥٧م .

ومن الجوامع الموجودة فى سربرينتسا الجامع الأبيض وقد كان فيما سبق كنيسة القديسة ماريا للفرنسيسكان . ولم يتم تحويل الكنيسة إلى جامع فى بداية الحكم العثمانى ، بل حدث هذا – كما تفيد المراجع – بعد اضطرار الفرنسيسكان خلال حرب ڤيينا إلى الرحيل عن المدينة . وهكذا فإن الإحصائيات العثمانية فى القرن السادس عشر تذكر الكنيسة والجامع .

ولم يتم بشكل جوهرى تغيير الأسلوب المعمارى للكنيسة السابقة وذلك لأن المبنى فى تصميمه الأساسى متجه صوب الكعبة كما ينبغى أن يتوجه الجامع . والحوائط الحجرية سميكة والمكان مستطيل بشكل ملفت للنظر وعرضه ٣ أمتار فقط . وبدلاً من جرس الكنيسة تمت إقامة مئذنة عند الزاوية اليسرى من باب الدخول . وقد أضيفت إلى المساحة الأصلية مساحة مماثلة من الناحية الشرقية وتم إدخال المياه إليها وأقيم بها مكان للوضوء له مدخل خاص ويرتبط مع الجامع بباب مشترك . وتم تغطية المساحتين الأصلية والإضافية بسقف واحد . وتقف المئذنة اليوم وسط الجدار على يسار باب الدخول .

وتُروى فى سربرينتسا حكاية عن شخص يدعى إسكندر قد أوقف أوقافًا خاصة بالجامع الأبيض ، ولذا فقد كان الحى الذى يوجد فيه الجامع يسمى بحى إسكندر . ومن غير المعروف ما إذا إسكندر هذا هو الذى أجرى التغيرات المذكورة بالجامع أو أنه شخص قام فقط فيما بعد بإجراء إصلاحات وترميمات مهمة بالجامع .

وتوجد بجوار الجامع الأبيض منطقة مدافن كما توجد مجموعة شواهد للقبور ، وبعض منها صغير فى حجمه ومشيد من الأحجار الخضراء والبعض الآخر لا توجد كتابات عليه ، ونجد على بعض ثالث اسم المتوفى وتاريخ وفاته . وقد كتب على أحد شواهد القبور : (لا إله إلا اللّه ، محمد رسول اللّه ﷺ) . ويقال إن هذا قبر شهيد .

أما جامع السوق فلا يوجد به منبر ، وكان يتم فيه أداء الصلوات اليومية الخمس، بينما كان يتم أداء صلاة الجمعة والعيدين فى الجامع الأبيض . ويقال إنه قام بتشييده على نفقته الخاصة الحاج سلمان أغا سلمان آجيتش فى نفس مكان جامع السلطان بايزيد الثانى فى عام ١٨٣٦م . ومساحة الجامع متواضعة ٦ × ٨٥ مترًا ، وله مئذنة خشبية . وقد تهدم الجامع فى عام ١٩٨٨م . ومن المزمع إقامة جامع حديث مكانه .

وتبلغ مساحة جامع النهر الأحمر٦ × ٨ × ٥ أمتار ، وهو مبنى بالأحجار والأخشاب وله مئذنة خشبية ومغطى بقوالب القرميد ، ويقال إنه كان يوجد فى نفس مكان هذا الجامع جامع السلطان بايزيد الذى أصابه حريق فقامت جماعة البشانقة المسلمين فيما بعد بتشييد هذا المسجد الصغير .

ويقع جامع بيتريتش فى الحى الذى يحمل الاسم نفسه ، وتبلغ أبعاد الجامع من الخارج ١٠ × ٧,٥ متر . وهو مشيد من الأحجار المهذبة حتى السقف بارتفاع ستة أمتار ، وجدرانه سميكة ومغطاة بسقف مربع من القرميد . وعلى جدار المحراب وعلى الجدران الأخرى توجد ١٢ نافذة أبعاد كل منها ١٠٠ × ٧٨ سم . والمحراب مشيد فى الحائط دون زخارف ، والمنبر مصنوع من الخشب ، وكذلك جناح الحريم الذى يحتل عرض الجامع كله ويستند على عمود خشبي فى الوسط . ومن جناح الحريم يتم الذهاب إلى المئذنة ..وقد تم إدخال المياه إلى الجامع ، وأجريت به إصلاحات وترميمات فى عام ١٩٨٣م .

ومن الطريف أنه كان يوجد فى سربرينتسا مكان يسمى المصلى ، وهو عبارة عن مكان مفتوح تحت السماء الصافية يؤدى فيه البشانقة المسلمون صلاة الجماعة كل يوم جمعة وصلاة العيدين . ويقع هذا المصلى فى شمال شرق جامع السوق ويبعد عنه بحوالى مائة متر . وموقعه مرتفع ولكنه مشيد على أرض مستوية وأبعاد مساحته ٢٠ × ١٥ متراً ، ومحاط بسور حجرى يبلغ ارتفاعه مترين وعرضه مائة سنتيمتر ومغطى بستائر . وقد تم تشييد محراب بالجدار وإقامة منبر خشبى .

ولا يتذكر أحد متى وكيف تم تشييد مصلى سربرينتسا ، ومن هو أو من هم المتبرعون بإقامته . ولكن استناداً إلى نوعية السور الذى يحيط بالمصلى فيمكن أن يكون قد نشأ فى القرن السادس عشر . وحتى عام ١٩٣٥م كانت تقام بالمصلى صلاة الجمع والأعياد إلا أن بلدية المدينة استولت على الأرض وأقامت مكانه مبنى لها به عيادة وحضانة .

وعند الحديث عن المدارس الإسلامية فى سربرينتسا فمن المفيد العودة إلى ما كتبته صحيفة البوسنة فى تقرير لها فى عددها الصادر فى ١٨٦٦/١١/١٢م بشأن خبر عن إقامة مدرسة فى سربرينتسا . ويتحدث التقرير عن أنه كان يوجد فى سربرينتسا من قبل كُتَّاب قديم لم يعد صالحاً بمرور الزمن للتعليم . ونظراً لعدم توفر أموال من الأوقاف لإصلاحه فلم يعد هناك مكان لتعليم التلاميذ فى الآونة الأخيرة . وعلاوة على ذلك فلم يعد لدى المعلمين اهتمام بتعليمهم نظراً لعدم حصولهم على مرتبات مجزية فى مقابل هذا العمل . وكل هذه الأمور كانت تقف عقبة فى طريق تعليم التلاميذ وهو أمر يدعو إلى الحزن والأسف . وبعد إدراكهم للأمر اتفق أبرز السكان البشانقة المسلمين بالمدينة وجمعوا فيما بينهم تبرعات كبيرة مكنتهم من إقامة مدرسة إسلامية من عدة فصول . واهتم البشانقة المتبرعون بتوفير المعلمين الجيدين وتوفير الرواتب المناسبة لهم ونفقات صيانة المبنى وشراء احتياجات المدرسة ومن أهمها الفحم فى الشتاء وغير ذلك من متطلبات .

وكانت هذه المدرسة تقع على الجانب الأيسر من باب الدخول إلى جامع السوق ، وهى مكونة من دور أرضى مشيد على جزء بارز من الأرض . وكانت تشتمل على خمسة فصول وممر ومغطاة بقوالب القرميد . وفى أوائل القرن العشرين حملت هذه المدرسة اسم مدرسة الحاج حسن أغا ، ومن المرجح أنه هو الذى قام بإجراء إصلاحات وتجديدات بها . وقد درس بهذه المدرسة تلاميذ أصبحوا فيما بعد من الشخصيات البارزة على صعيد العمل الإسلامى فى البوسنة .

وخلال الحرب العدوانية الأخيرة على البشانقة المسلمين فى البوسنة تعرضت سربرينتسا لهجوم غاشم ، إلا أنها صمدت بمعنويات روحية طيبة فى وجه الاعتداءات والهجمات الصربية المكثفة ، وذلك على الرغم من إمكانياتها العسكرية الضئيلة فى الأفراد والمعدات . واستعد البشانقة المسلمون للدفاع عن بلدهم ، إلا أن قوات الأمم المتحدة قيدت أيديهم ورفضت أن تعيد إليهم أسلحتهم التى تسلمتها بموجب قرار سابق من المنظمة الدولية . كما تقاعست القوات الدولية فى الدفاع عن المدينة بموجب القرار نفسه الذى اعتبر المدينة منطقة آمنة واقعة تحت حماية الأمم المتحدة .

وكانت النتيجة المؤسفة هى تعرض المدينة لمذبحة ليس لها مثيل تعد من أكبر المذابح الجماعية فى تاريخ البشانقة المسلمين ، كما أنها أكبر مذبحة فى تاريخ العالم الحديث حيث واجه ما يقرب من ثلاثة وأربعين ألفًا من أهل المدينة والمنطقة المحيطة الواقعتين تحت حماية قوات الأمم المتحدة - مأساة رهيبة بعد سقوط المدينة فى أيدى الصرب المتوحشين . وأكدت التحقيقات فيما بعد أنه تم بشكل حرفى القضاء على الغالبية العظمى من الأسرى الرجال دون جريرة وذلك بعد إجراء تحقيق صورى معهم بزعم البحث عن مجرمى الحرب .

مدينة فوتشا :

تقع مدينة فوتشا على مصب نهر تشيهوتينا فى نهر درينا فى شرق البوسنة ، ويبلغ عدد سكانها ٤٠٥١٣ نسمة ، منهم ٥١,٦٪ من البشانقة المسلمين ، و ٤٥,٣٪ من الصرب ، و ٣٪ من الكروات ، و ١,١٪ من القوميات الأخرى . وتعتبر مدينة فوتشا من المدن التى يعيش فيها البشانقة المسلمون بأغلبية مطلقة . ومنذ عام ١٣٦٥م ومدينة فوتشا تقع تحت الحكم العثمانى الذى ترك فيها كثيراً من آثار الفن الإسلامى من جوامع ومدارس إسلامية وبرج للساعة وغير ذلك .

ولا يمكن الحديث عن مدينة فوتشا دون الحديث عن جامع آلادچا الموجود بها ، الذى يعد تحفة من تحف العمارة الإسلامية فى هذه المنطقة . وفى الإطار العام الواسع للإنجازات المعمارية الضخمة الباقية من العهد العثمانى في البوسنة يقف هذا الجامع صامداً وشامخًا يضارع الكثير من الجوامع المماثلة التى تم تشييدها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر على أراضى الإمبراطورية العثمانية .

ومن المؤكد أن جامع آلادچا فى فوتشا قد حقق الغرض المشيد من أجله طوال عمره البالغ ما يقرب من خمسمائة عام وشهد الجامع طوال كل هذه الحقبة من عمره الكثير من الأحداث المتباينة ، كما ظل الجامع خلال كل هذه القرون نموذجًا من النماذج الفريدة للحضارة الإسلامية ولتراث البشانقة المسلمين فى البوسنة والهرسك .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن هذا الجامع نشأ على أطراف الإمبراطورية العثمانية إذ إنه يبعد عن عاصمتها بحوالى ما يربو على ألف كيلومتر . ومع ذلك فهو شاهد على أنه تمت إقامة إنجاز معمارى وعمل فنى عالى القيمة فى مكان لم يكن يمثل لأقوى دولة فى العالم آنذاك مركزًا سياسيا أو اقتصاديا . ولا شك أنه من حسن حظ هذه المدينة أن يوجد بها مثل هذا الأثر الجميل من إبداعات الفن الإسلامى الراجعة إلى ذلك الزمان البعيد .

ورغم أن جامع آلادجا كان منذ عشرات السنين هدفًا ومحلا لاهتمام العديد من الخبراء والباحثين فإنه لفترة طويلة لم تتم معرفة معلومات مفصلة دقيقة عن مؤسس هذا الجامع . وبعض الكتابات الموجودة على نفس مبنى الجامع لم تكن كافية لمعرفة الدوافع الكامنة وراء إقامتها لمثل هذا الجامع الرائع فى مدينة فوتشا بالذات ، ووراء إنفاقه لجزء من أملاكه من أجل تشييد هذا الجامع ، واستحضاره لأشهر عمال البناء والزخرفة فى زمانه من أجل هذا الغرض . ولم يعثر العلماء والباحثون إلا فى أوائل القرن الحالى وفى سجلات مدينة دوبروفنيك بشكل خاص على بعض الحقائق التى تسلط مزيداً من الأضواء على مؤسس الجامع وأوقافه .

وقد شيد هذا الجامع حسن بن يوسف فى عام ١٥٥١م ، وكان يعمل مراقبًا لإيرادات الإمبراطورية العثمانية فى منطقة سنجق الهرسك فى منتصف القرن السادس عشر . وتروى الحكايات الشعبية أن حسن هذا كان قد ترك مسقط رأسه بحثًا عن العمل وبعد نجاحه بالخارج وجمعه لثروة كبيرة قرر العودة إلى بلدته بعد غياب سنوات طويلة ، والتقى بأمه التى لم تتحمل السعادة بلقاء ابنها بعد غياب طويل ففاضت روحها فقرر الابن إقامة جامع فى مكان اللقاء .

وطول الجامع ١٨,١٥ متر وعرضه ١٣,٧٥ متر وسمك جدرانه ١,١٠ متر . وللجامع رواق غاية فى الجمال مستند على أربعة أعمدة هيفاء ، وارتفاع مئذنته ستة وثلاثين متراً ، وبه نافورة فريدة للوضوء فى فنائه علاوة على ضريح لإبراهيم بك ابن حسن .

ومن أجل بناء جامعه هذا استدعى حسن بن يوسف أفضل عمال البناء وأشهر الرسامين ، وكان منفذه الرئيسى المهندس رضا أغا تلميذ المهندس المعمارى الكبير سينان ، الذى يعد أعظم مهندس معمارى للإمبراطورية العثمانية فى منتصف القرن السادس عشر .

ولا يختلف جمال الجامع من الداخل عن جماله من الخارج ، فالزخارف الداخلية لا مثيل لها فى منطقة البلقان وهذا يتعلق أساسًا بالمحراب والمنبر وجناح الحريم .

وتتمثل العناصر الأساسية للزخارف فى رسوم الورود والنباتات الأخرى . ومن ناحية الجمال فلا تتخلف الرسومات الموجودة على الجدران التى أبرزت جامع آلادچا عبر القرون الماضية . ونسبة إلى الجمال الرائع لزخارفه ورسوماته الساحرة ، فقد حصل الجامع على اسم جامع آلادچا المزركش . ويلزم هنا التنويه إلى أن الزخرفة داخل الجوامع مخالفة للسنة .

ويرجح أنه تم رسم جدران الجامع على الفور بعد الانتهاء من تشييده وخلال وجود مؤسسه على قيد الحياة . وبعد مرور تسعة وعشرين عامًا أبدى إعجابه بالرسومات الرحالة كونتاريني من البندقية . وأثارت هذه الرسومات أيضًا إعجاب وحماس الرحالة التركى أوليا جلبى بعد مرور مائة سنة على إنشاء الجامع بحيث إنه قارن مستواها الفنى بمستوى أبرز الرسامين وفنانى الزخرفة فى النصف الأول من القرن السادس عشر بالإمبراطورية العثمانية . وما زال الخبراء يؤكدون أن أعمال الفن التشكيلى الموجودة بالجامع تماثل وتضارع تلك الأعمال الفنية التشكيلية الموجودة ببعض الجوامع الأخرى وربما تفوقها قيمة وروعة .

وفى حين من الأحيان كانت الرسومات والزخارف تغطى تقريبًا كل الجدران الداخلية والخارجية للجامع ، إلا أن عوامل الزمن والإهمال أصابت وأزالت أغلبية هذه الإبداعات الفنية ذات القيمة الكبيرة . وخلال الحكم الشيوعى بذلت الجماعة الإسلامية للبشانقة جهودًا مضنية ، على الرغم من إمكانياتها الضئيلة ومسئولياتها الهائلة ، من أجل إصلاح وترميم الجامع وإبراز الرسومات على الجدران ، وخلال ثلاثين عامًا من أعمال الترميم والإصلاح المستمرة فلم يتم حتى أوائل التسعينيات إلا القيام بنصف هذه الأعمال .

وفى يوليو من عام ١٩٩١م أقيم احتفال كبير بمناسبة مرور ٤٤٠ عامًا على إنشاء جامع آلادچا . وشمل الاحتفال إقامة مسابقة لحفظ القرآن للصغار والشباب من مدينة فوتشا والقرى المجاورة وإنشاد قصائد المدح النبوى . وفى اليوم التالى تم عقد ندوة

علمية تحت عنوان : "الثقافة الإسلامية لفوتشا" اشترك فيها أبرز العلماء والباحثين بتقارير وأبحاث كانت أبرز عناوينها :

- انتشار الإسلام فى فوتشا والمنطقة المحيطة .
- تطور فوتشا فى إطار الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية القرن السادس عشر .
- الأوقاف فى فوتشا فى الفترة من ١٨٦٥ وحتى ١٨٧٤.
- فوتشا فى وثائق المكتب الشرقى فى دوبروفنيك .
- فوتشا فى عيون الرحالة فى عهد الإدارة العثمانية .
- التطور العمرانى لفوتشا .
- الآثار الثقافية والتاريخية فى فوتشا .
- أصل مؤسس جامع آلادچا حسين نظير .
- تاريخ بايزيد - تكية البابا فى فوتشا .
- المدارس الإسلامية فى فوتشا .
- حكايات شفاهية من فوتشا وضواحيها .
- شهادة عن فوتشا من رحالتين تشيكيين .

ومن الجوامع المشهورة أيضًا فى فوتشا جامع محمد باشا كوكاڤيتسا المشيد فى عام ١٧٥٢م . وبعد ذلك بست سنوات أقام فى فناء الجامع مدرسة بالاسم نفسه (فى عام ١٧٥٨م). ويشكل الجامع فى المدرسة التصميم الهندسى لحرف "u" . إلا أن الجامع مبنى بشكل منفصل ، والمدرسة لها جناحان رغم أنه لم يتم تشييدها فى وقت واحد .

والمدرسة موجودة فى بناية مستقلة مستطيلة . ووفقًا لما ذكره الباحثون فقد كانت هناك فى البداية حجرتان كبيرتان عند الباب الداخلى للمدرسة . وكانت الحجرة

الأولى تستخدم ككُتَّاب والثانية كفصل لعقد الدروس والمحاضرات . ثم بعد ذلك تتوالى حجرات التلاميذ فى اتجاه الجامع . والمدرسة مشيدة بقوالب القرميد والأخشاب والأسقف من القرميد أيضًا . ومن حيث الأسلوب المعمارى فهى لا تختلف كثيراً عن الأسلوب المعمارى للمساكن .

وبعد فقد عمدنا إلى تقديم صورة موجزة لبعض المدن البشناقية قبل أن يتم تشويه جمالها وتدمير آثارها وتخريب تراثها عن طريق الحملة الوحشية اللاإنسانية التى تعرضت لها على يد المعتدين البرابرة . وقد أسفرت هذه الحملة عن تدمير أو إصابة ما يقرب من ألف جامع ومئات المدارس الإسلامية والقضاء على التراث الثقافى الموجود بكبرى المكتبات البوسنية ، هذا بالإضافة إلى الخسائر البشرية الهائلة ، وذلك بهدف محو الهوية القومية والثقافية للبشانقة .

* * *

الفصل الخامس

الإبداعات الأدبية

- خلال فترة وجود العثمانيين .
- الأدب البوسنى باللغات الشرقية .
- الأدب الأعجمى .
- خلال الاحتلال النمساوى الهنغارى .
- الأدب الحديث .

الفصل الخامس

الإبداعات الأدبية

يستحيل على الإبداعات الأدبية لأى شعب من الشعوب أن تكون عابرة أو زائلة وإنما تتصف بالديمومة والخلود ومن هنا تستحق التوقف عندها والتأمل فيها . وهذه هى الحال مع الإبداعات الأدبية للبشانقة .. شعب البوسنة والهرسك ، فلا يمكن أن نمر عليها مر الكرام وإنما يتحتم أن نتوقف ولو وقفة سريعة نسلط فيها ولو بعض الأضواء عليها من أجل التنويه إلى أبرزها والتعريف بأهمها .

ورداً على أولئك المغرضين الذين ينكرون هذه الإبداعات ولا يعترفون بعراقتها وجذورها العميقة لا يفوتنا هنا - بداية - أن نشير إلى أن أصالة الإبداعات الأدبية للبشانقة جعلت من المستحيل على أية صدفة محضة أن تمحوها ، ومن العسير على أى هجوم حتى ولو قام به ألد الأعداء أن يطمسها ويزيلها ، إذ من غير المنطقى أن تتمكن القوة الغاشمة الظالمة أو الصدفة العابرة أو مرور الأعوام أو ادعاءات المغرضين من العمل على تعتيم وحجب القيم الفنية الأصيلة للإبداعات الأدبية للبشانقة ، التى نجحت فى الانتصار والصمود فى وجه قوى الظلام المدمر والجهل والتخلف والتطهير العرقى والبربرية الحديثة ، إلا أن هذا الانتصار سيظل أمانة فى عنق الأجيال التالية من البشانقة ، وسيبقى مسئولية على عاتقها لا بد أن نعمل على الحفاظ عليه بأى ثمن .

ويتحتم أن ننوه إلى أن أدب البشانقة أو ما يسمى بالأدب فى البوسنة والهرسك ، أو ما نسميه تجاوزاً بالأدب البوسنى ، قد عانى كثيراً من الإغفال والإحجام والإهمال من جانب الباحثين والمهتمين فى جميع أنحاء العالم العربى لأسباب متعددة مثله

فى ذلك مثل آداب شعوب العالم الثالث . فقد ظل الأدب البوسنى لفترة طويلة غير معروف بالنسبة للقراء العرب على الرغم من حركة الترجمة النامية التى جرت وتجرى من لغات عديدة إلى اللغة العربية ، وكذلك على الرغم من التزايد المتواصل لاهتمامنا بالبوسنة والهرسك وبكل الأحداث التى جرت وتجرى فيها . ومن الجلى أن السبب الرئيسى وراء هذا يعود فى المقام الأول إلى ندرة المتخصصين فى اللغة البوسنية وبالتالى إلى قلة الترجمة من الأدب البوسنى وإلى صعوبة التعرف على إبداعاته وإنجازاته .

وقد جرت بعض محاولات فردية من جانب قلة ضئيلة من المهتمين بالأدب البوسنى والعالمين بلغته ، وكذلك من جانب شخصى المتواضع حيث إننى قمت خلال فترة تجاوزت سبعة وثلاثين عاماً ببذل الجهود والمساعى من أجل تعريف القارئ على اتساع العالم العربى بأبرز الإبداعات الأدبية وأهم النماذج المنتقاة من الأدب البوسنى فى مراحل تطوره التاريخى وفى ارتباطه الوثيق بظروف العصر ومجرياته .

وتعبير الأدب البوسنى هو تعبير جديد على الأسماع وعلى الأقلام ولم يبرز بروزاً واضحاً وبشكل مستقل إلا بعد إعلان استقلال جمهورية البوسنة والهرسك بداية من عام ١٩٩٢م . وفى الفترة السابقة حينما كانت البوسنة والهرسك واحدة من الجمهوريات اليوغسلافية كانت الإبداعات الأدبية للبشانقة تدخل فى إطار آداب الشعوب اليوغسلافية ، أو فى إطار ما كنا نسميه تجاوزاً بالأدب اليوغسلافى . وارتبطت إبداعات البشانقة بآداب الشعوب اليوغسلافية الأخرى بوشائج قربى وصلات حميمة واتصالات وثيقة ، بل وكانت هناك بينها تشابكات ونقاط التقاء وتأثيرات وتأثرات عميقة ، وهى أمور حتمتها وفرضتها الأحداث السياسية والعلاقات التاريخية ، إلا أنه بعد استقلال البوسنة والهرسك وتشتت شمل العائلة اليوغسلافية وانفصال كل جمهورية عن شقيقاتها من باقى الجمهوريات فقد سعى كل أدب إلى الابتعاد والاختلاف عن شقيق الأمس وتمزيق أواصر القربى ووشائج الاتصال والتركيز- سواء

بعمد أو عن غير عمد - على الخلافات والاختلافات والتمايز خصوصًا وأن شقيق الأمس لفترة طويلة قد أصبح فى غمضة عين عدو اليوم .

والهدف الذى وضعته نصب عينى فى هذا الفصل هو تقديم عرض سريع وإطلالة موجزة عن أبرز ملامح ومعالم المسيرة الطويلة للأدب البوسنى عبر تاريخه المديد مع الإشارة إلى بعض الأسماء الأدبية المتميزة . ومن الضرورى أن نشير - سلفًا - إلى صعوبة هذه المهمة وعسرها بسبب ضآلة الحيز فى مواجهة الكم الهائل من الإبداعات الأدبية المتميزة للبشانقة . ومن ناحية أسلوب العرض فقد ارتأيت أن يعتمد هذا العرض على التسلسل التاريخى وفقًا للحقب التاريخية المعروفة التى مر بها البشانقة . وتنطلق هذه الرؤية من نقطة أساسية وهى أن هذا الأسلوب هو الأمثل والأفضل لأنه يمنح القارئ الفرصة لمتابعة الإبداعات الأدبية للبشانقة فى إطار وسياق ظروف وأحوال الحقبة التاريخية وتحت أضوائها .

خلال فترة وجود العثمانيين :

وخلال الوجود العثمانى بدءًا من عام ١٤٦٣م فى الأراضى البوسنية ولمدة اقتربت من خمسة قرون تغلغل الإسلام فيها تغلغلاً سلسًا مكثفًا دون عقبات أو عوائق تذكر ، وبالتالى أخذت تأثيرات الحضارة والثقافة الإسلاميتين فى الانتشار والتعمق فى كل المجالات . وهكذا قام العثمانيون بالدور نفسه الذى قام به البيزنطيون من قبل كوسطاء ينقلون وينشرون عناصر الحضارة والثقافة بين سكان البوسنة ، مع وجود اختلاف بيِّن فى نوعية هذه العناصر ومدى تعمق تغلغلها واتساع انتشارها ذلك لأن العثمانيين نجحوا أيما نجاح فى تعميق جذور التأثيرات والعناصر العربية الإسلامية بين البوسنيين لدرجة أن قدرًا هائلاً منها ما زال موجودًا ومتغلغلاً حتى بعد زوال سيطرتهم ، بل وحتى وقتنا الحالى .

ويهمنا فى هذا المضمار التشديد على أن العثمانيين جعلوا من المدن الجديدة التى شيدوها أو أضافوا إليها مراكز لنوع جديد من الفكر ومشاتل للثقافة العربية الإسلامية والشرقية بوجه عام ، وذلك بعد إقامة وتشييد العديد من الجوامع والكتاتيب والمدارس الإسلامية المتنوعة ذات المستويات المختلفة والمكتبات والتكايا وغيرها من المبانى المصاحبة مثل المطاعم والحمامات العمومية واستراحات المسافرين ، بالإضافة إلى الأسواق الكبيرة التى تزدهر فيها مختلف ألوان التجارة والحِرَف وما إلى ذلك . وقد أشرنا من قبل إلى أن كل هذه المؤسسات والمبانى قد أقيمت على يد فاعلى الخير وأصحاب الأوقاف . وسرعان ما أصبحت البوسنة والهرسك ثرية بالتقاليد الثقافية والروحية العربية الإسلامية بعد أن شكلت هذه المؤسسات التعليمية والتثقيفية الجديدة البنية الأساسية للثقافة والأدب البوسنى الجديد . كما ارتبطت هذه المؤسسات بالمراكز الثقافية والتثقيفية والدينية والعلمية فى آسيا وأوروبا والعالم العربى ، وبالتالى أصبحت البوسنة جزءًا من العالم الثقافى آنذاك .

وكان من الطبيعى أن تسيطر اللغة التركية فى مجال الثقافة والأدب فى البوسنة والهرسك خاصة وأن تعد اللغة الرسمية فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، ولذا فقد كانت اللغة التركية مهمة فى ممارسة الحياة العامة والاتصال بأجهزة الدولة وفى مجالات القانون والتجارة علاوة على بعض جوانب الأدب والثقافة . وتلتها فى الأهمية اللغة العربية التى كانت ضرورية للاستخدام فى الشئون الدينية علاوة على أنها أصبحت ، فى أغلب الأحوال بسبب رصيدها التاريخى والأدبى ، وسيلة للتعليم والتعلم وللارتقاء ثقافيا وعلميا . أما اللغة الفارسية فقد حصلت على الأفضلية فى مجال الفلسفة الصوفية وقرض الشعر . وكل من كانت به رغبة أو طموح للوصول إلى أعلى المناصب السياسية والاجتماعية والأدبية كان حتمًا عليه أن يعرف هذه اللغات أو واحدة منها على الأقل بالإضافة إلى اللغة البوسنية المحلية وإلى لغات أخرى أقل أهمية كانت تستخدم فى الشئون الدينية للمسيحيين واليهود وغيرهم .

الأدب الشعبى :

وفى مثل هذا الجو ووسط هذه البيئة حفل الأدب البوسنى فى مراحله الأولى بنفحات وتأثيرات إسلامية واضحة وخاصة فى مجال الأدب الشعبى الشفاهى بألوانه المختلفة . وقد اشتهرت لدى جماهير البشانقة ، قديمًا وحديثًا ، قصائد الشعر الشعبى للمسلمين . وكثيرًا ما كان يتم سماع هذه القصائد بأصوات المنشدين للألحان الشعبية . وكما هو معلوم فلا يعرف على وجه التحديد مؤلف لهذه القصائد ولا زمن ولا مكان ظهورها . ولكن يرجح النقاد والمؤرخون ظهورها ابتداء من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر ، أى أنها مرتبطة بشكل أو بآخر بالوجود العثمانى فى البوسنة وتوارثتها الأجيال فيما بعد وتم الاعتناء بها والحفاظ عليها حتى وقتنا هذا . وهذه القصائد تمثل دون شك أفضل مصدر لتاريخ المنطقة آنذاك .

واكتسب الشعر الغنائى الشعبى الذى تطور بوجه عام فى المدن الكثير من السمات الشرقية ، وتحديداً من السمات العربية الإسلامية ، وخصوصاً فى اللغة واللحن . وتتضح بجلاء فى القصائد العاطفية آثار الحساسية ورقة الشعور العربى الإسلامى التى تغلغلت تغلغلاً عميقًا عبر هذا الجنس الأدبى إلى نفوس البشانقة وإلى إبداعاتهم الأدبية فيما بعد . وبلغ الشعر الشعبى للبشانقة المسلمين أعلى آماده فى القصائد الملحمية التى قدمت بتعبير فنى فريد عرضها للظروف التى عاشت فيها عائلات البشانقة المسلمين ، وتصويراً لروايات ومآسٍ كاملة حافلة بالصراعات والفواجع .

ومن فنون الأدب الشعبى لدى البشانقة أيضًا الحكايات الشعبية التى تعد شكلاً أدبيا وأسلوبًا للتعبير أكثر تفتحًا وحرية أو بعبارة أصح تعد جنسًا أدبيًا أكثر مرونة ، فالحكايات الشعبية يمكنها أن تستوعب قدرًا كبيرًا من المحتويات المتنوعة والمضامين المتباينة يفوق ما تشتمل عليه القصائد الشعبية الملحمية والغنائية . وباستعراض الحكايات الشعبية للبشانقة المسلمين نجد أنها تتحلى بخصائص الأسلوب العربى الإسلامى وتشير مضامينها إشارة جلية إلى أن أصلها ومنشأها من الشرق الإسلامى . ومن المرجح تمامًا أنه تم خلال الانتقال والترحال من وإلى الشرق العربى أو الذهاب

للتجارة أو للتزود بالعلم أو لأداء فريضة الحج أو لغير ذلك من الأسباب نقل مثل هذه الحكايات ، وما دامت حكايات شعبية فعمليات الحذف والإضافة هنا مسموح بها وفقًا لهوى الراوى .

ومن المؤكد أنها تنتسب إلى الأصل نفسه تلك الحكايات الشعبية العديدة والطرائف والنوادر الخاصة بنصر الدين خوجة الرومى ، وهو شخصية مشهورة لدى البشانقة المسلمين ويعد صورة مطابقة لشخصية جحا العربى . ويتم حتى وقتنا الحالى سرد الكثير من هذه الطرائف والنوادر والاستشهاد بالأمثال الشعبية المرتبطة به وبحياته ، وبذلك تغلغل نصر الدين خوجة الرومى إلى معظم المجموعات القصصية الشعبية الفكاهية .

وتدخل أيضًا فى إطار الأدب الشعبى الملاحم الشعبية التى تتغنى بالأبطال البشانقة المسلمين وبطولاتهم ، وهى قصائد لها جذور تاريخية معروفة ولا تخلو إطلاقًا من إضافات تبعًا لهوى المنشد ودينه وقوميته . وترتبط موضوعات معظم هذه الملاحم بالقتال والمبارزة من أجل الاستحواذ على الفتيات ، وبالزواج وحفلات الزفاف والهجوم على مثل هذه الحفلات ، وبخطف الفتيات ودفع فدية لفك الأسر ، وبرد الظلم والانتقام وما شابه ذلك .

الأدب البوسنى باللغات الشرقية :

ومن الظواهر غير المألوفة فى الأدب البوسنى وجود إبداعات أدبية ألفها البشانقة المسلمون باللغات الشرقية ألا وهى اللغات العربية والتركية والفارسية . ويبلغ عدد المؤلفين البشانقة بهذه اللغات ما يربو على ثلاثمائة كاتب ومؤلف كتبوا وأبدعوا فى كثير من الموضوعات والمجالات ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والعقائد والشريعة ومختلف علوم الدين والتاريخ وعلوم اللغة العربية والجغرافيا والرياضة والمنطق والوعظ والإدارة الحكيمة وتنظيم الدولة والطهارة والحيوان وغير ذلك ، ومختلف الأجناس الأدبية وعلى الأخص فى مجال الشعر الذى

كان متطوراً ومزدهراً فى الأدب العربى كشكل من أشكال التعبير . ويرز أدب الرحلات الذى كان فيه المؤلفون يصفون الأماكن البوسنية التى يمر بها الحجاج فى طريقهم إلى بيت اللـه . ومن أبرز الأدباء البشانقة الذين كتبوا باللغة العربية : حسن كافى بروشتشاك ، ومصطفى أيوبوفيتش ، ومحمد بن موسى السرائى ، وعلى دده بوشناق ، وعبد اللـه بوشناق ، ومحمد بن شلبى ، وعلى بن شاكر فهمى غابى زاده ، وغيرهم .

وأكد النقاد والباحثون أن الأدباء البشانقة ألفوا مثل هذه المؤلفات باللغة العربية من قبيل التطبع لا الطبع ، وذلك رغبة منهم فى التفنن فى روائع الكلام وفى التباهى بقدرتهم على النظم بلغة القرآن ، كما لاحظوا فيها نغمة وطنية جلية وارتباطاً واضحاً بالوطن .

وقد لاحظنا إعراض النقاد والباحثين المغرضين ومن سار على دربهم لدراسة مثل هذه المؤلفات للأدباء والكتاب البشانقة ، وزعم بعض منهم فى وقت من الأوقات أن مثل هذه المؤلفات لم تأت بجديد وبأنها ليست إلا صورة مقلدة من إبداعات الأدب العربى . ومما لا شك فيه أن هذه حجة واهية وغير موضوعية لأنه يتحتم أولاً وقبل كل شىء دراسة وبحث وتحليل هذه المؤلفات بغض النظر عن تشابهها أو اختلافها عن إبداعات أخرى . وسيكون الحكم الفاصل فى هذا المضمار للموضوعية فى النقد والتحليل والدراسة .

الأدب الأعجمى :

والأدب الأعجمى أو أدب "الهاميادو" يمثل إبداعاً نوعيا طريفاً من إبداعات البشانقة المسلمين ، وهو عبارة عن إبداعات تم تأليفها باللغة البوسنية المحلية وتسجيلها كتابة بالحروف العربية . ويشمل هذا النوع من الأدب بعض الأجناس الأدبية ومنها : "القصيدة" وهى قصائد دينية أو شعر للمدح أو الرثاء ، و"الإلهيات" وهى شعر دينى خالص ، و "الحكايات" وهى قصص دينية أو أسطورية ، و "العرضحال" وهو عبارة عن شكوى أو دعوى أو التماس أو رسالة أو قصيدة سياسية ، و "المحضر" وهو طلب جماعى أو شكوى . ومن أشهر الأدباء البشانقة الذى كتبوا هذا اللون من الأدب

البوسنى هم : صالح جاشيفيتش ، محمد رشدى ، محمد بك قبطانوفيتش لوبو شاك ، يوسف بك تشنجيتش ، حمزة بوذيتش ، عبد الرحمن سرى سيكيريتسا ، محمد الهوائى ، سعيد وهاب إلهامى وغيرهم .

وبحثًا عن تفسير لهذا اللون من الأدب البوسنى ، ذكر الباحثون أن المثقفين والمتعلمين تركوا الكتابة باللغة البوسنية المحلية للبسطاء الذين لا يملكون إلا حظًا ضئيلاً من الثقافة والعلم . وقد انشغل هؤلاء البسطاء أكثر من غيرهم من البشانقة أصحاب المناصب والسلطة بهموم الشعب ومشاغله اليومية وتحملوا أعباء الحروب المتكررة فى مناطق الحدود ، ونظرًا لانهماكم فى هذه الدوامة من هموم ومشاغل الحياة فقد نبعت إبداعاتهم الأدبية ، أى هذا الأدب "الأعجمى" ، من احتياجاتهم المباشرة فى هذه الحياة وفى هذه البيئة . ويؤكد هذا ما لاحظه الباحثون من أن إبداعات الأدب "الأعجمى" لا تصور صراعات عميقة وليست انعكاسًا للتيارات الفكرية السائدة حينذاك .

كما لاحظ النقاد والباحثون أن لغة هذا الأدب "الأعجمى" تختلط إلى حد كبير بعديد من الكلمات الأجنبية والغريبة على اللغة البوسنية ، إلا أنهم فى مقابل ذلك وجدوا إبداعات أدبية تثير الدهشة بنقاء لغتها وقوة تعبيراتها . ويرجح أن هذا راجع أولاً وقبل كل شىء إلى ثقافة واطلاع المؤلف . وقد أقر النقاد والباحثون بأن الأدب "الأعجمى" يمثل أهم عنصر فى الحفاظ على الخصائص اللغوية وعلى الثقافة حينذاك ، وكان خلال العهد العثمانى هو الحارس على الروحانية الذاتية . وفى المرحلة التالية كان هذا اللون من الأدب البوسنى هو النبع الذى كانت جماهير البشانقة من المتعطشين للثقافة والأدب تنهل منه لكى تطفئ حبها للاطلاع وتروى ظمأها من الثقافة والأدب .

ونخلص من كل ما تقدم إلى أن البشانقة المسلمين ظلوا طوال فترة الحكم العثمانى لما يقرب من خمسة قرون موجودين فى محيط دائرة التأثيرات الإسلامية العربية من خلال اندماجهم الكامل فى المجتمع العثمانى المتميز وارتباطهم ارتباطًا وثيقًا بالعثمانيين عن طريق مئات المصالح والعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية .

خلال الاحتلال النمساوى الهنغارى :

بعد زوال الوجود العثمانى من الأراضى البوسنية واحتلال الإمبراطورية النمساوية الهنغارية لها تمزقت بعنف وقسوة كل العلاقات والاتصالات التى ربطت بين البوسنة والعثمانيين طوال الفترة السابقة ، وشعر البشانقة لسنوات عديدة بالضياعُ وانعدام الوزن ، ومن هنا فإن فترة الحكم النمساوى الهنغارى تعد من الفترات الحاسمة فى التاريخ الثقافى والأدبى للبشانقة المسلمين ، وخصوصًا فترة الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين . وهذا الاحتلال مع اختلاف دوافعه وأهدافه كان يعنى بالنسبة للبشانقة المسلمين ، أولاً وقبل كل شىء ، الانتقال من حضارة شرقية إسلامية إلى حضارة غربية مسيحية ، ويعنى كذلك تغير مجال الثقافة ومضمونها وانتهاج أسلوب حياتى مغاير . وكان من المستحيل أن يحدث هذا الانتقال وذلك التغير بيسر وبساطة دون آلام ومعاناة . وكان من الطبيعى أن تنعكس كل هذه التغيرات ، بشكل أو بآخر ، على الإبداعات الأدبية للبشانقة .

وكان محمد بك قبطانوڤيتش لوبو شاك (١٨٣٩ - ١٩٠٢م) هو أول من دعا عن طريق مؤلفاته وكتاباته إلى تقبل الأوضاع الجديدة وضرورة استيعاب الثقافة الأوروبية والتكيف مع أسلوب الحياة الأوروبى الجديد وذلك بهدف الاستفادة من المكاسب الثقافية والحضارية الجديدة والعمل على نشرها بين البشانقة المسلمين . ويعتبر النقاد أنه الباعث الروحى ورائد النهضة الأدبية بين البشانقة المسلمين خلال تلك الحقبة المضطربة والمتغيرة من تاريخهم .

وارتبط جل نشاطه الأدبى بالعمل على تخليص بنى وطنه من التأثيرات السلبية وعوامل الإحباط ، وعلى رفع روحهم المعنوية ووعيهم القومى وتحفيزهم على التحلى بالأخلاق الإسلامية وبث روح الاستقلالية فى نفوسهم ، كما شارك كثيرًا من زملائه فى القيام بعديد من الأنشطة التثقيفية والتعليمية الهادفة إلى الرفع من شأن القيم المحلية وتدعيمها .

وزاد من أهمية نشاطه الأدبى ودوره الريادى فى هذا المضمار أنه استعرض وأوجز وركز فى مؤلفاته وكتاباته على تجارب وإنجازات الإبداعات الأدبية للبشانقة المسلمين قبل الاحتلال ، وكذلك على الروح الشعبية الإسلامية . وسعى فى الوقت نفسه إلى شق مسارات جديدة للإبداع ، وإلى الاستفادة من عناصر التقارب بين البشانقة والشعوب المجاورة لهم فى المنطقة ، تلك المتحدثة بلغة مفهومة لهم .

ومن أهم مؤلفاته : رسالة الأخلاق (فى عام ١٨٨٤م)، وهى دروس أخلاقية فى المسلك . واعتبرها النقاد كتابًا مدرسيا مفيدًا ومرجعًا تربويا تعليميا مهمًا فى الأخلاق الإسلامية . والكنز الشعبى (فى عام ١٨٨٧م)، ويشمل مختارات من الأمثال الشعبية والطرائف المتعلقة بها ، والكنز الشرقى (فى عام ١٨٩٦م)، ويشمل مجموعة كبيرة من الأمثال والأقوال المأثورة والحكم العربية والتركية والفارسية استقاها من كتب المبدعين بهذه اللغات .

والثنائى الأدبى الفريد "**عثمان – عزيز**" يمثلان نموذجًا فريدًا فى الأدب البوسنى، وربما فى الأدب الأوروبى كذلك . وعثمان – عزيز هو الاسم الرمزى لهذا الثنائى ، أولهما هو عثمان نورى حاچيتش (١٨٦٩ – ١٩٣٧م) ، والثانى إيڤان عزيز ميليتشيڤيتش (١٨٦٨ – ١٩٥٠م) .

ومن أهم مؤلفاتهما : رواية بلا أمل (فى عام ١٨٩٥م) ، رواية بلا هدف (فى عام ١٨٩٧م) ، ومجموعة قصصية عن الحياة فى البوسنة والهرسك (فى عام ١٨٩٨م) .

ورواية "بلا أمل" تصور بأسلوب درامى واقعى محنة البشانقة المسلمين واحتقارهم للسلطات الجديدة . أما فى روايتهما "بلا هدف" فيقومان بتعرية المجتمع البوسنى وأفراده والسير فى أغوار مشاكلهم بهدف البحث لها عن حل ، والحل هنا هو التطبيق السليم لتعاليم الإسلام ، وكذلك عدم قبول إلا الطيب والجيد من الثقافة الغربية . وبكل وضوح وصراحة يؤكد المؤلفان أن الإسلام هو دين الحضارة والثقافة والتقدم وأنه يحض على طلب العلم والمعرفة أينما كانا .

والأديب **أدهم مولى عبديتش** (١٨٦٤ - ١٩٥٤م) كتب الرواية والقصة وبعض المسرحيات علاوة على عديد من الدراسات والمقالات التربوية . ومن أشهر أعماله : قصص فكاهية (فى ١٨٩٣م) ، ورواية "الدغل الأخضر" (فى ١٨٩٨م) ، مجموعة قصصية بعنوان : "على شاطئ البوسنة" (فى ١٩٠٠م) ، رواية "الأزمنة الجديدة" فى عام ١٩١٤م ، وغيرها .

ومعظم الأعمال الأدبية لأدهم مولى عبديتش تعكس الظروف الأدبية المحلية فى البوسنة والهرسك ، ولا يعالج فيها إلا الموضوعات الراهنة للتطور الثقافى والاجتماعى للبشانقة المسلمين . والخط الرئيسى لها هو الجمع بين الماضى والحاضر، وبين التقاليد العريقة والواقع الراهن للبشانقة ، وكان المؤلف يتعايش مع كل هذا تعايشًا شخصيًا وكأنه جزء لا يتجزأ من حياته ومصيره .

وقد اتخذ الأديب أدهم مولى عبديتش من بعض تفصيلات حياته وذكرياته مادة موضوعية لأحداث روايته "الدغل الأخضر" ، وربما أوجزها فى أفكار طورها إلى مواقف ونظريات تتشابك فى عمله الأدبى كله . وهذا يدلنا على صدق المؤلف وعلى خوضه لهذه المواقف فى الحياة .

ومن الطريف أنه من الشخصيات المهمة فى هذه الرواية شخصية عربى لم يحدد المؤلف له اسمًا . ورغم فقر هذا العربى فقد حطم كل ما فى مقهاه وذهب مع أحمد ، الشخصية الرئيسية فى الرواية ، لكى يكافح مع شعب مدينة ماجلاى ضد المحتل النمساوى . واشترك العربى فى هذا النضال بشجاعة فائقة ، وكان دائمًا فى مقدمة المقاتلين إلى جانب الراية المرفوعة رغم أن المعارك كانت عنيفة . وفى النهاية فَقَد العربى حياته فى هذا النضال المستميت ضد المحتل الشرس وذلك على الرغم من هرب الكثيرين من أهل البلدة نفسها .

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى قيام شخصيات إسلامية وعربية بمختلف الأدوار الرئيسية والثانوية فى كثير من القصص والروايات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد تناولت هذه الظاهرة فى رسالتى للدكتوراة تحت عنوان :

"شخصية العربى فى النثر باللغة الصربوكرواتية" . وذكرت فيها تعدد أسباب هذه الظاهرة . ومن أهمها تأثر مؤلفى هذه القصص والروايات بالمذهب الرومانسى الذى كان مزدهرًا آنذاك فى أوروبا كلها ، وذلك علاوة على وجود اتصالات سابقة ومستمرة - بشكل أو بآخر - بين العرب وبين الشعوب البلقانية ومنها البشانقة المسلمون .

وإذا بحثنا تحديدًا عن سبب ظهور شخصية العربى فى رواية "الدغل الأخضر" وإذا نظرنا نظرة متأنية إلى تاريخ حياة مؤلفها وإلى أعماله الأدبية فيمكننا أن نستشف احترامه للعرب وللغتهم وقرآنهم وإسلامهم . ومن هنا فإن المؤلف يجعل من شخصية العربى رمزًا للكفاح البطولى المستمر ضد المحتل وذلك نظرًا لما عرف عن العرب من بطولة وشجاعة وتضحية .

ومن أبرز أدباء هذه الحقبة أيضًا : رضا بك قبطانوفيتش ، صافت بك باش آجيتش ، شمس الدين سرايليتش ، حامد شاهينوفيتش أكرم ، موسى تشازم تشافيتش ، فاضل كورت آجيتش ، عبد الرازق حفظى بيليفاتس ، صالح قزازوفيتش ، وغيرهم .

الأدب الحديث :

ومنذ أن اصطبغ أدب البشانقة المسلمين فى القرنين التاسع عشر والعشرين بالصبغة الأوروبية مر بمراحل التطور والتكوين المتميزة بالنسبة لجميع الآداب الأوروبية من عقلانية وورومانسية وانطباعية وتعبيرية وواقعية ، وعن طريق التحولات المفاجئة والتطورات السريعة تساوى أدب البشانقة من ناحية توجهاته الأساسية وأساليب صياغته مع آداب الشعوب المجاورة المتحدثة باللغة نفسها .

وجاءت الحرب العالمية الأولى بسلسلة من التغيرات العنيفة فى مجال الأدب البوسنى ، وذلك بسبب سهولة تبادل وانتقال عناصر الثقافة ونتيجة لسهولة الاتصال والتقارب بين أدباء منطقة البلقان وبين أدباء الغرب . وهكذا تعرض الأدب البوسنى

لمختلف التيارات الأدبية الغربية الأمر الذى بدَّل عديداً من المفاهيم الأدبية وساهم فى اختفاء بعضها . ووفقًا للاتجاهات الأدبية الأوروبية ظهرت حركات أدبية جديدة ساهمت فى تكثيف وتنوع الحياة الأدبية ، وبالتالى ظهرت أسماء أدبية جديدة أشاعت عن قصد نوعًا من عدم التناسق فى الإبداع الأدبى .

وجاء الأديب البوسنى إيڤو أندريتش (١٨٩٢ - ١٩٧٥م) بنظرة واقعية جديدة رفع بها الأدب البوسنى إلى مصاف الآداب العالمية وذلك لحصوله على جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٦١م .

ومن أهم الأعمال الأدبية لأندريتش : ديوان شعر إكس بونتو (فى ١٩١٨م) ، القلق (فى ١٩٢٠م) ، وروايات : جسر على نهر درينا (١٩٤٥م) ، تاريخ مدينة تراڤنيك (١٩٤٥م) ، الآنسة (١٩٤٥م) ، الفناء الملعون (١٩٥٤م) . ومن مجموعاته القصصية : السنة القلقة ، العطش ، امرأة غير موجودة ، العلامات ، والأطفال ، وطرق ووجوه ومناطق ، عمر باشا لاتاس ، بيت فى مكان منعزل وغيرها . هذا علاوة على كتابته لمجموعة كبيرة من المقالات والأبحاث فى مجال الأدب .

وقد تعرض إيڤو أندريتش فى الآونة الأخيرة للعديد من الانتقادات ، واتهمه البعض بتحريف وتشويه التاريخ وخصوصًا فى روايته "جسر على نهر درينا" التى صور فيها البوسنة بصورة غير طيبة وبأنها حافلة بالبؤس والأمراض . ونسب إليه نقاد آخرون أنه كتب هذه الرواية لأسباب سياسية تعصبية بهدف نسب القتل الجماعى وقسوة البشانقة المسلمين إلى عهد العثمانيين ، وبذلك يتم فى الوقت نفسه بطريق غير مباشر تبرير جرائم جماعات "التشتنيك" الصربية ، التى جرى ارتكابها خلال الحرب ضد البشانقة المسلمين فى البوسنة .

ومنذ ظهور الأعمال الأدبية الأولى للأديب ميشا (أى محمد) سليموڤيتش (١٩١٠ - ١٩٨٢م) ويحلو للنقاد أن يعقدوا العديد من المقارنات والمشابهات بينه وبين إيڤو أندريتش نظرًا لأنهما اختارا البوسنة مادة أساسية للكتابة عنها فى أعمالهما . والحقيقة أنه على الرغم من أن أغلبية مؤلفاتهما عن البوسنة فإن سليموڤيتش لا يبدى

اهتماماً كبيراً بالأشخاص وبالأحداث التاريخية ، وإنما يحاول أن يستنبط من الحقائق الحية عن الأشخاص حكايات رمزية ذات مغزى أخلاقى ، كما أن سليموڤيتش لم يكتب على الإطلاق رواية تاريخية تستند إلى عناصر تاريخية توحى بأنها واقعية .

ومن أشهر أعمال الأديب ميشا سليموڤيتش : الرجل المستاء (١٩٤٧م) ، الكتيبة الأولى (١٩٥٠م) ، السكون (١٩٦١م) ، الأرض الغريبة (١٩٦٢م) ، الضباب وضوء القمر (١٩٦٥م) ، الدرويش والموت (١٩٦٦م) ، الفتاة ذات الشعر الأحمر (١٩٧٠م) ، القلعة (١٩٧٠م) ، الجزيرة (١٩٧٦م) ، ورواية غير مكتملة بعنوان : الدائرة .

ومن المؤكد أن أشهر رواية له هى "الدرويش والموت" التى حصدت أرفع الجوائز ولاقت قبولاً طيباً من جانب النقاد والجماهير ، بل لقد أحدثت هذه الرواية دوياً هائلاً اجتاح الأوساط الأدبية فى البوسنة والهرسك وخارجها فى المنطقة المتحدثة باللغة نفسها . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنها رواية متميزة وفريدة فى موضوعها ومضمونها بشكل لم تألفه الأوساط الأدبية فى حينه . وقد أطلق عليها بعض النقاد أنها رواية إسلامية بسبب بيئتها الإسلامية الخالصة وبسبب أفكارها الشرقية وبسبب العديد من المعانى القرآنية الواضحة التى اشتمل عليها الحوار بين شخصيات الرواية . وقد ننسى أن الرواية صدرت فى عهد سيطرة الحكم الشيوعى فى يوغسلافيا سابقاً .

والأديب **برانكو تشوبيتش** (١٩١٥ - ١٩٨٤م) مهتم أيضاً بالبوسنة التى تظهر فى أقاصيصه وكأنها ميدان قتال يجرى فيه صراع مستمر مع الحياة ، وتبدو كالمكان الرحيب الذى يبرز فيه البؤس البشرى ولكن تتجلى فيه أيضاً العظمة الحقيقية للبشر .

ومن أشهر أعماله : "أسفل جبل جرميتش" مجموعة قصصية فى عام ١٩٣٨م ، "نصر الدين خوجة" فى عام ١٩٣٩م ، المناضلون والإرهابيون فى عام ١٩٣٩م ، رجال الجبل فى عام ١٩٤٠م ، رواية الانهيار فى عام ١٩٥٢م ، لا تحزن أيها الحرس البرونزى فى عام ١٩٥٨م ، الهجوم الثامن فى عام ١٩٦٣م وغيرها .

وقد شبه النقاد تشوبيتش بالأديب الروسى أنطون تشيخوف وخصوصاً بسبب أقاصيصه التى يصور فيها شرائح من الحياة مفعمة بالحزن والرقة وكذلك بالفكاهة والسخرية . ودعا عن طريق أعماله إلى الإخاء بين جميع قوميات وسكان البوسنة والهرسك ، وهى دعوة مثالية لها دوافعها النبيلة وأهدافها السامية .

وامتلك تشوبيتش قدرة فائقة على اكتشاف الموضوعات والشخصيات دون كلل أو ملل . ونجح فى أعماله فى الربط بين الفكاهة والعاطفة وبين الواقع والحلم ، وبين الحزن الواقعى الرومانسى والوصف التصويرى ، وبين الألحان الموسيقية والتسجيلية والأسطورية ، ويصعب فى مؤلفاته وضع حد فاصل بين المحزن والفكاهى ، وبين الفكاهة والجد ، بيد أن قدرته على تأليف الموضوعات وابتداع الشخصيات والمواقف دفعته ، فى أغلب الأحوال ، إلى الكتابة السهلة السريعة دون مراعاة الانتقاء والتمحيص ، ودفعته إلى الكتابة بأسلوب "ريبورتاجى" وأضعفت من تعمقه فى نفسيات شخصياته وجعلته يهبط أحياناً بفكاهته إلى مستوى رجل الشارع ، كما كان يكرر نفسه فى المؤلفات التى يحولها من شكل أدبى إلى شكل أدبى آخر .

ومن أشهر أعمال الأديب محمد كونجيتش المولود فى عام ١٩٣٢م رواياته : الليل ليس له شاهد (فى عام ١٩٧٩م) ، جبهة سيليسوم (فى ١٩٨٢م) ، الآلام الحية (فى ١٩٨٣م) ، وغيرها من المجموعات القصصية .

وبالرغم من أن محمد كونجيتش يسعى فى مؤلفاته إلى إحياء الزمن القديم فالتاريخ لا يهمه على أنه تشابك للأحداث الواقعية ولا تهمه الشخصيات الرئيسية فى ذلك الزمان ، وإنما تعنيه فى المقام الأول الحياة الداخلية للإنسان الذى يتعرض للمخاوف والآلام ويقف بمفرده وسط محن الحياة غير المتوقعة .

ومن خلال استعراضنا للإبداعات الأدبية المعاصرة فى البوسنة والهرسك لاحظنا بروز اتجاهين واضحين وخصوصاً فيما يتعلق بأسلوب العمل الأدبى ، فهناك مجموعة من الأدباء تعالج فى مؤلفاتها الموضوعات والمشاكل المعاصرة بغض النظر عن الشكل الذى تتم المعالجة به . وهناك مجموعة أخرى من الأدباء تعالج فى مؤلفاتها الموضوعات

التقليدية فى شكل الخرافات أو الحكايات أو الأساطير . والأديب **نجاد إبريشيموفيتش** المولود فى عام ١٩٤٠م يتبع المجموعة الثانية من الأدباء . وكشف لنا فى أقاصيصه عن عالم حافل بالنماذج الأصيلة ، وعن عالم خال من القيود والاشتراطات الزمنية والمكانية ، الأمر الذى يزيد من عمقها ويضخم مغزاها ودلالاتها ويضفى على بنائها الداخلى سلاسة وبهجة .

ومن أشهر أعمال نجاد إبريشيموفيتش : أقاصيص منزل بأبواب مغلقة (فى ١٩٦٤م) ، رواية "الداهية" (فى ١٩٦٨م) ، رواية "قره بك" (فى ١٩٧٠م) ، "أقاصيص الحى والميت" (فى ١٩٧٨م) ، أقصوصة "تنين البوسنة" (فى ١٩٨٠) ، من السيرة الذاتية تحت عنوان "إله هذا الأسبوع" (فى ١٩٨٠م) ، تعديل لرواية "الداهية" (فى ١٩٨٢م) ، مسرحية "قره بك" (فى ١٩٨٥م) ، أقاصيص "المسخ والحورية" (فى ١٩٨٦م) .

ومن الطريف أن الأديب نجاد إبريشيموفيتش عاشق للفراعنة وأدبهم وقد زار مصر لاستكمال بعض أعماله الأدبية التى يتحدث فيها عن حياة إحدى الشخصيات الفرعونية المشهورة .

والأديب **سعيد فتح أچيتش المولود** فى عام ١٩٣٥م متعدد المواهب والأنشطة ، فهو يكتب الرواية والقصة القصيرة والمسرحيات والمقالات النقدية فى الأدب والمسرح . وعلاوة على عمله المستمر بالصحافة عمل أيضًا لفترة كاتب سيناريو فى إذاعة وتليفزيون سرايفو . ومن أشهر مؤلفاته : مجموعة قصصية "الخميس بعد الجمعة" (فى ١٩٦٠م) ، رواية "المملكة المديدة للموت" (فى ١٩٦٤م) ، مسرحية درامية : "رقصة كولو حول شجرة التين" (فى ١٩٦٨م) مسرحية كوميدية : "لن تخدعنى" (فى عام ١٩٦٩م) .

والمتأمل لأعمال الأديب سعيد يجد أن له بصمة فريدة واضحة فى الأدب البوسنى المعاصر من خلال أقاصيصه ذات المضمون المكثف . وهو بوجه عام يهتم بالعالم الحضرى والإنسان المعاصر والدراما البشرية . ويولى اهتمامًا خاصا بالإنسان المعاصر وروحه الضائعة وسط تقنيات الحياة الحديثة . ومن ناحية أسلوبه فيمكن

القول بأن جملته بسيطة وحواره قليل مكثف كما فى المسرحيات ، والأحداث فى أعماله سريعة متلاحقة ولا وقت لديه للتفاصيل الدقيقة .

ومن المؤكد أن هناك العديد من الأسماء الأدبية البارزة فى البوسنة والهرسك لم يتسع المجال هنا للحديث المفصل عنها ولا حتى لحصرها والتنويه إليها ، فهذا الموضوع كبير ومتشعب ويحتاج إلى مساحة أكبر وإلى أبحاث عديدة ، ونتعشم أن يعيننا اللّه على القيام ببحث آخر عن هذا الموضوع فى فرصة أخرى .

وفى الوقت الذى كانت فيه بلغراد تمثل المركز والعاصمة السياسية والثقافية ليوغسلافيا سابقًا تجمع فيها الأدباء من جميع الجمهوريات اليوغسلافية وبالتالى من البوسنة والهرسك ، وأسهموا مساهمات جادة وفاعلة فى الحياة الأدبية لبلغراد عاصمة يوغسلافيا وصربيا ولكن دون أن ينسوا مسقط رأسهم البوسنى ودون أن يقطعوا صلاتهم به . واكتسب وجودهم فى العاصمة بلغراد شرعية أدبية معينة جعلت النقاد والأدباء الصرب يعتبرونهم منهم وضم إبداعاتهم إلى إبداعات الأدب الصربى ، بل ويرفضون ويقاومون مطالب الأدباء البوسنيين بفصل إبداعاتهم عن الإبداعات الصربية وتمييزها عنها ، الأمر الذى تسبب فى حدوث صراعات أدبية خفية وشللية أثرت تأثيرات سلبية على المبدعين وعلى إبداعاتهم الأدبية البوسنية . ومما لا شك فيه أن النظام الشيوعى كان وراء هذا الأمر بالتشجيع والمناصرة وبالعقاب إذا لزم الأمر .

وهكذا وجدنا النقاد فى صربيا يضمون إلى إبداعات الأدب الصربى كل مؤلفات الأدباء إيڤو أندريتش ، وبرانكو تشوبيتش ، وميشا سليموڤيتش وغيرهم . وهم كلهم – كما نعلم – ولدوا وترعرعوا فى البوسنة ولكن لسبب أو لآخر انتقلوا إلى بلغراد فى حينه وعاشوا فيها وتزوجوا منها وواصلوا كتابة مؤلفاتهم فيها رغم أن كل كتاباتهم تفوح منها رائحة البوسنة وعبيرها العطر ، وربما كان هذا هو سر تميزهم واستمرار نجاحهم .

ولقد خفت صوت الأدب والأدباء حينما علا صوت حرب التطهير العرقى التى فرضتها صربيا على البوسنة بعد حصولها على الاستقلال والحرية ، وذلك لأن المعركة كانت قاسية وشرسة وصدمتها عنيفة ومعاناتها رهيبة وآلامها عسيرة ، إلا أن هذه

الحال لم تستمر طويلاً وسرعان ما ظهرت بعض الأعمال الأدبية التى سجلت حدث الاستقلال والأحداث الدموية المؤسفة للحرب بأهوالها والتطهير العرقى ببربريته ووحشيته . غير أن هذه الأعمال الأدبية لم ترتفع إلى مستوى هول الحدث وبشاعته وكانت أشبه بالتقارير الصحفية والانطباعات التسجيلية والمذكرات اليومية ولم تتعمق تعمقًا إبداعيا خلاقًا فى تلك الأحداث الحاسمة التى وقعت على أرض البوسنة .

ومن الأعمال الأدبية الحديثة التى صورت واقع الحرب وسجلت معاناة البشانقة فيها رواية "كيراتيرم" للأديب **محيى الدين شاريتش** . وكيراتيرم اسم لمعسكر اعتقال أقامه الصرب للبشانقة فى مصنع للبلاط الخزفى يحمل الاسم نفسه . وقد أقيم هذا المعسكر فى ٢٦ من مايو عام ١٩٩٢م ، ولكن سرعان ما تم إغلاقه فى أغسطس من العام نفسه تحت ضغط الرأى العام الدولى بعد أن تعرف العالم على صور الإبادة والتعذيب وعلى الآلام التى تعرض لها البشانقة فى هذا المعسكر .

ومن الطريف أن مؤلف هذه الرواية كان أحد نزلاء هذا المعسكر ، فكان بذلك شاهداً على كل ما حدث لبنى وطنه من صنوف العذاب وألوان التعذيب ، ولذا فهو فى هذه الرواية يسرد مشاهد تسجيلية للأحداث المؤسفة التى وقعت للبشانقة سكان البوسنة . وقد أهدى عمله الإبداعى هذا إلى أرواح بعض زملائه وأهل قريته الذين اختفوا إلى الأبد فى هذا المعسكر الصربى للتعذيب .

وكان الكاتب البوسنى محيى الدين شاريتش دقيقًا فى وصفه لمعسكر الاعتقال هذا حينما ذكر أنه جمع كل أقذار البشر وعفونتهم . وحكى لنا الكاتب ، دونما تنميق أو تجميل ، كيف نهبوا أملاكه وحاجياته وطردوه من بيته ومن بلدته وأرادوا بعد ذلك محاكمته . وتساءل فى دهشة عن سبب محاكمته وهو المجنى عليه . ورغم أنه يعرف الإجابة تمام المعرفة فإنه لا يريد أن يصرح بها ويدع للقارئ فرصة أن يستشفها من بين سطور روايته ومن خلال قراءته لصور الأحداث التى وقعت لأهل قريته ، حيث كانت الآلام والمعاناة تفوق طاقة احتمال البشر ، وحيث كان الموت واقعًا فظا يتكرر حدوثه كل يوم ، بل ويمكن حدوثه فى أية لحظة .

وصنع المؤلف بأسلوب دافئ متميز وإنسانية عميقة نسيجًا متشابكًا من السير الذاتية للمعتقلين وتجاربهم السابقة قبل الحرب وحكايات حبهم وعاداتهم ومسراتهم وأنشطتهم الاجتماعية والإبداعية . وأوضح لنا المؤلف أن كل هذا تحول فى غمضة عين وانتباهتها إلى كارثة قومية أصابت البشانقة بأبلغ الأضرار وأشدها تدميرًا .

ومن قصة إلى قصة ومن موقف إلى آخر يشكل المؤلف أمامك فسيفساء صادقة عن أشخاص بسطاء عاديين لم يرتكبوا أية جريمة بل وربما لا ناقة لهم ولا جمل فيما حدث ، ولكن صدر ضدهم حكم بالإبادة الجماعية من قبل النازيين الجدد . ورغم قتامة الصورة وكآبتها فإن التفاؤل الغريزى لم يترك الكاتب المعتقل والشاهد على تحول البوسنة من واحة أمان وسلام إلى غابة هلاك ودمار .

وبعد توقف العمليات العسكرية شهدت وتشهد الساحة الأدبية البوسنية عملية غليان وتتعرض لتقلبات وتغيرات غير منظورة ، وتخوض عملية إحلال وتبديل تفتقد إلى أية معايير موضوعية معروفة ، فقد لقى بعض الأدباء حتفه وأصيب أدباء آخرون بأمراض نفسية أو بالصمت التام على الرغم من وجودهم على قيد الحياة وذلك إيثارًا للسلامة ، وهاجر آخرون إلى خارج البلاد حفاظًا على حياتهم أو سعيًا وراء لقمة العيش فى مجال آخر .

وكان حتمًا أن تنعكس الظلال القاتمة للانقسامات والخلافات السياسية والشخصية والحزبية انعكاسًا سلبيا على الإبداعات الأدبية . ووسط هذا الجو الغريب ضاعت المعايير الموضوعية والقيم الفنية واختلط الحابل بالنابل . وعلى النقيض من ذلك أشرقت سماء الأدب فى البوسنة والهرسك بأسماء أدبية جديدة وأقلام شابة متحمسة، ودفع هذا بعض الأدباء القدماء إلى استئناف الكتابة والإبداع .

وعلى أية حال فلم يبح بعد الأدب البوسنى بكل مكنوناته ولم يكشف عن وجهه الجديد بعد حصول البشانقة على استقلالهم . ومما لا شك فيه أن الإبداعات الأدبية للبشانقة فى حاجة ماسة من جانبنا إلى تكثيف وتسليط مزيد من الأضواء عليها حتى نتفهمها ونحسن التعرف عليها وفهم أعماقها وأبعادها .

الفصل السادس

من عادات وتقاليد البشانقة

- ميلاد الطفل .
- الختان .
- ختم القرآن .
- عادات رمضان .
- بناء مسكن والانتقال إليه .
- تشييد وافتتاح جامع جديد .
- الزواج .
- الحج .
- الأضحية والاحتفال بالعيدين .

الفصل السادس

من عادات وتقاليد البشانقة

تمهيد :

انطلاقًا من أهمية المعرفة الواعية بعادات وتقاليد الشعوب وما يرتبط بها من تسجيل لتطورها الحضارى أقدم على صفحات هذا الفصل الأخير رحلة سريعة عبر جنبات التاريخ بهدف إلقاء نظرة سريعة على بعض من عادات وتقاليد البشانقة سكان البوسنة والهرسك ، والتعرف على مدى قربها أو ابتعادها عن العادات الإسلامية الصحيحة ، وبغرض استكمال الصورة التى أردنا تقديمها لقارئنا العزيز عن تاريخ وثقافة البشانقة .

وتجدر الإشارة إلى أن المعلومات المذكورة على الصفحات التالية هى ثمرة لقراءة عديد من المراجع والكتب والصحف والمجلات التى كتبت عن هذا الموضوع ، وهى وليدة لتسجيلى لخواطرى وانطباعاتى عن معايشتى الواقعية وتعاملى المباشر لفترات طويلة مع مختلف الشخصيات من البشانقة .

وعادات وتقاليد البشانقة المسلمين فى البوسنة والهرسك غاية فى الثراء فى مضامينها وغاية فى الوفرة فى تنوعها وجمال أشكالها والأساليب المستخدمة للإعراب عنها . وكانت ولا تزال المصادر الأساسية عن هذه العادات والتقاليد هى الإبداعات الشعبية للبشانقة من ملاحم وقصائد شعبية غنائية وعاطفية وقصص شعرية وحكايات وخرافات وقصص خيالية على لسان الحيوانات وأمثال شعبية وألغاز وما إلى ذلك من فنون الأدب الشعبى . وقد كانت صحف ومجلات البشانقة المسلمين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تهتم كثيراً بنشر مثل هذه العادات والتقاليد ونشر

دراسات وأبحاث عنها ، بل وانتقاد غير الطيب منها وخصوصًا المأخوذ منها عن الأجداد السلاف . وتقوم بدور مماثل فى الوقت الحالى الصحافة الإسلامية .

وقد تجنبنا أساسًا الخوض فى أية تفصيلات غير دقيقة وغير مفيدة أو أية نقاط خلافية ، ولم نتطرق فى حديثنا عن العادات والتقاليد السلافية الموجودة فى البوسنة ، وإنما ركزنا ، لضيق المساحة ، حديثنا عن تلك العادات الإسلامية للبشانقة التى كانت وأصبحت فى الوقت الحالى جزءًا أساسيا من حياتهم ، فهم يقومون بها ويعايشونها ويعيشون ويتمتعون بأدائها .

ولأسباب كثيرة لم يتم حتى وقتنا الحالى بحث ودراسة عادات وتقاليد البشانقة بشكل علمى ، ولم يتم تسجيل الكثير منها فى حينه بحيث إن بعضها تم نسيانه وتم إهمال بعضها الآخر وبعض ثالث على وشك الضياع والنسيان وبخاصة فى ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية وتطورات العصر السريعة .

ميلاد الطفل :

يمثل ميلاد الطفل بالنسبة للأسرة البوسنية حدثًا كبيرًا فى حياتها ، وتستعد له استعدادًا غير عادى وخاصة الأمهات . وتعد الأيام السابقة لميلاد الطفل واللاحقة له هى أيام التوقع والسعادة والخوف فى الوقت نفسه . ومن الأحداث المهمة بعد ميلاد الطفل منحه اسمًا وفقًا للعادات الإسلامية . ويسعى الوالدان إلى أن يمنحا مولودهما اسمًا جميلاً من حيث نطقه ومعناه . وتكاد تكون من العادات الثابتة لدى البشانقة المسلمين أن تتم تسمية المولود بأسلوب متواضع ولكنه رسمى وإسلامى . وعادة ما يتم هذا فى اليوم السابع من ميلاد الطفل ، أى فى السبوع ، حيث يجتمع أقرب الأقارب والأصدقاء فى منزل أسرة المولود وفى حضور إمام الجامع الموجود بالحى أو المنطقة ، وهو الذى يقوم بعملية منح الاسم للمولود الجديد وفقًا للعادات الإسلامية .

ومن أجل هذا الغرض تقوم الأم بتنظيف المولود بالماء وتعطيره وإلباسه أجمل الملابس وأنظفها ، وتسلمه للإمام الذى يأخذه وهو يبسمل ويكبر ويتجه والمولود فى حضنه تجاه القبلة ويقرأ الأذان فى الأذن اليمنى للمولود ، وإقامة الصلاة فى الأذن اليسرى . وبعد ذلك يجلس الإمام والمولود لا يزال فى حضنه ويتلو جزءًا من أجزاء القرآن ، ثم يقرأ الدعاء المناسب المألوف لمثل هذه المناسبة ويصاحبه الحاضرون بالتأمين على الدعوات . ثم ينطق الإمام بصوت عالٍ اسم المولود ، أى ينادى على المولود باسمه الذى اختاره له الوالدان من قبل . وفى النهاية يهنئ الوالدين ويدعو للمولود ولهما بالسعادة والهناء وطول العمر وما شابه ذلك . ويدعو رب الأسرة المدعوين إلى حفل متواضع يتلوه إنشاد بعض قصائد المدح النبوى بمعرفة الإمام أو مساعديه أو تلامذته .

ويتم فى بعض الأسر منح المولود ، علاوة على اسمه الأساسى الذى يتم به تسجيله فى سجل المواليد ، اسمًا آخر يسمونه وينادونه ويعرفونه به فى الحياة اليومية ، وغالبًا ما يكون هذا هو أحد أسماء التدليل الذى ظهر مع المولود يوم ولادته وفيما بعد يأخذ مكانه الاسم الرسمى حتى خارج نطاق الأسرة .

وفى غالبية الأحوال ومع استثناءات ضئيلة تتشابه أسماء البشانقة المسلمين مع أسماء المسلمين فى العالم الإسلامى . وفى أحيان كثيرة تتعرض هذه الأسماء للتغيير فى نطقها أو فى حذف بعض حروفها استسهالاً للنطق أو من أجل التكيف مع اللغة البوسنية وأسلوب نطقها وحروفها ، وفى أحيان أخرى تتعرض للاختصار وبخاصة تلك الأسماء المركبة ، أى المكونة من كلمتين مثل : عبده أو أفديا من عبد اللّه ، شمسو من شمس الدين ، ذولفو من ذو الفقار ، وما إلى ذلك . وهناك أسماء يتم إضفاء الطابع اللغوى عليها حتى تصبح بوسنية مثل : ميشا وميهو من محمد ، تشيمال من كمال ، تشازم من كاظم ، عليا من على ، أيشا أو أيكا من عائشة ، فاذيلا من فضيلة وغيرها .

ومن عاداتهم وتقاليدهم الطريفة أيضًا أن يتم منح المولود اسم الشهر العربى الذى حدثت ولادته فيه ، فإذا ولد فى شهر رمضان يكون اسم المولود رمضان أو رامو

والمولودة راميظا ، وإذا ولد فى شهر محرم يكون اسم المولود محرم أو موهو والمولودة محرمة ، وإذا ولد فى شهر صفر فيكون اسم المولود صافو والمولودة صافيا وهكذا .

وفى بعض الأماكن بالبوسنة والهرسك فإن الأسر التى لا يعيش لها أولاد تعطى لمواليدها أسماء لها فى أغلب الأحيان طابع وقائى أو طموحى وذلك منعًا للحسد ووقاية من العين وفقًا لبعض المعتقدات الشعبية . ومثل هذه الأسماء موجودة أيضًا بين الأسماء الإسلامية ذات الطابع الشرقى . وكثيرًا ما تحمل هذه الأسماء أوصافًا أو أسماء لحيوانات متوحشة مثل : كورت (بمعنى الذئب باللغة التركية) ، أرسلان (بمعنى الأسد باللغة التركية) ، قبلان (بمعنى النمر باللغة التركية) ، أسد بنفس معناها باللغة العربية وغير ذلك من الأسماء .

الختان :

نظرًا لأن عملية ختان المواليد الذكور مرتبطة بالدين فقد تعرضت هى الأخرى لما تعرض له الدين طوال تاريخ البشانقة ، فكلما واجه البشانقة المسلمون مشقة وصعوبة فى التمسك بدينهم قل اهتمامهم بإجراء عملية الختان لأولادهم . واليوم وقد أصبح من المعروف على مستوى الثقافة الصحية فى العالم فائدة الختان من أجل نظافة وطهارة جسم الإنسان وصحته بوجه عام فإن العديد من البشانقة يحرصون على إجراء هذه العملية لأولادهم .

وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان يقوم بعملية الختان فى البوسنة والهرسك الحلاقون . وخلال العهد العثمانى كان يوجد عدد قليل للغاية من الأطباء المتخصصين ، وإذا كانوا موجودين فهم من الأطباء العسكريين ، ولذا كان هؤلاء الحلاقون يقومون حينذاك ببعض العمليات الجراحية البسيطة ومنها عمليات الختان وعلاج الجروح والعظام المكسورة ، ومعظم الحلاقين علَّم نفسه بنفسه أو أخذ الحرفة عن الأب أو عن معلم . وأمثال هؤلاء الحلاقين كانوا فى أغلب الأحوال من المسيحيين أو اليهود ، إلا أن عمليات الختان لم يكن يقوم بها إلا المسلمون .

وهكذا كانت الحال فى البوسنة فكان الحلاق يقوم بعمليات الجراحة البسيطة وعمليات الختان . ومن أشهر الحلاقين فى مدينة توذلا البوسنية كان الحاج محرم حاج يوسفوفيتش (١٩٠٤ - ١٩٧٦م) ، واشتهر بنظامه ودقته ونظافته الشديدة ، وقد تعلّم حرفة الحلاقة وورثها عن أبيه عثمان الذى اشتهر أيضًا كحلاق جيد . وليس من نافلة القول التنويه إلى أنه كانت هناك بالبوسنة عدة عائلات تمارس حرفة الحلاقة لفترات طويلة ويتوارثونها جيلاً بعد جيل .

وفى عام ١٩٢٣م أصدرت وزارة الصحة فى يوغسلافيا الملكية قرارًا بأنه لا يمكن أن يقوم بعملية الختان إلا المتخصصون أو من فى مستواهم ، الذين كانوا يعملون تحت إشراف ورقابة الأجهزة الرسمية لوزارة الصحة . وفى يوغسلافيا الاشتراكية صدرت أيضًا عدة قرارات لتنظيم عمليات الختان للذكور ، وبمقتضاها لا يقوم بإجراء عمليات الختان إلا الأطباء المتخصصون على أن يتم ذلك فى المستشفيات الرسمية . وفى بعض الأماكن كان لا بد من الحصول على موافقة كتابية من الشخص نفسه إذا تجاوز سنه الرابعة عشرة ، وفيما عدا ذلك كانت تكفى موافقة الوالد أو ولى الأمر .

ومن العادات أيضًا إجراء عملية الختان بشكل جماعى ، أى لأكثر من غلام فى وقت واحد . وفى أحوال كثيرة كان الأب الثرى يتكفل بجانب إجراء الختان لابنه وبإجرائه لابن فقير من العائلة أو من الجيران ، وكان يتم اعتبار ذلك ثوابًا كبيرًا . ويتم تجهيز الغلامين لعملية الختان بطريقة واحدة من حيث إعداد الملابس وأغطية الأسرة والأكياس التى يجمعون فيها الهدايا .

ومن الاستعدادات الأساسية لعملية الختان أن يتم قبلها بيومين أو ثلاثة تنظيف المنزل تنظيفًا جيدًا وطلاء الجدران وغسل الأرض وتنظيف وتهوية غطاءات الأسرة وما إلى ذلك . وعادة ما يتم إجراء عملية الختان فى الربيع أو الخريف المبكر ويفضل عدم إجرائها فى أيام الحر .

ويتألف برنامج عملية الختان فى البوسنة والهرسك من الاستعدادات الأولية ، ثم عملية الختان نفسها وكل ما يتعلق بها ، ثم فى الختام الحفل الشعبى الكبير بمصاحبة

الموسيقى والغناء والرقص . وفى القرى لابد من اشتراك العازفين وقارعى الطبول ، ولأسباب عاطفية بحتة يختار والد الغلام الذى ستُجرى له عملية الختان أحـد أقربائه أو أصدقائه المقربين لتنظيم وتنفيذ عملية الختان وما يتبعها من احتفال . ويقوم بعض الآباء بنحر أضحية بهذه المناسبة .

وفى أغلب الأحيان يتم إجراء عملية الختان فى يوم الجمعة ، ودعوة الجيران والأقارب القريبين والبعيدين والأصدقاء والمعارف : وفى بعض الأماكن تبدأ الوليمة قبل ختان الغلام وفى أماكن أخرى بعدها وذلك وفقًا للبرنامج المعد مسبقًا . وغالبًا ما تكون هناك مائدتان ، واحدة للرجال وأخرى للنساء . وبعد أن تنتهى الوليمة يقوم الحلاق بأداء ركعتين من الصلاة وبعدها يقوم بإجراء عملية الختان بالطريقة المألوفة بمساعدة مساعديه أو المساعدين الذين حددهم له والد الغلام . وبعد إجرائها يوضع الغلام فى السرير المعد لذلك . ومن المعتاد بعد الانتهاء من إجراء العملية إطلاق أعيرة نارية والتهليل والغناء ، وفى بعض الأماكن وبخاصة القرى يبدأ عزف الموسيقى وقرع الطبول ، ثم تبدأ عملية إهداء الهدايا للغلام ، فيقوم أولاً والده بتقديم هدية مالية إليه ، ثم إلى الحلاق ، ثم أقرباؤه وباقى المدعوين الذين حضروا الوليمة وذلك وهم فى طريقهم لمغادرة المنزل . وفى بعض الأحيان يحضر حفل الختان إمام الجامع الذى يقوم فى ختامه بقراءة الدعاء المناسب للغلام ولأبويه بالصحة والسعادة .

وبعد الانتهاء من الوليمة وعملية الختان يبدأ الفرح الحقيقى بالغناء والموسيقى والرقص الشعبى ومختلف ألوان المباريات والمسابقات مثل سباق الخيل والعدو وإصابة الهدف وتسلق الشجر والقفز ، وغير ذلك من ألوان الرياضة مع تقديم جوائز مناسبة للفائزين .

وفى بعض القرى يتم قبل يوم الختان بيوم على الأقل تجهيز وإعداد كميات كبيرة من الحلوى ، ثم يتم فى يوم الختان توزيعها على المدعوين من الأصدقاء والأقارب والجيران ، وعادة ما يتم توزيع الحلوى فى أطباق نحاسية جميلة مغطاة .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العادة الإسلامية ، المفيدة دينيا وصحيا ، قد أخذت تفقد أهميتها ، وكذلك طابعها الإسلامى الأصلى وتتخذ مضامين مختلفة غريبة على التقاليد الإسلامية مثل شرب الكحوليات وما يصاحبه من تصرفات طائشة غير مسئولة يتم نسبها إلى الإسلام مع أن الإسلام منها براء وغير ذلك من سلوكيات غير إسلامية .

ختم القرآن :

تحدثنا من قبل عن الكتاتيب ودورها فى البوسنة والهرسك وكيف كانت ، ولا تزال على نحو ما ولكن بشكل عصرى مختلف ، هى المدرسة الأولية التى يستقى منها التلاميذ البشانقة المعارف الأساسية من الدين الإسلامى . وكان ولا يزال البشانقة المسلمون يبدون اهتمامًا كبيرًا بالكتاتيب ويقدرون الدور الذى تقوم به فى حياتهم ويهتمون بانتظام أولادهم فيها ، وأكبر دليل على ذلك هو العديد من العادات المرتبطة بالاستعدادات لانتظام الأولاد طواعية فى الدراسة فى الكتاتيب ، وكذلك العادات الكثيرة الخاصة بختم القرآن والاحتفال بذلك ثم الانتهاء من الدراسة فى الكُتَّاب . وقد أسهمت الإبداعات الشعبية من قصائد وطرائف وحكايات وأغانى النوم للأطفال فى الحديث عن الكتاتيب وانتظام الأولاد والفتيات فى الدراسة بها وغير ذلك من أمور متعلقة بالكتاتيب .

وفيما يتعلق بقراءة القرآن وتلاوته وحفظه وختمه فكل هذا يتم فيما يسمى بكُتَّاب الصبيان ، ومن أكثر اللحظات بهجة وفرحة بالنسبة للآباء والأولاد الدارسين فى هذا النوع من الكتاتيب هو الاحتفال بختم القرآن وقراءة الدعاء الخاص بذلك . ويتحتم التنويه إلى أن هذا يتم فى الوقت الحالى فى مراكز التعليم الإسلامى المشابهة إلى حد ما بالكتاتيب الإسلامية القديمة .

وحينما يتمكن التلميذ أو التلميذة فى كُتَّاب الصبيان من مذاكرة كل المواد التى يدرسونها فى الكُتَّاب ، ومنها قراءة القرآن كله قراءة صحيحة أمام الحاج المعلم ،

عندئذ يتم تحديد موعد له للاحتفال بختم القرآن وقراءة الدعاء . وغالبًا ما يتم ذلك في الجوامع أو في منازل التلاميذ ، وبالنسبة للتلميذات يتم في منزل الحاجة المعلمة .

ومن أجل هذا اليوم يستحم التلميذ ويغتسل ويتزين ويرتدى أفضل ملابسه ويذهب حاملاً المصحف إلى الكُتَّاب الذى تجمع أمامه عدد كبير من الناس . وعندئذ يخرج المعلم التلاميذ من الكُتَّاب وينظمهم فى صفوف ، ويجعل التلميذ الذى سيختم القرآن يقف على رأس الموكب ووراءه تلميذان يمسكان بحامل المصحف وهو مزين بالمناديل القطيفة . ويليهما الحفظة أو العرفاء وهم يحملون أنواعًا مختلفة من المناديل والقمصان وغير ذلك من ألوان الهدايا المهداة من والدى الغلام وأقارب وأصدقاء العائلة . وخلال سيرهم يقرأ هؤلاء الحفظة أو العرفاء القصائد والأناشيد الدينية ووراءهم يسير المعلم ويتبعه التلاميذ فى شكل موكب ، ومن الجانبين يمضى ثلاثة أو أربعة من الشباب الذين يقومون بعملية التنظيم وهم يحملون فى أيديهم عصا وعليها مناديل كبيرة . وخلف موكب التلاميذ يسير الباقون من أقارب وأصدقاء وجيران وغيرهم .

ويأخذ الموكب فى التحرك من الكُتَّاب صوب منزل التلميذ . وفى بعض الأحيان يطوف الموكب بمقابر الأقارب والأصدقاء ويقرأ الجميع الفاتحة على أرواح الأموات وخلال السير ينشد الحفظة أو العرفاء القصائد الدينية ويتلون بعض الأدعية ويؤمن التلاميذ على دعائهم . وعندما يصل الموكب إلى منزل التلميذ يتم نقل حامل المصحف إلى داخل المنزل ووضعه فى واجهة الحجرة التى يكون المدعوون قد تجمعوا فيها ويبقى موكب التلاميذ أمام المنزل . ويبدأ التلميذ فى تلاوة بعض آيات القرآن ، ثم يقرأ الحفظة أو العرفاء بعض السور القصيرة وبعدها يقرأ المعلِّم دعاء ختم القرآن ويؤمن التلاميذ والآخرون على دعائه ، ثم يتم توزيع الحلوى على التلاميذ الذين ينصرفون بعدها .

ويقوم الذى أنهى ختم القرآن بتقبيل يد المعلِّم ثم يد والده وهكذا دواليك يد الكبار من المدعوين . والجميع يقدمون الهدايا للتلميذ تهنئة له على ختمه للقرآن . ثم ينتقل

التلميذ إلى الحجرة الأخرى التى تجلس فيها النسوة ويأخذ فى تقبيل يد أمه أولاً ثم يد النساء الأخريات اللاتى يقدمن له الهدايا . ويتم وضع كل الهدايا التى حصل عليها التلميذ من مناديل حريرية وقطنية صغيرة وكبيرة وقمصان وجوارب وما شابه ذلك على حامل المصحف ، حيث تتم مشاهدتها فيما بعد . وبعد غسل الأيدى يجلس المدعوون إلى المائدة لتناول الطعام وبعد الانتهاء منه يتم غسل الأيدى مرة أخرى واحتساء القهوة ثم الذهاب إلى الجامع لأداء صلاة الظهر وبذلك تنتهى مراسم الاحتفال .

ومن المعتاد أن يتم بمناسبة ختم القرآن منح المعلِّم هدية مالية يتم وضعها فى يد المعلم عند تقبيلها . وبأسلوب مشابه يتم الاحتفال بختم القرآن فى المناطق الأخرى من البوسنة والهرسك ، وربما يتم هذا بشكل أكثر تواضعًا مع بعض الاختلافات ، وهذا يرتبط بمكان عقد الاحتفال (فى الكُتَّاب أو فى الجامع أو منزل المعلم أو منزل التلميذة) . وعلى أية حال فمراسم الاحتفال مرتبطة ارتباطًا كبيرًا بالحالة المالية للوالدين .

وبعد إدخال نظام الكتاتيب الابتدائية والدراسة النظامية وفقًا للفصول كان التلاميذ يدرسون المواد نفسها تقريبًا بناء على الكتب المدرسية المقررة ، ومنها تعليم القرآن وحفظه . ومنذ ذلك الحين اختفى ختم القرآن الفردى وأصبح ختم القرآن يتم فى نهاية السنة الدراسية بالنسبة لتلاميذ الصف الثانى النهائى ، ولذا فإن ختم القرآن كان يتم فى أغلب الأحيان فى الكتاتيب ، ويتم فى بعض الأماكن فى الجوامع ، ويتم فى الأماكن الأخرى التى لا توجد بها كتاتيب فى المدارس النظامية .

وعند عقد حفل ختم القرآن فى أحد كتاتيب البنات فى سرايفو تأتى أمهات التلميذات اللاتى سيتم عقد امتحان ختم القرآن لهن وهن يصطحبن صديقاتهن وجاراتهن إلى الكُتَّاب . وجميعهن - كبيرات وصغيرات - يرتدين الحجاب . ويتم إشعال أعواد البخور لتعطير المكان . وفى البداية تقوم المعلمة بامتحان التلميذات فى أمور الدين وكيفية أداء الصلاة والتوضأ وما شابه ذلك من أسئلة . وتبدأ التلميذات الممتحنات على التوالى فى تلاوة عشر آيات من القرآن ثم قصار السور ، وبعد ذلك

تقرأ المعلمة دعاء ختم القرآن وتؤمن عليه جميع الفتيات اللاتى يقمن بعد الانتهاء من الدعاء بتقبيل يد المعلّمة وتسليمها الهدايا الرمزية ، ثم يقبلن يد أمهاتهن . وتقوم بعض الثريات بتوزيع السميط على التلميذات ، أو بدعوة جميع الصديقات والجارات إلى حفل بالمنزل وبذلك تنتهى مراسم الاحتفال .

وفى أماكن أخرى من البوسنة يصطحب الآباء والأمهات التلميذات إلى نزهة خلوية فى مكان طبيعى به خضرة حيث يتم إعداد حفل يحضره الأصدقاء والجيران ويتم توزيع السميط واللحم المشوى والحلوى والفاكهة على التلميذات . وفى مثل هذه الحفلات يتجمع الناس وربما يجرون مسابقات وألعابًا للتسلية .

وفى بعض القرى يتم بعد دعاء ختم القرآن رفع العلم الأخضر وإطلاق أعيرة نارية وعقد سباق للعدو وإنشاد الأغانى ، وغالبًا ما يتم هنا أيضًا توزيع الفطائر والحلوى على الصغار .

ويتم اليوم ، مع اختلافات بسيطة عقد احتفال رسمى لختم القرآن ونهاية الفصل الدراسى . ويمكن القول بأنه يتم الإعداد الجيد لمثل هذا الاحتفال بحيث يشتمل على برامج ثرية للغاية يقوم بتنفيذها فى الأغلب الأعم التلاميذ بأنفسهم مع تلقى العون اللازم من جانب المعلمين والأئمة . وغالبًا ما تقوم الصحافة الإسلامية البوسنية بإعلام قرائها بأنباء عقد مثل هذه الاحتفالات .

ويتم أيضًا فى الوقت الحالى ، فى أغلب الأحيان ، عقد الامتحانات النهائية لتلاميذ التعليم الدينى بما فيها امتحانات ختم القرآن فى الجوامع التى تم التدريس فيها ، وذلك على النحو التالى : فى اليوم والموعد المحددين مسبقًا ، وعادة ما يكون يوم العطلة ، يتجمع فى الجامع التلاميذ المنتظمون فى التعليم الدينى وآباؤهم وأصدقاؤهم وجيرانهم وأفراد الجماعة الإسلامية ، ويكون فى استقبالهم فى الجامع الإمام والمعلم . وغالبا ما يحضر مثل هذه الاجتماعات المقرر الثقافى لمجلس الجماعة الإسلامية وممثلوها ، والمفتى ، وبعض مسئوليها ، وغيرهم ، وبهذا يكتسب الاحتفال طابعًا رسميًا . ويتم حينذاك تزيين فصول التعليم الدينى أو حجرات التعليم فى الجامع . وفى

العادة بعد أداء الصلاة التى حان وقتها يحتل التلاميذ والضيوف أماكنهم ثم يبدأ تنفيذ برنامج الاحتفال .

وفى الجزء الأول فيه يقوم الإمام بامتحان التلميذ فى المواد الدراسية التى تمت دراستها ومنها حفظ القرآن وختمه . ثم يلقى الإمام على المدعوين والحاضرين خطبة مناسبة يشيد فيها بأهمية التعليم الدينى والنجاح الذى تم بلوغه فى هذا الصدد . وبعد ذلك يقوم التلاميذ بتلاوة قصار السور ، ثم يقرأ الإمام الدعاء المناسب ويؤمن الحاضرون على دعائه.ويهنئ الإمام الحاضرين بمناسبة انتهاء السنة الدراسية للتعليم الدينى ، وعادة ما يتم بعد ذلك توزيع الهدايا المناسبة على التلاميذ وتقديم الحلوى وما شابه ذلك .

وفى أحيان كثيرة يقوم الأئمة مع التلاميذ بإعداد وتنفيذ برامج ثرية للاحتفالات التى تتم إقامتها بمناسبة نهاية التعليم الدينى . وعادة ما يتألف مثل هذا البرنامج من محاضرة مناسبة وإنشاد لقصائد المدح النبوى والقصائد الدينية المناسبة بشكل جماعى أو منفرد وتلاوة لبعض أجزاء من القرآن وما شابه ذلك . وفى العادة يقوم بتنفيذ مثل هذا البرنامج تلاميذ وتلميذات التعليم الدينى ، الأمر الذى يمنح مثل هذه الاحتفالات سحراً خاصا ، ويجعلها تلقى القبول والتعاطف من جانب المشتركين والحاضرين .

عادات رمضان :

يتمتع شهر رمضان بمكانة خاصة فى قلوب البشانقة المسلمين ، ولذا يتم إجراء استعدادات كبيرة قبل حلوله بعدة أيام ، إذ يتم تنظيف الجوامع وتجديدها وإعادة تنظيمها . وعادة ما يقوم البشانقة بمثل هذه الأعمال طواعية . وفيما مضى كان يتم الإعلان عن بداية ورحيل رمضان بإطلاق المدافع ، أما الآن فبعد الإعلان عن بدء رمضان يتم إشعال القناديل على مآذن الجوامع عند صلاة المغرب ، ويستمر إشعال القناديل طوال الشهر . ويتم الاحتفال بعملية إشعال القناديل بطريقة مبهجة ، فالصغار

فى القرى والمدن ينتظرون حلول وقت الإفطار أمام الجوامع ، بينما يقف المؤذن على المئذنة قبيل حلول الموعد بنصف الساعة لكى يعد القناديل ، ويقوم المدفعجى بتنظيف ماسورة المدفع وحشوها بالطلقة ، وبعد التكبيرة الأولى يطلق المدفعجى المدفع ويصيح الصغار فى صوت واحد : اشتعلت القناديل ويهرولون إلى منازلهم فى بهجة وسرور .

وسرعان ما تخلو الشوارع تماماً من المارة وتنتشر رائحة الأطعمة ويسود سكون وهدوء غير عادى . وبعد الإفطار تستعيد الشوارع نشاطها وضجيجها .

وتبدأ مع رمضان ما تسمى "بالمقابلة"، وهى تلاوة القرآن بصوت عالٍ فى الجامع بمعرفة عدد من القراء والحفظة ، وغالبًا ما تستمر هذه التلاوة طوال شهر رمضان بحيث يتم ختم القرآن فى السادس والعشرين من رمضان . ويتم بالطبع اختيار أفضل قراء القرآن وحفظته ، وهذا هو السبب فى الإقبال الكبير على الاستماع إليهم علاوة على معرفة البشانقة بأن الإنصات إلى هذه التلاوة القرآنية يدخل فى نطاق العبادات ويثاب المرء عليه ثوابًا كبيرًا . وتجرى التلاوة القرآنية فى أكثر من مكان بالمدن الكبرى وفى أوقات مختلفة من اليوم .

كما تعقد فى رمضان دروس الوعظ فى الجوامع ، وهى تتعرض لشرح مبادئ الإسلام وتعاليمه وقواعد الصيام وما إلى ذلك . وتعقد الدروس يوميا فى أغلب الأحوال ، وتعقد للنساء أولاً ثم للرجال بعد صلاة الظهر ، كما يتم إلقاء دروس الوعظ فى أماكن عدة وجوامع عديدة بالمدن الكبرى . وغالبًا ما يقوم بإلقاء هذه الدروس قدامى الطلاب بالمدارس الإسلامية وكلية الدراسات الإسلامية وغيرهم من الأئمة والوعاظ .

وفى العادة يتم تبادل الدعوات لتناول الإفطار ، وتتم دعوة الأقارب والأصدقاء والجيران وغيرهم ، وعلى الأخص تتم دعوة الوالدين إذا كانا يعيشان بعيداً عن أولادهما . وتمثل هذه الولائم للإفطار متعة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يعدونها ويحضرونها . وفى بعض الأماكن بالبوسنة والهرسك يتم إعداد موائد إفطار جماعية

طوال شهر رمضان . ويبدأ الإفطار الجماعى فى بعض القرى من الخامس عشر من رمضان وحتى نهايته .

وعادة الاعتكاف معروفة أيضًا لدى البشانقة المسلمين . وعادة ما يعتكف شخص واحد فى كل مسجد ، وفى سرايفو يعتكف عدة أشخاص فى كل مسجد . ويقوم الأثرياء من البشانقة المسلمين بإعداد وإحضار الطعام للمعتكفين ولغيرهم من الضيوف والمسافرين .

بناء مسكن والانتقال إليه :

من العادات الدينية والتقاليد الشعبية للبشانقة المسلمين عند شروع أحدهم فى بناء منزل له ، أن يسرع الأقارب والجيران والأصدقاء فى تقديم المساعدة له ، وفى بعض الأحيان يشكل بعض من هؤلاء جماعة من المتطوعين للمساعدة فى الأعمال الشاقة من البناء ، وفى أحيان أخرى يتم تقديم مساعدات عينية مثل قوالب الطوب أو الأعمدة الخشبية أو مواد البناء المختلفة وما إلى ذلك . وعند وضع أساس المنزل يتم فى بعض المناطق ذبح أضحية ، وغالبًا ما يحضر هذه المناسبة ، بناء على دعوة من صاحب المكان ، إمام الحى أو المدينة الذى يصلى ركعتين للّه داعيًا بإتمام البناء بنجاح .

ومن العادات الشعبية الطريفة أنه عند قرب الانتهاء من أعمال البناء بالمنزل ووضع بلاطات القرميد المسطحة على جانبى سقف المنزل يقف أحد العمال على أعلى طرف فى السقف ويأخذ فى التهليل والصياح إلى أن يتم الانتهاء تمامًا من تغطية جانبى السقف ببلاطات القرميد ، وفى هذه الأثناء يقوم صاحب المنزل والجيران والأصدقاء بتقديم مختلف ألوان الهدايا والعطايا إلى العمال الموجودين مثل القمصان ومختلف أنواع المناديل وقطع القماش وما شابه ذلك . وطوال فترة تسلم الهدايا يستمر العامل فى الصياح والتهليل والدعاء بالبركة والخير لمقدم الهدية وشكره عليها .

وفى بعض الأماكن يجرى احتفال خاص بمناسبة الانتقال إلى مسكن أو منزل جديد . وبعد الانتهاء من كل الاستعدادات اللازمة للانتقال إلى المسكن الجديد يدخله أولاً رب أو ربة الأسرة وهو متوضئ حاملاً بين يديه غربالاً مغطى بمنديل ، وفى بعض الأماكن يحمل بدلاً من الغربال صندوقًا خشبيا للخبز له غطاء ، وبه مصحف ومسبحة وخبز كرمز للحياة الإسلامية وللرخاء . وفى مدينة سرايفو يحمل رب الأسرة وهو داخل إلى مسكنه الجديد مصحفًا وخبزًا وأرزًا ويقرأ البسملة عند فتح الباب والخطو إلى داخل المسكن بقدمه اليمنى مع التكبير ويضع الغربال فى مكان مناسب بالمسكن ثم يصلى ركعتين ويدعو لنفسه ولأهله بالصحة والسعادة والحياة الطيبة الهادئة ، وبعد ذلك يبدأ إدخال الأثاث والحاجيات الأخرى إلى المسكن .

وبعد الانتهاء من وضع الأثاث فى أماكنه المناسبة وترتيب كل شىء والشروع فى بدء الحياة الطبيعية بالمسكن الجديد يتم الاحتفال رسميا بهذه المناسبة وذلك بدعوة الأقارب والأصدقاء والجيران لحضور الحفل وتناول الطعام . وعادة ما يتم فى بداية الحفل إنشاد قصائد المدح النبوى وبعده قراءة بعض أجزاء من القرآن ، ثم إنشاد القصائد الدينية والأغانى الشعبية وقراءة الدعاء المناسب بمعرفة إمام الحى أو المدينة أو بمعرفة عدة أئمة تبعًا لرغبة صاحب المسكن ، وغالبًا ما تخصص حجرة للرجال وأخرى للنساء ، ثم يبدأ تناول الطعام وبعده يدعو الإمام المصلين لأداء صلاة العشاء . وحسب العادة يقدم جميع المدعوين لأهل المسكن مختلف الهدايا بهذه المناسبة ، وفى أغلب الأحيان تمثل الهدايا بعض الاحتياجات المنزلية .

تشييد وافتتاح جامع جديد :

من المعلوم أنه يتم تشييد الجوامع فى البوسنة والهرسك ، كما فى غيرها من البلاد ، بالتبرعات . وكانت توجد هنا فيما سبق عادة طريفة لجمع هذه التبرعات ، فقد كان يقوم بجمعها شخص يسمى "العلم" . وعلى الرغم من أن الكلمة مأخوذة عن اللغة العربية فلا توجد أية صلة بين معناها الأصلى ومعناها الحالى فى اللغة البوسنية

وهو جامع التبرعات لبناء مسجد أو جامع . ورأيى أنه تمت تسمية هذا الرجل بهذا الاسم نسبة إلى العلم الذى يضعه على كتفه . ويتم اختيار "الأعلام" جامعى التبرعات من بين البشانقة المسلمين الذين يتمتعون بسمعة طيبة ومن بين أعضاء الجماعة الإسلامية . ويطوف جامعو التبرعات القرى والمدن وقد وضعوا علماً على كتفهم وينادون باستمرار: علم ، علم ، ويمضون من منزل إلى آخر ومن دكان إلى آخر بغرض جمع التبرعات لبناء الجوامع . وفى بعض الأحيان يفرد جامع التبرعات منديلاً كبيراً أمام باب الجامع بعد الانتهاء من صلاة الجمعة . ويتم تسجيل كل التبرعات التى تم جمعها فى سجلات معتمدة للتبرعات تكون برفقتهم . وحينما يمر جامع التبرعات عبر أحياء المدينة أو القرية يتبعه الصغار وقد يساعدونه فى جمع التبرعات . وكانت ربات البيوت والفتيات يهدون جامع التبرعات أعمالهم اليدوية المطرزة من مختلف أنواع المناديل والمفارش وغير ذلك ، وكان جامع التبرعات يزين بهذه الهدايا العلم الموضوع على كتفه .

وبعد الانتهاء من تشييد الجامع يتم ترتيب وإعداد افتتاحه الرسمى، وغالباً ما يتم الافتتاح فى يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة ، ويتم الإعلان عن موعد افتتاح الجامع فى الصحف أو بأى أسلوب آخر مناسب . ومشاركة البشانقة المسلمين فى الاحتفالات الرسمية بافتتاح الجوامع يبين مدى تقديرهم للجوامع واحترامهم لها . وعلى سبيل المثال فقد جرى الاحتفال بمرور أربعمائة سنة على تشييد جامع الغازى خسرو بك فى سرايفو فى أكتوبر ١٩٣٢م وحضره حوالى عشرين ألف شخص .

وفى أغلب الأحوال يشترك بانتظام فى الافتتاحات الرسمية للجوامع ، بالإضافة إلى العديد من الضيوف ، كبار المسئولين بالجماعة الإسلامية وممثلو الجماعات السياسية والاجتماعية والدينية التى يقع الجامع الجديد فى منطقتها . ولا توجد برامج محددة تحديداً صارماً لافتتاح الجوامع وإنما تتكيف البرامج وفقاً للظروف المحلية ويتم على الدوام إثراؤها بمضامين جديدة ، الأمر الذى يمنحها أهمية خاصة وسحراً وجاذبية . وغالبًا ما يعرب ممثلو الجماعات الدينية الأخرى عن تضامنهم وذلك بالاشتراك فى حفل الافتتاح ، كما يظهر الود الكبير وحسن الضيافة من جانب الجماعة الإسلامية المسئولة عن تشييد الجامع .

ويتمثل الجانب الديني من الاحتفال بافتتاح جامع في تلاوة القرآن وإنشاد مختلف القصائد الدينية وقصائد المدح النبوى والتكبير وعقد دروس الوعظ المناسبة وقراءة الدعاء والأداء الجماعي للصلاة وما شابه ذلك . أما الجانب الرسمي فيشمل استقبال الضيوف وإلقاء كلمات التحية والترحيب والتسليم الرمزى لمفتاح الجامع ثم تناول الطعام وتوديع الضيوف .

الزواج :

فيما سبق كان القضاة أو من يفوضونهم من الأئمة يقومون بإتمام عقد الزواج وفقًا لتعاليم الشريعة الإسلامية وذلك بعد أن توقفت المحاكم الشرعية عن العمل فى مارس من عام ١٩٤٦م . وبعدها أخذ يقوم بهذه المهمة المفتى أو إمام الجماعة . وقد نصت القوانين أيام الحكم الشيوعى للبوسنة والهرسك على ضرورة عقد الزواج أمام أجهزة الدولة المختصة ثم بعد ذلك يتم عقد الزواج وفقًا للشريعة الإسلامية .

وتحث عادات وتقاليد البشانقة المسلمين على عدم فضح وخداع وهجر الفتاة الشريفة وتلطيخ سمعتها ، وتعتبر ذلك من الذنوب الكبيرة وتوعدت الشباب الذين يخطئون فى حق الفتاة الشريفة بأنهم سيلقون بالتأكيد العقاب من اللّه فى الدنيا والآخرة ويلقون الاحتقار والازدراء من جانب الناس والمجتمع . وتحفل إبداعاتهم الشعبية بالعديد من الحكايات والأقاصيص والطرائف التى تتحدث عن هذا الموضوع .

ومن عادات الزفاف إحضار العروس إلى منزل العريس قبل يوم الاثنين ، وفى بعض الأحيان قبل ذلك ، وتتم إقامة حفل الزفاف فى يوم الجمعة التالى . ويستمر الفرح منذ إحضار العروس وحتى قبيل حفل الزفاف . وفى أغلب الأحوال يتم عقد الزفاف فى منزل العريس وعادة ما يتم ذلك فى يوم الخميس ، أى فى اليوم السابق لحفل الزفاف بعد أن تكون العروس قد طلت يديها وقدميها بالحناء وفقًا للعادات الشعبية . ويقوم بإجراء عقد الزواج إمام الحى أو المدينة بناء على تفويض من القاضى المختص . ويقوم الإمام بسؤال وكيلى كل من العروس والعريس عن موافقتهما وينهى

إجراءات العقد كما هو متبع فى الدول الإسلامية ، ثم يتلو بعض سور القرآن وبخاصة تلك المتعلقة بالزواج ويقرأ بعض الأدعية ويؤمن الحاضرون عليها .

وبعد انتهاء الإمام من قراءة الأدعية يدخل العريس الحجرة ، ويقبل يد الإمام أولاً ثم يد والد العروس ويد والده فى حالة وجودهما ، ويقبل بعد ذلك يد الوكيلين والشهود وباقى الموجودين من الكبار فى السن ، ويأخذ الإمام التصريح بالزواج الذى حصل عليه من القاضى ويسجل عليه البيانات الخاصة بإتمام عقد الزواج حيث يسجل البيانات الأساسية الخاصة بالعريس والعروس وبالوكيلين والشهود ومقدار المهر ، وفى النهاية يضع التاريخ والتوقيع والختم . ويصبح هذا هو عقد الزواج للعريس الذى يتركه للعروس لكى تحفظه فى صندوقها الخشبى ويستخدم عند الضرورة كوثيقة لحصولها على حقوقها لدى المحكمة الشرعية وما إلى ذلك .

وتقام فى مساء يوم الخميس قبل الزفاف وليمة كبيرة فى منزل العريس يحضرها المدعوون والإمام ، وعادة ما يرتبط عدد المدعوين بالحالة المالية للعريس وبالعادات المحلية . وبعد الانتهاء من تناول الطعام يقرأ الإمام الدعاء المألوف ويؤمن الحاضرون على قوله . ومن الضرورى بعد تناول الطعام أداء صلاة العشاء جماعة وراء الإمام الذى يتلو جزءاً من القرآن وبعده الدعاء الخاص بمباركة الزواج وتمنى الحياة السعيدة للعريسين . وفى أثر ذلك يقوم العريس بتقبيل يد الإمام ثم يد والده ويد باقى كبار المدعوين سناً ، ويصطحبه أحد أقربائه أو أصدقائه القريبين إلى حجرته حيث تنتظره العروس .

وفى بعض الأماكن تصاحب العروس منذ قدومها وحتى ليلة الزفاف أليفتها ، وهى امرأة تجيء معها فى موكب العرس وتصاحبها طوال الوقت ولا تنفصل عنها . وعند دخول العريس إلى حجرة عروسه يعطى منحة لهذه الأليفة التى تودعهما وتنسحب إلى حجرة أخرى . وفى اليوم التالى بعد انقضاء الزفاف وحصول الأليفة على نصيبها من المنح والهدايا من العريسين ومن أقاربهما تعود إلى منزلها ، ثم تذهب إلى والدى العروس لكى تحكى لهما بالتفصيل عن انطباعاتها وملاحظاتها عن العروس وعن حفل

الزفاف وكل ما يتعلق بذلك . وهذه المعلومات مهمة للغاية بالنسبة لوالدى العروس وبخاصة إذا كانا يعيشان فى مكان بعيد عن ابنتهما ، وهى أول معلومات مفصلة من مصدر موثوق به عن الوسط والبيئة والظروف التى ستقضى فيها ابنتهما حياتها المقبلة .

واستكمالاً لمراسم الزفاف وتنفيذاً للعادات الشعبية يتم فى يوم الجمعة تنفيذ الحفل الرئيسى للزفاف وبدء الوليمة التى تستمر يومًا كاملاً ويحضرها أكبر عدد من الفتيات والشباب بمصاحبة الموسيقى والغناء والرقص الشعبى . ويؤدى الجميع الرقصات الشعبية فى حلقة مستديرة بمصاحبة الدفوف والطبول ، وغالبًا ما تجتمع الفتيات والنساء بمفردهن داخل المنزل ويؤدين الرقصات الشعبية . وإذا كان العريس من أسرة ميسورة فإنه يتم فى فترة بعد الظهر تنظيم مختلف ألوان الرقص الشعبى ومسابقات الخيل والعدو والرماية مع تقديم جوائز للفائزين .

ومن العادات والتقاليد الشعبية للزفاف التى تبدو إسلامية ولكن لا صلة لها بالإسلام ، أن العروس تدخل مسكن عريسها وهى واضعة المصحف فوق رأسها . وبعد دخولها إلى المسكن تضع المصحف تحت إبطها الأيمن وتضع رغيفًا من الخبز تحت إبطها الأيسر . وتأخذ العروس – فى حضور المعلمة – فى تصفح المصحف وتلاوة آية قرآنية من كل صفحة ثم تقول : « سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » ، وبعد الانتهاء من تصفح المصحف تقبله وتضع لها المعلمة المصحف على رأسها ثانية . وفيما بعد يتم وضع المصحف فى مكان عالٍ مع تركه مفتوحًا . ومما لا شك فيه أن مثل هذا الأمر ليس معروفًا فى طقوس الزواج الإسلامية ، وهناك احتمال كبير من أنه منقول من ديانة أخرى .

وفى سرايفو كان يتم أيضًا – بالإضافة إلى ما ذكرناه – إجراء ما يسمى بحفل "الزفاف الحريمى" . فبعد إتمام عقد الزواج وفقًا للشريعة الإسلامية تتجمع النساء فى منزل العريس وعادة فى وقت بعد الظهر . وتقوم العروس أمامهن بتصفح المصحف كله مع قراءة البسملة عند كل صفحة ، وفى هذه الأثناء تقوم الفتيات بتلاوة سورة يوسف بصوت خفيض . وبعد انتهاء العروس من تصفح المصحف تقرأ بعض السور

القرآنية ، ثم تقوم المعلمة بتلاوة دعاء الزفاف وتؤمن عليه كل الموجودات . وفى النهاية يتم تقديم الشربات والقهوة والملبن وغير ذلك من الحلوى .

ومن عادات وتقاليد الزفاف التى تُنسب إلى الإسلام أيضًا دون معرفة أصلها الحقيقى أو مصدرها أن الشاب الذى يريد إتمام عقد الزواج لا بد أن يقدم للقاضى أو الإمام الذى سيقوم بإتمام عقد الزواج إقرارًا كتابيا وإثباتًا بأنه قد قام بغرس وتطعيم عدد معين من أشجار الفاكهة حتى ولو كان ذلك فى أرض أجنبية أو فى أرض لا مالك لها . ويكون الإقرار الكتابى مُوقعًا من رئيس المدينة أو القرية ، ويمكن الإثبات عن طريق الشهود أيضًا . ويقال إن هذا الأمر مأخوذ عن النبى ﷺ ، الذى شجع على زرع وغرس الأشجار . وجدير بالذكر أنه يوجد كثير من هذه الأشجار على متن الجبال وعند المنحنيات وفى طريق المسافرين والقوافل ، وبالطبع كانت تفيدهم فى التظلل بها والأكل منها وخصوصًا فى أيام الصيف الحارة .

الحج :

أبدى البشانقة المسلمون طوال تاريخهم اهتمامًا بالحج باعتباره ركنا أساسيا من أركان الإسلام ، ولذا ارتبط لديهم بعديد من العادات الشعبية الخاصة بالاحتفال بتوديع الحجاج البشانقة واستقبالهم . ووجدت الأمور المرتبطة بالحج من الاستعداد له والاحترام والدعاء والسفر وأداء أركان الحج وعودة الحجاج واستقبالهم – انعكاسًا بشكل أو بآخر فى مختلف الإبداعات الشعبية .

وكانت هناك حتى عام ١٩٢٥م عادات متميزة فى موستار من أجل توديع الحاج ، إذ يصطف التلاميذ أمام الكُتّاب ويتحركون بصحبة معلمهم صوب منزل الشخص الذى ينوى التوجه إلى الحج ، ويقرأ بعض التلاميذ الأدعية بصوت عالٍ ويُؤَمن على قوله الباقون فى الموكب . وبالتدريج يتضخم الموكب بانضمام أولاد آخرين إليه إلى أن يتم الوصول إلى منزل الحاج . وبينما يتخذ الحاج استعداداته الأخيرة للسفر يستمر التلاميذ الموجودون فى الغناء فى الدعاء والتأمين عليه . وبعدما ينهى الحاج استعداداته

ويوزع الهدايا المالية والمناديل المطرزة على التلاميذ ويمنح المعلّم هديته المألوفة يتحرك الموكب صوب الجامع يتقدمه الحاج . وخلال سيرهم أيضًا فى اتجاه الجامع يقرأ التلاميذ الدعاء ويؤمنون عليه ويتضخم الموكب إلى أن يصل الجميع إلى الجامع . ويدخل الحاج إلى الجامع لأداء ركعتى الإحرام والدعاء ، وفى هذه الأثناء يستمر التلاميذ فى الدعاء والتأمين عليه . وبعد خروج الحاج من الجامع يتفرق التلاميذ إلى منازلهم ويودع البعض الحاج ويصاحبه البعض الآخر إلى محطة السفر .

وبالأسلوب نفسه كان يتم فى موستار استقبال الحجاج عند عودتهم من الحج إذ يستقبلهم تلاميذ الكُتَّاب فى المحطة مع تلاوة الأدعية والتأمين عليها ويستمرون فى مصاحبتهم فى موكب إلى أن يصلوا إلى منازلهم حيث تكون الموائد الحافلة بالأطعمة معدة للتلاميذ والمدعوين . ومن ناحية أخرى يتم توزيع كميات كبيرة من الحلوى على سكان المدينة .

وكانت هناك عادة فى سرايفو أن يصلى الحجاج بعد عودتهم من الحج أول جمعة فى جامع السلطان ، ومن المعتاد بعد عودته أن يظل الحاج بمنزله ثلاثة أيام دون خروج إطلاقًا يستقبل فيها الضيوف وبعدها يقوم بتبادل الزيارات مع الجيران والأقارب والأصدقاء .

واليوم وقد اختلفت الظروف وتيسرت سبل السفر فقد تغيرت نسبيا أيضًا العادات والتقاليد الخاصة بتوديع واستقبال الحجاج البشانقة ، فمن المعتاد أن المتوجهين إلى الحج يرتبون ، بعد إنهائهم لإجراءات الإحرام فى الجامع ، يرتبون فى منازلهم لدائرة ضيقة من الأصدقاء والأقارب احتفالاً مناسبًا يتم فيه إنشاد قصائد المدح النبوى وقراءة الأدعية من أجل القيام برحلة سعيدة .

وفى الأيام المحددة للسفر وفقًا لبرنامج رحلات الحج الذى تصدره مشيخة الجماعة الإسلامية يصاحب الأقارب والأصدقاء الحجاج بمختلف السبل مع إنشاد القصائد الدينية والتكبير من منازلهم وحتى مراكز التجمع المحددة للحجاج حيث يتم ترتيب وداع مشترك للحجاج . ويرافق أقرب الأقارب والأصدقاء فقط حجاجهم إلى

مطار الإقلاع حيث يودعونهم ويتمنون لهم رحلة سعيدة . وعادة ما يحضر مثل هذه الاحتفالات للوداع المسئولون بمشيخة الجماعة الإسلامية .

وبطريقة مماثلة يتم استقبال الحجاج بعد عودتهم ، وينتهى الاستقبال فى أغلب الأحيان بإقامة الولائم فى منازلهم وتقديم مختلف الهدايا المناسبة التى يحملها الحجاج لأقاربهم وجيرانهم وأصدقائهم . والهدايا المألوفة التى يحضرها الحجاج لأقاربهم هى : الملابس بمختلف أنواعها والسجاجيد والحلى والعطور والمسابح وأغطية الحجاب والإيشاربات وحناء الشعر وما شابه ذلك . وكانت هذه الهدايا وغيرها من الحاجيات التى يجلبها الحجاج بصحبتهم تسمى فيما سبق بالسحارات . ومن الأرجح أنها سميت بذلك لأن الحجاج كانوا يجلبون حاجياتهم فى صناديق خاصة تسمى "السحارات" ، وفيما بعد كانوا يستخدمون هذه الصناديق لنقل وحفظ مختلف الأشياء الثمينة فى منازلهم مثل ملابس الأعياد والملابس الرسمية والحلى والأموال وما شابه ذلك . وكانوا يطلقون على هذه الصناديق "سحارات الكعبة" ، وكانت على الدوام مصنوعة بأشكال فنية جميلة ومرصعة بالزخارف .

الأضحية والاحتفال بالعيدين :

من الملاحظ فى كثير من الأحيان وبخاصة فى القرى اهتمام البشانقة بذبح أضحية العيد أكثر من اهتمامهم بتأدية أركان الإسلام الأخرى . ويعزى البعض هذا الاهتمام الكبير بالأضحية إلى وجود معتقدات مختلفة لدى البشانقة بأن ذبح أضحية يشفى من الأمراض وينجى من ينحرها وأسرته من المآسى والمصائب والمهالك .

ويهمنا فى هذا الصدد أن نبرز إحدى العادات البشناقية الحديثة المفيدة للغاية المتعلقة بذبح الأضحيات ، فمن أجل إتاحة الفرصة أمام أكبر عدد من البشانقة الراغبين فى نحر الأضحيات وتسهيل ذلك لهم وبخاصة بالنسبة لأولئك الذين لا يتوفر لديهم مكان للذبح بسبب الزحف العمرانى السريع والظروف الصحية والبيئية وغير ذلك من ظروف السكن والمعيشة فإن مشيخة الجماعة الإسلامية تنظم كل عام عملية

الذبح للراغبين على أرض مزرعتها الواقعة فى منطقة "يارتشيدول" وفقًا لتعاليم الشريعة الإسلامية .

وهذا أمر مهم للغاية بالنسبة لدولة تقع فى أوروبا حيث لا يتم الذبح فى كثير من الأحيان وفقًا للشريعة الإسلامية . ويهب كثير من البشانقة لحوم هذه الأضاحى من أجل إطعام تلاميذ وتلميذات مدرسة الغازى خسرو بك وطلبة كلية الدراسات الإسلامية بسرايفو . ويؤكد المسئولون بالمشيخة الإسلامية أن هناك تطويراً مستمرا وتحسينًا فى أسلوب تنفيذ عملية الذبح وتوزيع لحوم الأضحيات وجلودها بشكل يفيد الجميع ويرضيهم ، كما أنه يجرى اتخاذ اللازم لتسهيل حضور أصحاب الأضحيات عملية الذبح وأداء الواجبات والعادات المصاحبة لها مثل التوضأ وصلاة ركعتين والاشتراك فى التهليل والتكبير وما إلى ذلك .

وفيما يتعلق بالاحتفال بالعيدين فإنه بشكل عام يتم الإعداد جيداً لاستقبال العيدين أحسن وأجمل استقبال ، ويسعى الكبار والشباب والصغار والأغنياء والفقراء على حد سواء للاحتفال بالعيدين وقضاء أيام العيد فى بهجة وسرور كلٌ بطريقته ووفقًا لإمكانياته وقدراته .

وفى بعض الأماكن كانت تنطلق المدافع بعد صلاة العصر فى اليوم السابق للعيد مباشرة . وفى أماكن أخرى يتم بعد المغرب فى اليوم السابق للعيد إشعال القناديل على المآذن كإشارة واضحة للجميع بحلول العيد . وكانت توجد فى القرى ، إلى عهد قريب ، عادة مفادها أن يقوم فى صباح يوم العيد قارعو الطبول والعازفون بالطواف على المنازل والدق على الطبول وعزف الموسيقى ويقوم رب البيت بمنحهم المنح والهدايا . ومن المعتاد أن يتم ذلك بشكل خاص فى أول أيام عيد الفطر .

ويقوم الرجال بعد صلاة العصر فى اليوم السابق للعيد ، وفى أماكن أخرى بعد أداء صلاة العيد ، بزيارة مقابر الأهل والأقارب وتلاوة القرآن وبخاصة سورة يس ويهبون ثوابها إلى أرواح الموتى . وفى الآونة الأخيرة كثر اصطحاب الرجال للنساء أيضًا عند زيارة المقابر ، وهى عادة لم تكن موجودة من قبل .

وفى أغلب الأحيان يتم شراء ملابس وأحذية جديدة للصغار قبل العيد . وعادة ما يغتسل الصغار ويستحمون فى ليلة العيد ، أما الكبار فيفعلون ذلك فى صباح العيد قبل الذهاب إلى الجامع لأداء صلاة العيد ويرتدى الجميع الثياب الجديدة أو أجمل ما عندهم من ملابس ، ويتزينون ويتعطرون ويذهبون إلى أقرب جامع لأداء صلاة العيد . وعند العودة من الجامع يجرى تبادل التهانى ، ويقوم بعض البشانقة – سواء الكبار أو الصغار – بإطلاق الأعيرة النارية الصوتية من نوافذ منازلهم إعلاناً عن فرحتهم وبهجتهم بقدوم العيد وبعد ذلك يمنح الآباء صغارهم "العيدية" مع الدعاء لهم بالخير والبركة .

وفى بعض المدن الكبرى لا يتم أداء صلاة العيدين والجمعة إلا فى "المصلى" ، وهو مكان خلاء واسع يتجمع فيه المصلون للصلاة ويسمى بنفس الكلمة العربية . وهناك مصلى مشهور ما زال موجوداً حتى اليوم فى مدينة تراڤنيك . وقد جاء ذكر المصلى فى عدة قصائد من الإبداعات الشعبية .

وعادة ما يطوف الصغار فى العيد بأقرب أقاربهم وجيرانهم ، سواء بمفردهم أو مع آبائهم ، من أجل التهنئة بالعيد . وغالباً ما يفعل الصغار ذلك وهم فى مجموعات وخصوصاً عند الذهاب إلى منازل قريبة من منازلهم ، وبالطبع يحصلون على العيديات . أما الرجال فيفضل أكثرهم القيام بزيارات العيد للجيران والأقارب والأصدقاء فى اليوم الثانى أو الثالث من أيام العيد ، واليوم الأخير محجوز عادة لتبادل الزيارات بين النساء وذهابهن إلى منزل الوالد ، ومن هنا يطلقون على هذا اليوم "عيد النساء" .

وفى مدينة تريبنى كانت توجد حتى عام ١٩٣٥م عادة بأن يقوم الأولاد بعد صلاة العيد بالطواف فى جماعات وهم يحملون الرايات الخضراء إلى وقت المساء على منازل المسلمين فى المدينة وضواحيها القريبة . ويدخلون جرياً إلى كل فناء وعلى الفور يأخذ أحدهم فى إنشاد إحدى القصائد الدينية وبخاصة تلك التى تبدأ بالأبيات التالية :

جـود بفضـلك يا إلـه   مـن لــه زاد قليـــل

مفلـــس بصـــدق يـأت   بـابك يـا جليـــــل

ومن الطريف أنهم ينسبون أبيات هذه القصيدة إلى الخليفة أبى بكر الصديق (رضى اللّه عنه) .

وبعد الدعاء والتأمين عليه يحصل الصغار من رب البيت على "العيدية" ويهرولون إلى فناء آخر وهكذا بالترتيب إلى أن يطوفوا بكل المنازل فى المدينة وضواحيها . وفى الختام بعد انتهاء الطواف بكل الأماكن يوزع الصغار العيديات التى جمعوها على أنفسهم بالتساوى .

ومن القصائد التى يتم إنشادها قبيل صلاة العيد فى بعض الأماكن عند توذلا هى تلك القصيدة المنسوبة إلى أبى وهيب بن عمر بن مغيرة (المتوفى فى عام ٧٩٩م) من عهد هارون الرشيد ، وتقول :

ليس العيد لمن لبس الجديد

إنما العيد لمن أمن من الوعيد .

ليس العيد لمن تبخر بالعود

إنما العيد للتائب الذى لا يعود .

ليس العيد لمن تزيّن بزينة الدنيا

وإنما العيد لمن تزوّد بالتقوى .

ليس العيد لمن ركب المطايا

وإنما العيد لمن ترك الخطايا .

ليس العيد لمن بسط البساط

وإنما العيد لمن تجاوز الصراط .

* * *

مراجع مختـــارة

١ - موسوعة يوغسلافيا ، زغرب ١٩٨٣م ، المجلد الثانى ، الطبعة الثانية .

٢ - محمد حاجياهيتش ، خصوصية البوسنة والهرسك ومعاناة المسلمين ، سرايفو ١٩٩١م .

٣ - دوبرافكو لوفرنيوڤيتش وآخرون ، الحقيقة عن البوسنة والهرسك - حقائق عن تاريخ البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٩١م .

٤ - نيول مالكولم ، تاريخ البوسنة - عرض موجز ، زغرب - سرايفو ١٩٩٥م .

٥ - شبيرا كوليشيتش ، بحوث فى أصل المسلمين فى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٥٣م .

٦ - محمد حاجياهيتش ، أصل مسلمى ، البوسنة ، سرايفو ١٩٩٠م .

٧ - عاطف بوريڤاترا ومحمد حاجياهيتش ، ألف باء المسلمين ، سرايفو ١٩٩٠م .

٨ - محمد حاجياهيتش ، الإسلام والمسلمين فى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٧٧م.

٩ - مصطفى إماموڤيتش ، تاريخ البشانقة ، سرايفو ١٩٩٧م .

١٠ - عاطف بوريڤاترا وآخرون ، المسلمون والقومية البشناقية ، سرايفو ١٩٩١م .

١١ - محمد حاجياهيتش ، من التقاليد إلى الهوية - أصل المسألة القومية لمسلمى البوسنة ، سرايفو ١٩٧٤م .

١٢ - محمد فيليبوڤيتش ، البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٩٧م .

١٣ – حاج محمد هانچيتش ، نشر الإسلام فى البوسنة والهرسك ، وأصل مسلمى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٤٠م .

١٤ – محمد فيليبوڤيتش ، السياسة البشناقية – التطور السياسى فى البوسنة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، سرايفو ١٩٩٦م .

١٥ – مصطفى إماموڤيتش ، عرض لتاريخ الإبادات الجماعية ضد المسلمين فى الدول اليوغسلافية ، سرايفو ١٩٩١م .

١٦ – انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فى ولاية البوسنة ، مجلة الفيلولوچيا الشرقية ، المجلد ٤١ ، سرايفو ١٩٩١م .

١٧ – إسماعيل باليتش ، ثقافة البشانقة ، وين ١٩٧٣م .

١٨ – محسن رذڤيتش ، البوسنة والبشانقة – اللغة والكتابة ، سرايفو ١٩٩٦م .

١٩ – بيهيا زلاتار ، العصر الذهبى لسرايفو – القرن السادس عشر ، سرايفو ١٩٩٦م .

٢٠ – للمؤلف ، شخصية العربى والكلمات العربية فى النثر باللغة الصربو كرواتية ، رسالة دكتوراة لم تنشر ، بلغراد ١٩٧٩م .

٢١ – د. صافت بك باش آچيتش ، البشانقة وأهل الهرسك فى الأدب الإسلامى ، سرايفو ١٩٨٦م .

٢٢ – محمد بن محمد الخانجى البوسنى ، الجواهر الأسنى فى تراجم علماء وشعراء بوسنة ، القاهرة ١٣٤٩ هجرية .

٢٣ – للمؤلف ، الأدب اليوغسلافى المعاصر ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٤م .

٢٤ – على إسحاقوڤيتش ، الجواهر – مختارات من أدب المسلمين ، زغرب ١٩٧٢م .

٢٥ – حازم شابا نوڤيتش ، أدب مسلمى البوسنة والهرسك باللغات الشرقية ، سرايفو ١٩٧٣م .

٢٦ – المؤلف ، شخصية البطل العربى فى الأدب اليوغسلافى ، مجلة العربى ، العدد ٢٦ ، الكويت ، سبتمبر ١٩٨٠م ، ص ١٢٢ وما بعدها .

٢٧ – أنور مولا خليلوفيتش ، العادات الدينية للمسلمين فى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٨٨م .

٢٨ – أنطون خانجى ، حياة وعادات مسلمى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٩٠م ، الطبعة الثالثة .

* * *

المؤلف فى سطور :

دكتور جمال الدين سيد محمد

- من مواليد القاهرة فى عام١٩٤٢م .
- تخرج فى كلية الألسن - جامعة عين شمس عام ١٩٦٣م (قسم اللغة الصربوكرواتية) .
- حصل على درجة الماجستير فى عام ١٩٧٦م .
- حصل على الدكتوراه فى عام ١٩٧٩م من كلية اللغات بجامعة بلغراد .
- له ترجمات من الأدب العربى إلى لغات شعوب يوغسلافيا سابقًا .
- له ترجمات من آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية سابقًا إلى اللغة العربية .
- من أشهر مؤلفاته : الأدب اليوغسلافى المعاصر ، مقدونية بين الماضى والحاضر ، مصر وعدم الانحياز ، البوسنة والهرسك .
- نشر عديداً من الأبحاث فى مجال آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية السابقة والدراسات المقارنة بالعديد من المجلات فى العالم العربى .
- عضو اتحاد كتاب جمهورية مصر العربية .

* * *

المحتــوى

التصحيح اللغوى : آمال الديب
الإشراف الفنى : نسرين كشك